عدي بن زيد العبادي

الشاعر المبتكر

دراسة تحليلية لشخصيته وشعره

تناولت بيئة الشاعر وحياته وأغراضه وفنه

بقلم

محمد علي الهاشمي

نشر وتوزيع المكتبة العربية محمد تيد السبني

حلب - شارع باب النصر ☎ ١٦٧٨٧

عدي بن زيد العبادي

الشاعر المبتكر

دراسة تحليلية لشخصيته وشعره

تناولت بيئة الشاعر وحياته وأغراضه وفنه

بقلم

محمد علي الهاشمي

توزيع المكتبة العربية محمد تيلاليني

حلب ـ شارع باب النصر ☎ ١٦٧٨٧

الطبعة الاولى

١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ولي كل نعمة وتوفيق ، والصلاة والسلام على من أرسله الله حفظاً للعربية ، وحياة للعرب ، ورحمة للعالمين .

وبعد ، فهذه دراسة اتسعت لجمع شعر عدي بن زيد العبادي وتحقيقه ودراسته ، قمت فيها بجمع هذا الشعر من مصادره ومظانه العديدة المنتشرة ، وهو عمل طويل مضن يقتضي من يتصدى له أن يلم بالمكتبة العربية باحثاً عن كل بيت ، ساعياً وراء كل خبر ، مسجلاً كل بارقة تومض أمامه ، مقيداً كل اشارة تلوح لناظريه .

وقد أقبلت على هذا العمل بعزيمة المؤمن ، أرود هذا الشعر في كل مصدر ، وأتعقبه في كل مرجع ، وأسأل عنه من لقيت من العلماء والباحثين ، لا أدخر في ذلك وسعاً ، ولا أضن عليه بجهد . وجعلت همي في ارتياد المصادر القديمة الموثوقة من كتب القرنين الثالث والرابع ، ثم شرعت بقراءة كتب الأدب

واللغة والاختيار العامة . ويمكن أن أصنف المصادر التي رجعت اليها الى ثلاثة أضرب : كتب الاختيار ، كتب الأدب واللغة ، كتب التراجم والطبقات والتاريخ .

ومن أهم كتب الاختيار التي اعتمدت عليها في جمع شعر عدي : المعاني الكبير ، وجمهرة أشعار العرب ، والاختيارين . وقد ضمت قدراً وفيراً من شعره .

وانتقلت بعد قراءة كتب الاختيار الى كتب الأدب واللغة، فجردت ما في الحيوان وشرح مقصورة ابن دريد ورسالة الغفران وأمالي ابن الشجري وغيرها من شعر عدي ، ثم فرغت للكتب اللغة بادئاً بأقدمها ، فاستعرضت ألفاط ابن السكيت، وجمهرة ابن دريد. والصحاح للجوهري ، ومقاييس اللغة لابن فارس ، والمحكم والمخصص لابن سيده ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدي .

وخلصت بعد ذلك الى كتب التراجم والطبقات ، وأهمها : طبقات فحول الشعراء ، والشعر والشعراء ، والأغاني ، ووجدت ان أوسعها وأكثرها احتفالاً بشعر عدي وأخباره هو كتاب الاغاني، بل هو أكبر المصادر التي عرضت لذكر عدي قاطبة ، وقد كان لي المنهل الثّر والمعين المغدق في شتى مراحل الدراسة .

وما أكثر ما قرأت بعد ذلك ثم طويت من غير أن أظفر ببيت واحد من الشعر ، أو خبر يتيم عن الشاعر ، وربما أُبْتُ من مطالعة الكتاب بما كنت التقطته قبل حين من مصدر آخر ، دون أن أضيف الى البحث جديداً .

وكنت أجرد ما يقع لدي من هذه الكتب جرداً كاملاً من البدء حتى الختام ، وأسجل ما انتثر فيها من شعر عدي وأخباره ، حتى اذا استوى بين يدي ديوان الشاعر محققاً محرراً وتوفرت بين يدي مادة البحث ، واستقام لي منهجه ، شرعت بالدراسة .

ولقد قامت دراستي لشخصية عدي وشعره على ما تجمع لديّ من شعره وأخباره ، ذلك أنني عدت الى الديوان الذي انتهيت من تحقيقه ، أستنطق فيه كل بيت ، واختلس الدلالة من كل تعبير ، واستوحي الظاهرة من كل صيغة وتركيب ، وأسجل مايقع في حسي من ملاحظات ، حتى اذا انتهت جولتي في الديوان ، صنفت هذه الملاحظات ، وأدنيت منها ما أسعفتني به أخباره الموثوقة ، وشرعت بالدراسة على هدي ماتهيأ أمامي من ملاحظات مستقاة من شعره وأخباره ، وسرعان ماتوضحت لدى معالم الدراسة في بابين : تناول الأول منهما (عديا الرجل) : بيئته وحياته ، وتناول الثاني (عديا الشاعر) : رواية شعره وتدوينه ، وأغراضه وخصائصه الفنية وآراء القدماء فيه .

ولقد كشفت هذه الدراسة التحليلية للشاعر عن شخصيته المزدوجة ، فاذا هو في ريعان شبابه الشاب الغزل اللاهي المترف الذي نشأ في الحيرة ، البلد المتحضر الغني ، وفي كنف أسرته الكبيرة المتنفذة ، واذا هو في كهولته وشيخوخته اللتين قضاهما في غياهب السجن الرجل الحكيم المتأمل اليقظ الواعظ الذي تنبه كيانه لفكرة الموت والفناء والبعث والنشور ، بعد أن يئس من النجاة أو كاد ، وواجهته نهايته حاسرة مخيفة مزلزلة .

وكشفت هذه الدراسة أيضاً عن جانب ثالث من شخصيته هو جانب الرجل السياسي اللبق المحبب ، ومن ثَمَّ كثر حساده وشانئوه ، ولُفَّ حول عنقه كثير من المؤامرات .

أما شعره فقد ألفيته صورة للمرحلتين اللتين مر بهما الشاعر ، ومن ثَم انشعب الى تيارين : تيار لاه غزل مرح ، وتيار جاد واعظ رزين .

وقد أبَنْتُ في هذه الدراسة أن شعره لم يكن صورة حية صادقة لنفسه في مرحلتي عمره الحافل بالمسرات والأحزان فحسب ، بل كان أيضاً ظاهرة فنية سجلت له سبقاً في الأغراض الشعرية وشكل القصيدة ومضمونها جميعاً .

وكانت لي في نهاية المطاف وقفة عند آراء القدماء في شعره، بدا لي فيها أنه لقي من بعضهم تحاملا وضيما ، ومن بعضهم الآخر حبّاً واقبالاً ، وقد عرضت لآراء كل من الفريقين ، وأتبعت ذلك بالمناقشة والتحليل .

وبعد ، فهذا عرض سريع لما بسطت في هذه الدراسة من أطراف القول ، وما وصلت إليه من نتائج البحث ، وأرى لزاما عليّ في ختام هذه الكلمة أن أتقدم بأطيب معاني الشكر إلى الأستاذ الكبير الدكتور شوقي ضيف الذي تفضل بالاشراف على هذه الدراسة التي كانت رسالة لنيل (الماجستير) من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فكان لي من تشجيعه وتوجيهه السديد أطيب العون على اكتمال هذه الدراسة واستقامة منهجها ، وإلى الدكتور عبد العزيز الأهواني والدكتور يوسف خليف اللذين أفدت من مناقشتهما فوائد قيمة ، وإلى الاستاذ العلامة محمود محمد شاكر الذي لفتني الى اختيار هذا الموضوع ، وأمدني بثاقب نظراته ، وإلى فضيلة العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الذي فتح لي أبواب مكتبته العامرة ، والذي كان لي من علمه الغزير خير معين فيما اعترضني من مشكلات .

وإذا كان قد عرا عملي هذا شيء من نقص ، واكتنفه غير قليل من الزلل ، فشفيعي صدق ما بذلت فيه من جهد ، وطول ما عانيت من عناء ، وأملي أن ألقى من آراء الزملاء الدارسين ما يعين على تلافي النقص وجبر الزلل ، والله أسأل العون والتوفيق والسداد .

حلب ٣ من جمادى الأولى ١٣٨٤ = ٩ من ايلول ١٩٦٤

محمد علي الهاشمي

الباب الأول

عدي الرجل

الفصل الأول

بيئته

١

الحيرة :

لم تظفر هذه المدينة القديمة السيئة الحظ بوثائق تاريخية قاطعة تؤرخ لها ، ولهذا كثر كلام المؤرخين واللغويين وعلماء تقويم البلدان على أصل تسميتها ، وكان بينهم في ذلك جدل طويل عريض ، كما هو شأنهم في أكثر المدن القديمة التي بعد عهدها عنهم ، فحاروا فيها .

ويرى معظم المستشرقين أن كلمة (حيرة) من « حرتا **Harta** » السريانية الأصل ومعناها : المخيم أو المعسكر[1] .

وكما اختلف المؤرخون في أصل تسميتها اختلفوا أيضاً في تأسيسها ، وفيمن قاد موجة الهجرة الأولى اليها ، وما تبعها بعد ذلك من هجرات . وطال في ذلك كلامهم ، وتشعبت أقوالهم .

وليس من غرضنا في شيء أن نرتاد معهم العصور السحيقة

---

(١) انظر جواد علي ٤/٥ .

التي ارتادوها ، فهذا يخرج بنا عما نحن فيه ، وانما نكتفي بعرض خلاصة لما وقفوا عنده من آراء .

فمنهم من ذهب إلى أنّ مؤسسها هو « بختنصر » ، ومنهم من قال : انه « الأردوان » ملك النبط ، ومنهم من رأى أنه « تبّع »[1] .

على أن الشيء الذي لا خلاف فيه بينهم ، أن موجات من العرب اندفعت من الجزيرة الى العراق ، فنزلت الخيام في أول الأمر ، ثم تحولت الى قرية في الجنوب الشرقي من مدينة النجف الحالية[2] ، وما لبثت هذه القرية أن أصبحت حاضرة العرب الوافدين الى العراق ، ثم تمر الأعوام فاذا هي عاصمة مملكة عربية ، تألق نجمها على شاطىء الفرات الأيمن الخصيب .

ويقسم المؤرخون سكان الحيرة ثلاث فئات : التنوخيون ، والعباد ، والأحلاف . أما التنوخيون ، فهم قبائل متفرقة من العرب ، وفدوا اليها من اليمن ، وانتشروا غربي الفرات ، بين الحيرة والأنبار ، يعملون في زراعة الأرض ، ويسكنون بيوت

(١) المصدر نفسه ١٠/٤ ومعجم البكري ٤٧٩/٢ .
(٢) شوقي ضيف العصر الجاهلي : ٤٤ .

الشعر والمظال والوبر . وقد أطلق عليهم اسم « تنوخ » من تنخ بالمكان تنوخا إذا أقام فيه . وقد جمعتهم هذه النسبة المكانية ، وان كانوا من قبائل متفرقة [١] .

وأما العباد ، فهم أيضاً بطون من قبائل متفرقة كالتنوخيين، قدموا الحيرة ، وسكنوا رقعتها ، وابتنوا فيها [٢] ، فهم حضر مستقرون . وقد اجتمعوا في الحيرة على النصرانية ، ولعلهم لذلك سموا العباد ، أي عباد الله ، فكانوا لا يشكلون قبيلة ، بل يشكلون مجموعة متجانسة ، تدين بدين واحد ، لها معابدها وطقوسها وأساقفتها .

ويبدو أن هذه المعابد كانت تشهد نوعا من الدراسات ، تتناول أخبار العرب وأنسابهم وعلاقاتهم مع آل كسرى . فابن الكلبي يقول [٣] : « اني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى ، وتأريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها » .

وأما الأحلاف ، فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ، ونزلوا فيها ، ولم يكونوا في الأصل من تنوخ ولا من العباد ، ولكنهم

---

(١) حمزة الأصفهاني : ٢٢

(٢) المصدر نفسه : ٢٢

(٣) الطبري ٢/٣٧ .

أخلاط من المهاجرين الذين جاءوا يطلبون الرزق ، ومن النبط ، وهم من بقايا قدماء العراقيين ، وكانوا يحترفون الزراعة . والى جانبهم جماعات من الفرس يمتهنون بعض الصناعات والحرف . وهناك أيضاً بعض اليهود .

وقد توالى على عرش الحيرة ملوك المناذرة الذين دان لهم كثير من أقطار العرب وقبائلهم بالطاعة ، كاليمامة والبحرين وعمان ، وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب ، وكثير من قبائل نجد [1] ، وان كانوا هم واقعين تحت النفوذ الفارسي ، فعرفت الحيرة بهم تقاليد الملك ، وأبهة السلطان ، وأُنشئت فيها القصور الفخمة والمنازل الجميلة والمباني العامة ، كالأديرة والبيع والمدارس وحوانيت التجارة ودور الصناعة وحانات الخمور . وقد حفلت بذكرها أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم ، فكم تغنى الشعراء بعظمة قصريها الخورنق والسدير ، ووصفوا جمال بنيانها ، وأشادوا بطيب سكناها وصحة هوائها ونعيم الحياة فيها . وقد حباها موقعها الجغرافي الجميل شهرة أطارت ذكرها في أصقاع العرب ، حتى قالوا فيها : « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء

---

(١) شوقي ضيف العصر الجاهلي : ٤٧ .

سنة [١] » . ومما وصفت به : « منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام [٢] » .

ويستفاد من وصف الهمداني لها [٣] ، أنها كانت تتمتع بنسيم ندي ناعم ، وجو صاف منعش ، وماء عذب خفيف ، وتربة خصبة معطاء ، فيها الجنان المعروشات والمزارع الممتدة ، والمتاجر العظام ، وهي فوق ذلك كله تقع « من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الصين والهند وغيرهما ، ونهر الحيرة مدفوق من الفرات إلى النجف [٤] » .

وتهيأ للحيرة ، إلى جانب ازدهارها السياسي ، أن تزدهر زراعتها ، فتجبى اليها ثمرات ما يحيط بها من الأراضي الخصبة ، والجنان الفيح والقرى الفسيحة الغنية ، كما تهيأ لها أن تكون سوقا تجارياً كبيراً ، تتداول فيه البضائع المستوردة اليها والمصنوعة فيها .

ومن المؤكد أنها كانت تتنفس في جو الحضارة الفارسية

(١) الاصطخري : ٨٢ .
(٢) الطبري : ١/٨٥٠ .
(٣) معجم البكري ٢/٤٧٩
(٤) المصدر نفسه ٢/٤٧٩

التي كانت تبسط ظلها على المنطقة ، وربما سقطت اليها بعض تأثيرات من الحضارة البيزنطية بحكم الحروب التي كانت تدور رحاها بين المناذرة وغساسنة الشام والبيزنطيين [١] .

كل ذلك أعد الحيرة لأن تكون قاعدة خصبة لحضارة غنية مترفة . وطبيعي أن تتأثر العربية في الحيرة بهذه الحضارة ، فتلين ألفاظها وترق تعابيرها ، ويدخلها غير قليل من ألفاظ الفرس والروم والكلدان وغيرهم ، وأن يتأثر فيها الأديب العربي الذي اطلع على آداب الأعاجم المواطنين والمجاورين ولغاتهم وعلومهم ، تأثراً تلوح ومضاته في تفكيره ووجدانه .

* * *

(١) انظر بيئة العراق في التطور والتجديد في الشعر الأموي لشوقي ضيف ص ٣٩ .

٢

آل عدي في الحيرة :

كان أيوب ، جد عدي الثالث ، الوافد الأول من آل عدي إلى الحيرة . يروي أبو الفرج [1] عن هشام بن الكلبي عن أبيه سبب نزول آل عدي بن زيد الحيرة ، أن أيوب كان منزله اليمامة في بني امرىء القيس بن زيد مناة ، فأصاب دما في قومه ، فهرب ، فلحق بأوس بن قلاّم ، أحد بني الحارث بن كعب بالحيرة ، وكان بين أيوب وأوس هذا نسب وصهر ، فلما قدم عليه أيوب أنزله في داره وأكرم مثواه ، فمكث معه غير قليل . وأدركت أوسا الشيخوخة ، فخشي إن هو مات ألا يعرف أولاده من بعده من الحق لأيوب والبرّ به ما عرفه هو وأخذ به نفسه ، فكاشف أيوب بما دار في خلده ، وأبدى له تخوفه من أن يقصّر أبناؤه في اكرامه بعد وفاته ، وقال له : انظر أحب مكان في الحيرة اليك لأُقْطِعَكَهُ أو أبتاعه لك، فوقع اختيار أيوب على موضع بجوار صديق حميم له اسمه عصام بن عبدة، أحد بني الحارث بن كعب ، وكان يقطن في الجانب الشرقي

---

(١) الأغاني ٢ / ٩٧ .

من الحيرة ، فابتاع له أوس موضع داره التي اختار ، وأنفق عليها بسخاء حتى أضحت داراً لأنقة ، وأعطاه مئتين من الإبل برعائها وفرساً وقينة .

ولبث أيوب في منزل أوس يساكنه حتى هلَك . وبعد مهلك أوس تحول أيوب إلى داره التي أعدت له في شرقي الحيرة ، وأقام فيها بقية حياته .

لم يقض أيوب حياته في الحيرة خائفاً يترقب ، وهو القاتل الفار اللاجيء ، وانما دفعته شخصيته الطموح إلى الاتصال بملوك الحيرة ، فحظي منهم بالتقدير والاكرام ، وكان لديهم من المقربين الذين تغدق عليهم الأموال ، وتوزع الجوائز بغير حساب . وورث هذه الحظوة أولاده من بعده . يقول أبو الفرج [1] : « فلم يكن منهم ملك يملك إلا ولولد أيوب منه جوائز وحملان » .

ولما وافى أيوب الأجل ، قام ابنه زيد مقامه في الاتصال بملوك الحيرة ، فدرّت عليه أخلاف الرزق ، وأقبلت عليه الدنيا ، ونعم بخفض العيش ، وأعرس بامرأة من آل قلاّم ، فولدت له حمّاداً .

---

(١) المصدر السابق ٢/٩٩ .

وخرج يوماً يريد الصيد في ناس من أهل الحيرة ، وهم متندون بخفير ، وهو مكان يذكره عدي في شعره ، فانفرد زيد في الصيد ، وتباعد عن أصحابه ، فلقيه رجل من القوم الموتورين ، الذين لم ينسوا دمهم المطلول الذي أراقه أيوب وولى هارباً من اليمامة ، بل راحوا يضربون أكباد الإبل سعياً وراء واترهم ، ليشفوا بقتله غل القلوب ، ويرضوا النفوس التي لا تسكت على ضيم ، ولا تقعد عن طلب ثأر .

وأقبل الاعرابي على زيد يستنطقه ، فعلم أنه من بني أيوب، وأنه يقطن الحيرة فأضمر في نفسه أمراً ، وراح يتحين من زيد أول غرة ، فرماه بسهم وضعه بين كتفيه ، فلم يرم حافر دابته حتى مات [1] ، وترك ابنه حماداً صغيراً .

فتح حماد جد عدي عينيه ، فوجد نفسه في أحضان أخواله الذين تعهدوه صبياً صغيراً ، حتى إذا أيفع علمته أمه الكتابة ، فكان حماد أول من كتب من بني أيوب ، وخرج من أكتب الناس في زمنه ، وذاع صيته ، وعلا شأنه في الكتابة

---

(١) الأغاني ٢ / ٩٩ .

حتى صار كاتب النعمان الثاني [١] ملك الحيرة ، ثم رزق غلاماً سماه زيداً باسم أبيه ، فعني بتربيته وتعليمه ، وكان له صديق أثير محب من الدهاقين [٢] العظماء من المرازبة [٣] يقال له فروخ ماهان ، فلما حضرت حماداً الوفاة أوصى بابنه زيد اليه ، فأخذه الدهقان ، وضمه إلى ولده ، وكان زيد قد حذق العربية وكتابتها قبل أن يصير في كنف الدهقان ، فلما صار اليه علمه الفارسية فلقنها [٤] . وكان فطناً لبيباً ، فأعجب الدهقان ، وأشار على كسرى أن يجعله على البريد في حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زماناً .

ثم إن النعمان الثاني هلك ، فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار عليهم المرزبان بزيد بن حماد ، والد عدي ، فكان على الحيرة إلى أن ملّك

---

(١) في الأغاني ٢/١٠٠ : النعمان الأكبر ، وبعد قليل يسميه ابو الفرج : النعمان النصري اللخمي ، وقد ظنه بعض الباحثين النعمان الأول ابن امرىء القيس ، وليس كذلك .

(٢) الدهاقين : جمع دهقان ، وهو رئيس المنطقة الزراعية، فارسي معرب .

(٣) المرزبان بضم الزاي : أحد مرازبة الفرس ، وهو الفارس الشجاع المقدّم على القوم دون الملك ، فارسي معرب .

(٤) لقنها : فهمها .

كسرى المنذر الرابع [١] ، فكان لا يعصي لزيد أمراً ، ونكح زيد بن حماد نعمة بنت ثعلبة العدوية فولدت له عدياً .

★ ★ ★

(١) في الأغاني ٢/١٠٠ المنذر بن ماء السماء ، والذي اشتهر بهذه التسمية هو المنذر الثالث بن امرىء القيس بن النعمان بن الأسود اللخمي ، وماء السماء : أمه . أما الذي قصده ابو الفرج هنا ، فهو المنذر الرابع ابن المنذر الثالث ، والد النعمان بن المنذر أبو قابوس . وانظر جواد علي ٤/١١٤ والطبري ٢/١٥٦ وما بعدها ، وحمزة : ٦٥ - ٧٦ ، وفيليب حتي : ١/١١٠ .

الفصل الثاني

حياته

١

اسمه ونسبه :

هو عدي بن زيد بن حمّاد بن زيد بن أيوب بن مجروف ابن عامر بن عُصَيَّة بن امرىء القيس بن زيد مَناة بن تميم بن مُرّ ابن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار .

وقد وقفت معظم المصادر التي ترجمت لعدي عند تميم . بيد أن أبا الفرج (١) استأنف سياقة نسبه حتى وصل بها إلى نزار . ونقل عنه هذا فيما بعد ابن عساكر (٢) من القدماء ولويس شيخو (٣) من المعاصرين . ويكتفي العباسي (٤) بعد أن يصل إلى جده الثاني أيوب بقوله : « وينتهي نسبه لنزار » .

يظهر لنا ، مما تقدم ، أن الذين ترجموا لعدي لم يختلفوا

---

(١) الأغاني ٢/٩٧ .

(٢) مخطوطة ابن عساكر ورقة ٢٤٥ .

(٣) شعراء النصرانية : ٤٣٩ .

(٤) معاهد التنصيص ١/٣٠٥ .

في اسمه ولا نسبه ، بل أجمعوا على أنه تميمي ، منهم من وقف عند جده تميم ، ومنهم من ارتفع بنسبه حتى أوصله إلى نزار .

غير أننا ما نكاد نتأمل نسبه في المصادر التي ترجمت له ، حتى نراها قد اضطربت في ضبط اسم كل من جده الأول حمّاد (١) ، وجده الرابع مجروف (٢) وجده السادس عُصيّة (٣) .

---

(١) جاء هذا الاسم في الشعر والشعراء : ١٧٦ « حمّاد » ، وفي ص١٧٩ « حمّاز » ، وجاء أيضاً « حمّاد » في كل من تاريخ اليعقوبي : ٢٦٤ (صادر) و ٣٠٧ (ليدن) والأغاني ٩٧/٢ ، والروض الأنف ٥٨/١ ، وتاريخ ابن عساكر : ٢٤٥ ، والمعاهد ٣١٥/١ . وذهب كل من المصادر : جمهرة النسب لابن الكلبي : ١٨٢ وكتاب أسماء المغتالين في الجاهلية والاسلام ص ١٤٠ ، ومعجم الشعراء : ٨٠ ، وسمط اللآلي : ٢٢١ ، وتاريخ الاسلام ١٥١/٤ ، وشرح شواهد المغني : ١٦١ إلى أن اسمه « حمّار » ، وضبطه لويس شيخو في شعراء النصرانية : ٤٣٩ : « حمّار » وكتب في التعليق عليه : ويروى خمّار وحمّاد وحمّاز .

(٢) جاء هذا الأسم في كل من الشعر والشعراء : ١٧٩ ، وتاريخ اليعقوبي : ٢٦٤ ، والأغاني ٩٧/٢ والروض الأنف ٥٨/١ :«محروف» بالحاء المهملة . وفي معجم الشعراء : ٨٠ ، وجمهرة أنساب العرب : ٢٠٣ ، وشرح شواهد المغني : ١٦١ ، وشعراء النصرانية : ٤٣٩ : « مجروف » بالجيم . وانفرد ابن عساكر برواية : « محروق » .

(٣) أجمع المترجمون لعدي على ضبط هذا الاسم « عصيّة » ، كما أثبتُّه ، لم يخالف عن ذلك إلا صاحب الروض الأنف ٥٨/١ وصاحب معجم الشعراء : ٨٠ ، فقد انفرد بتسميته « عَصَبَة » ولعله تصحيف .

إلا أنه اضطراب يسير ، إذ لا يعدو أن يكون خلافا في ضبط الأسماء الثلاثة وتحقيق إعجامها .

وذكر ابن حبيب [١] والمرزباني [٢] وأبو عبيد البكري [٣] أنه يكنى أبا عمير ، لم يخالفهم في ذلك ، فيما علمت ، إلا السيوطي وأبو العلاء ، فقد ذكر السيوطي [٤] أنه يكنى أبا عمر ، أما أبو العلاء [٥] فقد ذكر أنه يكنى أبا سوادة . ولم يصل إلى علمي أن أحداً قد نص على كنيته سوى هؤلاء الخمسة .

ونسبة عدي الشائعة العباديّ ، نسبة إلى العباد . يقول ابن دريد [٦] : « وهم قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا بالحيرة على النصرانية » ثم يذكر سبب تسميتهم بالعباد فيقول : « فأنفوا أن يقال لهم عبيد ، فينسب الرجل عبادي » .

وفي سبب تسميتهم بالعباد أقوال ، منها ما ساقه البكري في سمط اللآلي [٧] وفي معجمه [٨] ، فقد روى عن ابن دريد

---

(١) كنى الشعراء : ٢٨٨
(٢) معجم الشعراء : ٨٠ .
(٣) السمط : ٢٢١ .
(٤) المزهر : ٢/٤٢٥ .
(٥) رسالة الغفران : ١٧٨ د الطبعة الثانية .
(٦) الاشتقاق : ١١ .
(٧) السمط : ٢٢١ .
(٨) معجم البكري ١/٢٣ - ٢٥ .

قوله الآنف الذكر ، ثم أتبعه برواية ثانية له يقول فيها : « إنما سُمّوا عباداً لأنهم كانوا طاعة لملوك العجم » ثم روى قول أحمد بن أبي يعقوب : « إنما سُمي نصارى الحيرة العباد لأنه وفد على كسرى خمسة منهم ، فقال لأحدهم : ما اسمك ؟ قال : عبدالمسيح، وقال للثاني : ما اسمك ؟ قال : عبد ياليل ، وقال للثالث ما اسمك؟ قال : عبد ياسوع ، وقال للخامس : ما اسمك ؟ قال : عبدعمرو، فقال كسرى أنتم عباد كلكم ، فسموا العباد » .

ومنها : أنهم سموا العباد ، لأنهم كانوا يعبدون الله [1] .

ويروي أبو الفرج [2] : أنهم سموا بذلك ، لأنهم لما أغار عليهم سابور ذو الأكتاف اتخذوا شعاراً لهم : « يالعباد الله » ، فسموا العباد ، إلى غير ذلك من أمثال هذه التعليلات .

ويرى بعض الباحثين المعاصرين أن « العباد »و« العباديين » من كلمة : « عبد » في الأصل أطلقها متنصرة الحيرة الأولى على أنفسهم ، لأنهم كانوا يعبدون إلهاً ، ليميزوا أنفسهم من الوثنيين، فهم عباد الله . أو أن الوثنيين أنفسهم أطلقوها على أولئك المتنصرة تمييزاً لهم من سائر الوثنيين . ثم غبر زمن طويل . ولما جاء

---

(١) التاج « عبد » .

(٢) الأغاني : ١١/١٥٦ .

المتأخرون ظنوا أنه علَم ، فذهبوا في تعليله مذاهب شتى [١] . وهذا ما أرجحه واطمئن اليه .

هذه نسبة عدي الشائعة وبها يعرف . ولكن أبا العلاء يذكر نسبة أخرى لعدي لم يذكرها غيره ، فيما علمت ، وهي « السرويّ [٢] » . فلقد أورد في رسالة الغفران [٣] بيتين لعدي عزاهما للسرويّ .

وإني لأميل إلى ما ذكرته المحققة حول هذه النسبة ، قالت [٤] : « البيتان منسوبان في كتب اللغة لعدي بن زيد ، ولم نعثر في تراجم الشعراء على من يلقب بالسروي وليس في ترجمة عدي التي قرأناها ما يشير إلى هذه النسبة فلعل عدياً كان ينسب إلى السراة ، وهي في أرض تميم وعدي من تميم . وقد جاء في التاج : السراة ينسب اليها فيقال : سروي بالتحريك،والسروي من أهل السراة » .

كان عدي إذاً عبادياً نصرانياً . يقول الجاحظ [٥] : «وكان

(١) انظر العصر الجاهلي لشوقي ضيف : ١٠٠ وجواد علي : ١٦/٤ .
(٢) انظر رسالة الغفران : ١٧٨ الطبعة الثانية .
(٣) المصدر السابق : ١٧٧ . (٤) رسالة الغفران : ١٧٧ .
(٥) الحيوان ١٩٧/٤ .

عدي نصرانياً ديّاناً ومترجماً وصاحب كتب ... » إلا أن نصرانيته ما كانت تمنعه من مشاركة جمهور العرب آنذاك في تعظيم مكة وتقديس الكعبة ، ونلمح هذا التعظيم والاجلال في قوله :

سعى الأعداءُ لا يألونَ شرّاً إليكَ وربِّ مكّةَ والصّليبِ

فهو يقرن مكة بالصليب في قسمه . وشأنه في مزج مقدسات الوثنية بالمسيحية شأن أكثر النصارى العرب قبل الاسلام ، فهم نصارى وثنيون في الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة في النصرانية [1] .

على أن للنصرانية أثرها الواضح في شعره ، بل وفي شعر غيره حتى من الشعراء العرب الوثنيين في الجاهلية ، كامرىء القيس والأعشى والمرقش والنابغة ، فمن المعروف أنهم ذكروا في شعرهم الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وغيرها . ولكن أثرها في عدي يتعدى هذا الأثر الشكلي إلى المضمون كما سنرى .

★ ★ ★

(١) انظر شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي : ١٠١ . وجواد علي ٦/٢٢٤ .

٢

مولده نشأته ثقافته

لم تذكر المصادر القديمة ، فيما علمت ، سنة ميلاد عدي أو وفاته ، ولم تصرح بأكثر من أنه شاعر جاهلي ، نشأ في الحيرة ، والتحق بديوان كسرى ، وعاصر المنذر وابنه النعمان من بعده .

غير أن بعض المصادر الحديثة حاولت تحديد الفترة التي عاش فيها عدي ، فدائرة المعارف الاسلامية [1] تذكر أنه عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، وحاول غوستاف فون غرنباوم [2] أن يحدد ميلاد عدي ووفاته فلم يزد على قوله : « والشاعر النصراني عدي بن زيد ، حوالي ٥٤٥ ـ ٥٨٥ م » . وذهب لويس شيخو [3] إلى أنه ولد نحو سنة ٤٨٠ م .

على أننا ما نكاد ننظر في الفترة التي عاش فيها عدي ، وما جرى فيها من حوادث ، حتى يتبين لنا أن الذين حددوا

---

(١) المجلد الأول ١٩٦

(٢) دراسات في الأدب العربي ترجمة احسان عباس وفريحة ونجم ويازجي: ١٤٠.

(٣) شعراء النصرانية : ٤٤١ .

ولادته أو وفاته بالأرقام قد أخطأتهم الدقة في هذا التحديدوجانبهم الصواب .

فنحن إذا علمنا أن النعمان بن المنذر قد تولى أمر الحيرة نحو سنة ٥٨٥ م [١] ، وأن عدياً كانت له اليد الطولى في توليته، بدا لنا بطلان ما ذهب اليه كل من غرنباوم ولويس شيخو، ذلك أن غرنباوم جعل وفاته عام ٥٨٥ م ، أي في السنة التي قام فيها بمسعاه المشهور في تولية النعمان بن المنذر عرش الحيرة دون اخوته ، وليس كذلك ، لأنه عاش في دولة النعمان بن المنذر سنين قبل أن يقتل . أما لويس شيخو فقد جعل ولادته سنة ٤٨٠ ووفاته سنة ٥٨٧ ، ولو صحّ ذلك لكان عدي من المعمَّرين الذين جاوزوا المئة ، وعدي لم يلبث هذا العمر الطويل ، لأن الأخبار تواترت باغتيال النعمان له في سجنه ، ولما تطعن به السنّ بعد .

على أن الذي ترتاح اليه النفس ، وتشهد له الروايات والأخبار المستفيضة أن عدياً عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، وربما شهد آخره ، وهو لا يزال يجترّ مرارة السجن الذي لم يفلت منه .

نشأ عدي في أسرة تشغف بالمعرفة ، اتخذت من الكتابة

---

(١) انظر A literary History of the Arabs, P. 37 - 49

وسيلة لارتقاء سُلّم المجد ، ودخول قصور الأكاسرة والمناذرة من أوسع الأبواب .

ولقد مهد زيد لولده عدي الطريق يوم أُسند اليه كسرى أُمور البريد ، عملاً بمشورة صديقه وكافله الدهقان فروخ ماهان ، ومكث يتولى ذلك لكسرى زماناً ، ثم استطاع أن يحوز المزيد من ثقة كسرى به ، الذي لم يتردد في أن يعقد له أمر الحيرة ، إلى أن توّج عليها المنذر (الرابع) .

في كنف هذا الأب ، وفي جو تلك الأسرة ، درج عدي . ولما أيفع طرحه أبوه في الكتّاب ، فحذق العربية ، وكان لصديق الأسرة الدهقان فروخ ماهان ابن في سن عدي اسمه (شاهان مرد) فلما أتقن عدي العربية أرسله الدهقان مع ابنه إلى كتّاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ، ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى حذقها أيضاً ، وخرج من أفهم الناس بها ، وأفصحهم بالعربية ، وقال الشعر ، وتعلم الرمي بالنشاب ، فخرج من الأساورة الرماة [١] ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها [٢]

(١) الأساورة : جمع اسوار بالضم وبالكسر ، وهو الفارس البطل الجيد الرمي .

(٢) الأغاني ٢/١٠١ .

من عاداتهم وأساليب حياتهم .

لقد قيض لعدي أن ينشأ في أسرة كبيرة مثقفة ، أتاحت له أن يتعلم اللغتين العربية والفارسية ، كتابة وقراءة ، فمكنه ذلك من الاطلاع على بعض الكتب الفارسية في عصره . وقد أكسبه هذا الاطلاع ثروة من المعارف العامة ، وأطلعه على كثير من التجارب الانسانية ، مما يندر توفره في أكثر رجال عصره الذين لم تتح لهم ثقافة كثقافته . يقول الجاحظ [١] : « وكان عدي نصرانياً ديّاناً وترجماناً وصاحب كتب ، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر » . ويقول المقدسي [٢] : « وكان عدي أحد الحكماء من قراء الكتب » .

هذا ، إلى جانب ما كانت تتمتع به أسرته من نفوذ كبير في بلاط الأكاسرة ، ومن حب وتقدير رجالهم الرسميين من الدهاقين ، ومن ثقة جماهير الحيرة بها ، إلى غير ذلك من المزايا التي جعلت المناذرة ينظرون إلى هذه الأسرة بعين الاحترام والثقة والاجلال ، فينوطون بها جليل المهمات ويركنون اليها في عظائم الأمور .

وقد ورث عدي هذه المكانة عن أبيه وجده ، وكان لهذا كله أثره العميق في تكوين شخصيته ، وتوجيه تفكيره وشعوره .

(١) الحيوان ٤/١٩٧ .

(٢) البدء والتاريخ : ٢٠٤

٣

صلاته برجال عصره :

لقد مهدت لعدي نشأته الحضارية في مدينة الحيرة،وأسرته العريقة التي توارثت العمل السياسي فيها ، الاتصال بقصرين كبيرين من القصور الحاكمة في عصره ، هما : قصر المناذرة في الحيرة ، وقصر الأكاسرة في المدائن .

ولم تكن صلة عدي بملوك هذين القصرين ورجالهماالرسميين صلة عابرة ، تمت برحلة قام بها شاعر ضرب اليها أكباد الابل ، وطوى المفاوز الواسعة ، ليحظى بجائزة مالية ، أو غنم سياسي ، كما هو شأن أكثر شعرائنا العرب ، وإنما هي صلة وثيقة أصّلت لها أواصر قديمة بين أسرة عدي بن زيد وهذين القصرين ، ومهدت لعدي أن يدخل قصر المنذر بن المنذر ملك الحيرة ، ثم قصر ابنه النعمان بن المنذر ، وقصر كسرى أنوشروان ملك الفرس ، ثم قصر ابنه هرمز ، لا دخول المادح المستعطي ، بل دخول رجل الدولة العامل في هذين البلاطين ، والمصرّف لأعلى الشؤون فيهما .

فمنذ أن استقر المقام بأسرة عدي في الحيرة ، راحت تخطط

لحياة جديدة ، قوامها المدنية ، والاتصال بالملوك ورجال القصور الرسميين ، والبعد عن كل ما يتصل بالحياة القبلية البدوية بسبب .

ولقد رأينا أيوب ، جد عدي الثالث ، وهو أول من نزل الحيرة من آل عدي ، يضع الخط الأول في سياسة هذه الأسرة ، فيتصل بملوك الحيرة . ثم خلفه أولاده من بعده ، فلم يعتل عرش الحيرة ملك ، إلا ولولد أيوب منه جوائز وحملان (١) وقد لاقت هذه الأسرة في الحيرة بيئة خصبة لامتداد نفوذها ، وتغلغلها في بلاطي الفرس والمناذرة ، حتى إن زيداً أبا عدي تولى ملك الحيرة زمناً .

وكانت الحيرة آنذاك حاضرة المناذرة الذين يقفون في خط الدفاع الأول ، يذودون عن الأكاسرة غارات الروم ، ويردون هجمات القبائل العربية ، كما اتخذ الروم لهم رداءاً من الغساسنة للغرض نفسه ، وقد بقي الأمر على هذه الحال ، حتى انبلج فجر الاسلام ، فجمع شتات القبائل العربية في أمة واحدة ، ثم أطاح بالامبراطوريتين الكبيرتين .

وكان طبيعياً أن يعمد الأكاسرة إلى الحيرة ، فيفتشوا عن وجوه القوم فيها ، ليستعينوا بهم في ادارة الشؤون العربية ،

---

(١) الأغاني ٢/٩٨ .

وليعملوا في دواوين الدولة الفارسية مترجمين . ويبدو أن أسرة عدي قد احتكرت العمل في هذه الميادين ، لمالها من سابقة قرب من الأكاسرة ، ولما تمتعت به من إخلاص لبلاطي المناذرة والأكاسرة، ولمالها من مكانة عالية في نفوس الحكام الرسميين وجماهير الشعب الحيري على السواء . ولم يكن يشاركها في شيء من هذا إلا أسرة واحدة، هي أسرة بني مرينا ، وعلى رأسها عدي بن مرينا ، الخصم اللدود لعدي بن زيد . ولكن أسرة بني مرينا لم تستطع أن تصل إلى ما وصلت اليه أسرة عدي من شرف وشهرة ونفوذ .

ما كاد عدي بن زيد يتم دراسته للعربية والفارسية ، حتى انفتحت أمامه أبواب كسرى أنوشروان ، ليكون لديه كاتباً ومترجماً ، ثم سفيراً مقرباً . يروي اليعقوبي [1] : « أن كسرى كتب إلى المنذر أن يبعث له بقوم من العرب يترجمون له الكتب ، فبعث بعدي بن زيد وأخوين له » . ويروي ابن مسكويه [2] مثل هذا الخبر ، فيقول : « ان عدياً وأخويه عماراً وعمراً ، ويعرف عمار بأُبَيّ ، وعمرو بسُمَيّ ، كانوا في خدمة الأكاسرة ، ولهم من جهتهم قطائع ، وكان قابوس الأكبر عم النعمان واخوته بعث إلى كسرى بعدي بن زيد واخوته ليكونوا في كتابه يترجمون».

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢٤١

(٢) تجارب الأمم : ٢٣٧

وفي الأغاني [١] أن المرزبان وفد على كسرى ، فكلمه في عدي قائلاً : « إن عندي غلاماً من العرب ، من أفصح الناس ، وأكتبهم بالعربية والفارسية ، والملك محتاج إلى مثله ، فقال كسرى : ادعه ، فأرسل إلى عدي ، وكان جميل الوجه ، فائق الحسن ، وكانت الفرس تتبرك بالجميل الوجه ، فلما كلمه وجده أظرف الناس وأحضرهم جواباً ، فرغب فيه ، وأثبته مع ولد المرزبان فكان عدي أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى ».

ومهما يكن الطريق الذي وصل منه عدي إلى هذا المنصب ، فان من الثابت أنه قضى جزءاً من حياته في المدائن يعمل في ادارة الشؤون العربية [٢] والترجمة ، فأعجب به كسرى ، وقربه ووثق به ، وأذن له عليه في الخاصة .

وفي هذه الفترة ارتفع ذكر عدي حتى أخمل ذكر أبيه ، ورغب أهل الحيرة اليه ورهبوه ، وكان إذا أراد المقام بالحيرة بين أهله استأذن كسرى ، فأقام فيهم الشهر والشهرين ، وإذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتي يقعد عدي ، فعلا له بذاك صيت عظيم [٣] .

---

(١) الأغاني ٢/١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) دائرة المعارف ١/١٩٦ .

(٣) الأغاني ٢/١٠٢ .

ثم مات كسرى أنوشروان ، وملك بعده ابنه هرمز ، فحفظ لعدي مقامه ، وأبقى على ما كان يتمتع به من نفوذ في عهد أبيه ، بل زاد من تقريبه وتكريمه ، فعهد اليه بمهمة السفارة بينه وبين قيصر الروم ، ولعلها المرة الأولى التي تعقد فيها السفارة لعربي بين عاهلين أعجميين .

وقد حمل عدي إلى ملك الروم هدية كسرى ، فلما أتاه بها أكرمه ، وطاف به في أطراف بلاده ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه . ويبدو أنه مكث في دمشق زماناً ، وقال فيها شعراً يتشوّق فيه إلى الحيرة ، ويذكر أيامه فيها ، ويراها أشهى إلى نفسه من دمشق :

رُبَّ دارٍ بأسفلِ الجِزْعِ من دُو
مةَ أَشهى إليَّ من جَيْرُونِ
ونَدامَى لا يفرحونَ بما نا
لوا ولا يرهبونَ صَرْفَ المَنونِ
قد سُقيتُ الشَّمولَ في دارِ بِشْرٍ
قهوةً مُرَّةً بِماءٍ سَخينِ

وفسد أمر الحيرة ، وعدي بدمشق ، بسبب جور المنذر ، وأجمع القوم على قتله ، فلما أحس بالخطر بعث إلى زيد والدعدي،

وكان قبله على الحيرة كما رأينا ، فأنهى اليه ما بلغه من ائتمار القوم به ايقتلوه ، وأعلن رغبته في تنازله عن الملك له ، فقال زيد : « إن الأمر ليس إليّ ، ولكنني أسبر لك هذا الأمر ، ولا آلوك نصحاً »[١] .

وفي الصباح ، غدا الناس إلى زيد فحيوه تحية الملك ، وطلبوا منه أن يريحهم من المنذر ، فلم يهتبلها زيد فرصة لتتويجه ملكاً ، بل هدّأ من ثائرتهم ، وأشار عليهم برأي ، فيه الدهاء السياسي والاخلاص للبيت المالك ، وهو : أن يملك المنذر ولا يحكم ، قال لهم : « تدعونه على حاله ، فانه من أهل بيت ملك ، وأنا آتيه فأخبره أن أهل الحيرة قد اختاروا رجلاً ، يكون أمر الحيرة اليه ، الا أن يكون غزو أو قتال ، فلك اسم الملك ، وليس اليك سوى ذلك من الأمور[٢] » . يقول أبو الفرج[٣] : « فولّى أهل الحيرة زيداً على كل شيء ، سوى اسم الملك ، فانهم أقروه للمنذر » . وفي ذلك يقول عدي للنعمان :

نحنُ كُنّا قد علِمتُمْ قبلَكُمْ عَمَدَ البيتِ وأوتادَ الإصارِ

(١) الأغاني ٢/١٠٠ (٢) المصدر السابق ٢/١٠٣

(٣) المصدر السابق ٢/١٠٤

وقد أرضى هذا الرأي الناس ، لأنه أنقذهم من جور المنذر وأخذه أموال الناس بالباطل ، وأرضى المنذر أيضاً ، إذ حفظ عليه كرامة الملك وعز السلطان ، ففرح بذلك كثيراً ، ولهج لسانه بشكر زيد قائلاً : « إن لك يا زيد عليَّ نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سبد[1] » .

وحفظ المنذر هذه النعمة حقاً لزيد لما توفي ، وابنه عدي يومئذ بالشام ، فقد كانت لزيد ألف ناقة ، كان أهل الحيرة أعطوه إياها حين ولَّوْه ما ولَّوْه ، فلما هلك أرادوا أخذها ، فبلغ ذلك المنذر ، فقال : « لا ، واللات والعزى لا يؤخذ مما كان في يد زيد ثُفْرُوقٌ[2] وأنا أسمع الصوت » .

وفي ذلك يقول عدي بن زيد لابنه النعمان بن المنذر[3] :

وأبوكَ المرءُ لمْ يُشْنَأْ بهِ
يومَ سِيمَ الخَسْفَ مِنَّا ذو الخسارِ

وامتد عرفان المنذر لهذه النعمة إلى عدي بعد أبيه ، ذلك أن عدياً قدم المدائن عائداً من سفارته إلى ملك الروم ، يحمل

---

(١) الأغاني ٢/١٠٤ . وسبد صنم كان لأهل الحيرة .

(٢) الأغاني ٢/١٠٤ ، والثفروق : علاقة ما بين النواة والقمع من التمر ، ويكنى به عن القلة .

(٣) المصدر السابق ٢/١٠٤ .

إلى كسرى هدية قيصر ، ولما بلغها علم أن أباه والمرزبان فروخ ماهان الذي رباه قد هلكا جميعاً ، فاستأذن كسرى في الالمام بالحيرة ، فأذن له ، فتوجه اليها ، وبلغ المنذر خبر قدومه ، فخرج وتلقاه في الناس ورجع معه [١] .

هنالك ، بلغ عدي ذروة المجد ، فهو كاتب كسرى ، وهو سفيره إلى قيصر ، وهو ابن زيد ملك الحيرة السابق ، وهو المكرم لدى المنذر ، ثم هو الرجل العارف بلسان العرب ولسان الفرس ، والطائف ببلاد الروم . وقد أهّل هذا كله عدياً لأن يكون أنبل أهل الحيرة في أنفسهم .

يقول أبو الفرج [٢] : « وعدي أنبل أهل الحيرة في أنفسهم ، ولو أراد أن يملِّكوه لملَّكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعب على الملك » .

ويقول المرزباني [٣] في عدي : « وكان كسرى مكرما له محباً ، وكان عدي من أنبل أهل الحيرة وأجودهم منزلة ، ولو أراد أن يملِّكه كسرى على الحيرة لملَّكه ، ولكن كان يحب الصيد واللهو ، ولم يكن راغباً في ملك العرب » .

---

(١) الأغاني ٢/١٠٤ . (٢) المصدر السابق ٢/١٠٤ .

(٣) معجم الشعراء : ٨٠

ومكث عدي على ذلك سنين ، يبدو في فصلي السنة ، فيقيم في جَفِير [1] ، ويشتو بالحيرة ، ويأتي المدائن في خلال ذلك فيخدم كسرى ، وكان لا يؤثر على بلاد بني يَرْبوع مبدى من مبادي العرب ، ولا ينزل في حي من أحياء بني تميم غيرهم، وكان أخلاَّؤه من العرب كلهم بني جعفر ، وكانت إبله في بلاد بني ضَبَّة وبلاد بني سعد ، وكذلك كان أبوه يفعل ، لا يجاوز هذين الحيين بإبله [2] .

وكان عدي ينتقل بين المدائن والحيرة ، ويقوم بمهمتين كبيرتين فيهما . ففي المدائن هو الكاتب المفضل ، والسفير المقرب، والمستشار المؤتمن . وفي الحيرة هو المربي والمؤدب ، والكافل للنعمان بن المنذر ، الذي سيؤول اليه أمر الحيرة بعد أبيه .

يروي أبو الفرج عن هشام بن الكلبي [3] أن المنذر جعل ابنه النعمان في حجر عدي بن زيد الذي تكفل بارضاعه، ثم بتربيته وتأديبه . وكان للمنذر ابن آخر يقال له « الأسود » أشرف على ارضاعه وتربيته قوم من أشراف الحيرة ، من العباد ، يقال لهم : بنو مَرِينا .

---

(١) جفير : بفتح الجيم وكسر الفاء ، قال البكري في معجمه : هو ماءة في ضرية بنجد .

(٢) الأغاني ٢/١٠٥ .

(٣) الأغاني ٢/١٠٥ .

ولما احتضر المنذر كان له من الأولاد عشرة ، أوصى بهم إلى اياس بن قَبِيصة الطائي ، وملكه على الحيرة إلى أن يرى كسرى رأيه .

وحينما أراد كسرى أن يبت في شأن عرش الحيرة ، سأل عدياً عمن بقي من آل المنذر ، وهل فيهم أحد فيه خير ؟ فأجابه عدي : ان في ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير ، فأمره أن يحضرهم جميعاً ليختار منهم من يرى فيه الجدارة بالملك .

هنالك ، قام عدي بمسعاه المشهور في تولية النعمان بن المنذر ، وحجب اخوته جميعاً ، مستخدماً في ذلك ما أوتي من دهاء وحيلة : فزود النعمان بمجموعة من النصائح ، ليتفرد أمام كسرى دون اخوته بمزايا الرجولة الخشنة التي يبحث كسرى عمن يتصف بها ليوليه الحيرة ، فما يصلح للحيرة ، في نظره ، إلا الشجاعة والخشونة والتقشف والصبر على المجالدة والنضال ، لتستطيع أن تدرأ عن المملكة الفارسية ضربات المغيرين ، وترد هجماتهم .

وقد توسم كسرى في النعمان هذه الصفات جميعاً حين رآه ، ولم ير شيئاً منها في اخوته ؛ ذلك أن عدياً طلب منهم أن يظهروا أمام كسرى بمظهر المترفين المنعّمين الذين اعتادوا خفض العيش ،

وألفوا لين الحياة ورغدها ، وآثروا السلامة والأمن على المحنة والكفاح .

لقد أوصى عدي النعمان أن يدخل على كسرى مرتدياً لباس السفر ، متقلداً السيف ، وأوصى اخوته أن يدخلوا عليه مرتدين أفخر ثيابهم وأجملها . وأوصاه أن يقبل على الطعام بشراهة رجل الميدان المكافح الذي براه الجهد ، واعتصرته اللأواء ، وأوصى اخوته أن يتباطؤوا في الأكل ، وأن يكتفوا بالنزر اليسير ، وكان كسرى يعجبه كثرة الأكل من العرب خاصة ويرى فيها دليلاً على قوة الرجل وقدرته على خوض المعارك وتحمل المشاق ، ويرى أنه لا خير في العربي إذا لم يكن أكولا شرهاً [1] . وأوصى عدي النعمان إذا سأله كسرى : هل تكفيني العرب ؟ أن يجيب نعم ، فاذا قال له : فمن لي باخوتك ؟ أن يكون جوابه : إن عجزت عنهم فاني عن غيرهم لأعجز ، وعكس الأمر لاخوته ، فأوصاهم إذا سألهم كسرى : أتكفونني أحدكم إن شذ على الطاعة ؟ أن يكون جوابهم : لا ، إنَّ بعضنا لا يقدر على بعض ، وأوهمهم أن هذا يدل على تماسكهم ، ويجعل كسرى يخشى تضامنهم ومنعتهم وبأسهم .

وانطلت هذه اللعبة السياسية الماكرة التي قام بها عدي ،

---

(١) الأغاني ٢/١٠٧ .

إن صحت الرواية ، على إخوة النعمان ، وكان نتيجتها إبعادهؤلاء الاخوة عن عرش الحيرة ، وتتويج أخيهم النعمان ؛ ذلك أن كسرى جعل ينظر إلى هيئة النعمان وسلوكه ، فأعجب به ، وأسرّ لعدي : إن يكن في أحد منهم خير ففي هذا . ثم استدعاهم فرداً فرداً ، وطرح عليهم الأسئلة المتقدمة ، فما أعجبه سوى جواب واحد ، هو جواب النعمان ، فملّكه ، وخلع عليه ، وألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم ، فيه اللؤلؤ والذهب (١) .

واستطاع عدي في لعبته الماكرة هذه أن يكسب ثقة أبناء المنذر جميعاً ، ولم ينفع تحذير ابن مرينا لربيبه « الأسود » مما يدبره عدي له ولإخوته في الخفاء ، فلم يلتفت الأسود لمربيه عدي ابن مرينا حينما حذره من مكر عدي وحيلته ، وما زاد على أن قال : « ان عدياً لم يألني نصحاً ، وهو أعلم بكسرى منك ، وإن خالفته أوحشته ، وأفسد عليّ ؛ وهو جاء بنا ووصفنا ، والى قوله يرجع كسرى (٢) .

وهكذا وُسِّد أمر الحيرة إلى النعمان بن المنذر ، بفضل ما قام به عدي بن زيد من حيلة ومكر وتدبير . ولم يكن عدي يدري أن يوم تتويج النعمان كان بدء نهايته هو ؛ ذلك أن نجاحه

(١) الأغاني ٢/١٠٨

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٨

في مسعاه أوغر عليه الصدور ، وأرّث الأحقاد ، وأثار الحسد في نفوس كثيرة ، ودفع الخصوم ، وعلى رأسهم عدي بن مرينا ، ليكيدوا لعدي وليوقعوا به عند ربيبه ، ومن أسدى إليـه ذلك المعروف العظيم ، النعمان بن المنذر .

★ ★ ★

٤

صفاته وأخلاقه :

كان عدي ، فيما يبدو لنا من أخباره ، جميل الصورة ، وسيم المنظر ، حسن الهيئة ، أنيق المظهر ، تَزِينه طلعة مشرقة ، وقامة فارعة ، وثغر جميل . وقد نعته أبو الفرج بهذه الصفات الخَلْقِيَّة فقال [(١)] : « وكان عدي حسن الوجه ، مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المبسم ، نقي الثغر » .

ويظهر أن جماله وأناقته ، وما كان يبدو عليه من بريق النعمة وعزة المكانة قد قربه من قلوب النساء ، وجعله موضع إعجابهن . وإذا أضفنا إلى وسامته وحسن مظهره ما كان يتمتع به من فراغ وجِدَة ونفوذ ، تبين لنا أنه قد مهدت لعدي سبل اللهو والترف ، وارتشاف كؤوس اللذات دهاقا مترعة .

وشعره ، فيما سلم لنا منه ، يشهد بأن نفسه كانت تحنّ إلى مجالس اللهو ، وأن قلبه يهفو إلى معاشرة الغيد الحسان ،وأنه كان يرى نعيمه في الانصراف الى السماع والطرب والشراب . يقول :

. . . .

وأُصْبي ظِباءً في الدِّمَقْسِ خَواضِما

---

(١) الأغاني ٢/١٣٠ .

بَناتِ كِرامٍ لمْ يُربْنَ بِضُرَّةٍ
دُمىً شَرِقاتٍ بالعَبيرِ رَوادِعا [١]
لَهَوْتُ لهنَّ بينَ سِرٍّ ورَشْدَةٍ
ولم آلُ عنْ عَهْدِ الأحبَّةِ خادِعا
يُسارِقْنَ مِ الاستارِ طَرْفاً مُفَتَّراً
ويُبْرِزْنَ مِنْ فَتْقِ الخُدورِ الأصابِعا

ويقـول :

أَيُّها القلبُ تعلَّلْ بِـدَدَنْ
إنَّ همِّي في سَماعٍ وأَذَنْ [٢]
وشَرابٍ خُسْرَوانِيٍّ إذا
ذاقَهُ الشيخُ تغَنَّى وارْجَحَنْ [٣]

ويقـول :

ومَلاهٍ قدْ تَلَهَّيْتُ بِها
وقَصرْتُ اليومَ في بَيْتِ عَذاري [٤]

---

(١) شرقات بالعبير : ممتلئات به . وروادع : جمع رادعة ، وهي المتدهنة بالطيب ، الملمعة بالزعفران .

(٢) الددن محركة : اللهو واللعب . والأذن : الاستماع .

(٣) ارجحن : مال واهتز .

(٤) قصرت اليوم ، أي جعلته قصيراً باللهو والسرور . وعذاري : جمع عذراء

في سَماعٍ يَأْذَنُ الشَّيْخُ لهُ
وحديثٍ مثلِ ماذِيٍّ مُشارِ [1]
مَـيِّ إني بكمُ مُرْتَهَـنٌ
غـيرَ ما أكـذبُ نَفْسي وأُماري

وواضح أن هذه الأبيات تصور الجانب اللاهي من حياة عدي أوضح تصوير .

على أنَّ هـذا الجانب لم يطـغ على شخصيـة عـدي ، ولم يخرج به إلى حد السفه والطيش والمغالاة . لقد استجاب لنداء النفس ، واستمع لنأمات القلب ، يوم كان الشباب مواتياً، والزمان صافياً ، لا يعكر صفو حياته معكر ، ولا يفسد عليه لذته طارق.

ولكن سرعان ما تدور به الأيام ، ويخبو سراج الشباب ، وتمضي أيامه الوضيئة المليئة بالملذات ، فيثوب إلى رشده، ويصحو من صبوته ، فيرى أنه قد آن له أن يقصر عن جهالات الشباب ، ويدلف إلى حرم الحياة الراشدة ، وإن في أعماق النفس لرسيساً من الحنين إلى تلك الأيام الغرّ الوضاء . يقول :

قد آنَ أنْ تصحوَ أوْ تُقْصِـرْ
وقـدْ أَتَى لِما عهدتَ عُصُرْ

(١) يأذن : يستمع والماذي : العسل الأبيض . والمشار : المجتنى .

عَنْ مُبْرِقاتٍ بِالبُرِينَ وتَبْ
دو في الأكُفِّ اللاَّمعاتِ سُوُرْ [١]
بيضٌ عليهنَّ الدِّمَقْسُ وفي الأ
عناقِ مِنْ تحتِ الأكِفَّةِ دُرّْ [٢]
كالبَيْضِ في الرَّوضِ المنوِّر قَدْ
أفْضى بِها إلى الكَثيبِ نُهُرْ
يأْرَجُ مِنْ أردانِهِنَّ مع الـ
مِسْكِ الزَّكِيِّ زَنْبقٌ وقُطُرْ [٣]
جارِيَتُهنَّ في الشَّبابِ وإذْ
قلبي بأحكامِ الحَوادثِ غِرّْ

وان نظرة يلقيها الباحث على ديوان عدي ، يعود منها بطائفة من السجايا والخصال الحميدة ، يضفيها عدي على نفسه في عدة مواضع من شعره ، متغنياً بها ، معتزاً بأصالتها فيه .

فهو يفتخر في تائيته بتواضعه أمام الأخلاَّء، وعفوه عند المقدرة ، وسمعته الطيبة بين الناس فيقول :

---

(١) البرين : جمع بُرة ، وهي الخلخال . وسور : جمع سوار .
(٢) الأكفة : جمع كفاف ، وهو من الشيء الحرف الذي يحيط به .
(٣) يأرج : يفوح . وقطر : العود الذي يتبخر به .

ألا يا ربَّما عزَّ خليلي فتهاونتُ
ولو شئتُ على مقدُ رةٍ منّي لعاقبتُ
ولكنْ سرَّني أن يعـ لموا قـدري فأقلعتُ
ألا لا فاسْألوا الفتيِـ ةَ ماقالوا وقـد قمتُ

ويفتخر أيضاً في رائيته بجَلَده وصبره واتزانه ، والذّبِّ عن حياض الكرامة والشرف يوم الشدة والكرب فيقول :

إنْ يُصِبْني بعضُ الأذاةِ فلاوا نٍ ضَعيفٌ ولاأكبُّ عَثورُ (١)
وأنا الناصرُ الحقيقةَ إنْ أظْ لَمَ يومٌ تَضيقُ فيه الصدورُ (٢)
يومَ لا ينفعُ الرَّواغُ ولا يَنْ صعُ إلا المُشيَّعُ النِّحْريرُ (٣)

وفي ميميته يفتخر بوفائه وشهامته وكرمه ، فيقول :

وما بدأتُ خليلاً أوْ أخا ثِقَةٍ
بِخَنْعَةٍ ، لا وربِّ الحِلِّ والحَرَمِ
يأْبى ليَ اللهُ خونَ الأصفياءِ وإنْ
خانوا ودادي ، لأنّي حاجِزي كَرَمي

---

(١) رجل أكب : دائم الغفلة . والعثور : كثير الخطأ .
(٢) الحقيقة هنا : ما يحق على الرجل أن يحميه ويذود عنه .
(٣) الرَّواغ : الميْل والحيْد ، من راغ الرجل يروغ روغاً وروغاناً ، إذا مال وحاد عن الشيء . ونصع إلى الحرب : برز إليها . والمشيّع: الشجاع كأنه شيع بقوه قلبه . والنحرير : الماهر المجرب .

ولا بَخِلْتُ بمالي عن مَذاهِبِه
في حاجَةِ الرُّزْءِ إنْ كانَتْ ولا الذِّمَمِ
ولا أضعتُ لربٍّ مايُخَوِّلُني
بالعهدِ أو بسبيلِ الصِّهْرِ والنِّعَمِ

ومهما يكن حظ هذا الفخر من الزعم والادعاء ، فانه يشير إلى طائفة من الشيم الكريمة التي كان يتحلى بها عدي ، وليس لنا أن نطرح ما نعت عدي به نفسه ، إذ لم يقم لدينا ما ينفيه أو يعارضه ، اللهم إلا تلك القصة التي روتها كتب الأدب عن مسعاه المشهور لدى كسرى لتولية النعمان عرش الحيرة ، وما تضمنت من مكر وحيلة وتلاعب لصالح النعمان دون اخوته.وهي إذا كانت تحمل الخيانة لإخوته من طرف ، فهي تحمل الوفاء للنعمان من طرف آخر . هذا ، إلى أنها قصة لا يمكن قبولها في تفاصيلها عارية عن الشك .

وبعد ، فما وصلنا من أخبار عدي وشعره يمكن القول : إن عدياً قد اتصف بجملة من الصفات والشمائل الخَلْقية والخُلُقية، أهّلته أن يكون محبوباً لدى النساء ، أثيراً عند الأخلاَّء ، مقرباً من حكام الحيرة والمدائن ونفوس الجماهير على السواء .

٥

حبه لهند بنت النعمان وزواجه منها :

رأينا في الفقرة السابقة أن عدياً كان أثيراً لدى النساء ، محبَّباً إلى قلوبهن ، وأنه كان يصبو إلى الاستمتاع بمجالستهن ، والاستماع إلى أحاديثهن الرقيقة العذبة ، واللهو معهن في السر والعلن.

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا بعد أن بسطنا القول في هذا الجانب المترف اللاهي من حياة عدي هو : أكان عدي ذلك المحب الذي اكتوى بنار الحب ، ولذّع قلبه الغرام ؟ أم ذاك الشاب العابث الذي يحب أن يقضي لبانته ، متنقلاً بين أحضان الغانيات ومجالس السمر والشراب والأنس والطرب ؟ .

وللاجابة على هذا السؤال لا بد من أن نستنطق أخباره وشعره ، علّنا نظفر منهما بجواب ، إن لم يكن قاطعاً ، فانه يجلو كثيراً من حقيقة حياة عدي العاطفية .

أما أخباره فجماعها ، فيما علمت ، ما رواه أبو الفرج [1] عن هشام بن الكلبي ، وابن أبي سعد ، وخالد بن كلثوم ، وابن الأعرابي ، من أن عدي بن زيد قد أحب هنداً بنت النعمان

---

(١) الأغاني ٢ / ١٢٩ .

أو أخته ، على ما سيأتي تفصيله ، وأنه تزوجها في نهاية المطاف ، وبقيت معه حتى سجن ثم قتل ، فترهبت ، ودخلت الدير فأقامت فيه حتى ماتت .

وتروى رواية ابن الكلبي وابن أبي سعد وخالد بن كلثوم: أن عدياً دخل بيعة توما في خميس الفصح ليتقرب ، فرأى فيها هنداً ، وكانت مديدة القامة ، عبلة الجسم ، ولها يومئذ من العمر احدى عشرة سنة ، فوقعت في نفس عدي ، وجعل يختلس اليها النظر ، فتنبهت هند لنظراته النافذة ، وشقّ عليها ذلك ، فسبّت جواريها ، ونالت بعضهن بضرب . ولبث عـدي حولا لا يخبر بذلك أحداً .

وكان لهند أمة اسمها مارية ، تحب عدياً ، فلما انصرم العام زينت لهند الخروج إلى بيعة توما مرة أخرى ، وأخبرت ع دياً بذلك ، فأخذ زينته وتوجه إلى الكنيسة .

وفي الكنيسة رأته هند في أبهى حلة ، وأكمل زينة ، وقد برع على أقرانه بجماله وفصاحته وأناقته ، فأحبته .

وتكمل مارية ، إنْ صحت الرواية ، دور الوسيط لقاء وصل يجود عدي به عليها فتسر إلى النعمان بحب عدي لهند ، وتقترح

على عدي أن يدعو النعمان إلى طعام ، فاذا أخذ منه الشراب مأخذه خطب إليه هنداً فانه غير راده . فصنع عدي طعاماً واحتفل فيه ، ودعا إليه النعمان وصحبه ، فلما أخذ منه الشراب خطبها إليه ، فأجابه إلى طلبه ، وزوَّجه ، وضمها إليه بعد ثلاثة أيام .

ومهما يكن شكّنا في تفاصيل هذه القصة ، فاننا نراها بجملتها بينة الدلالة على أنه قد أعرس بهند بعد أن اتصلت بينهما أسباب الحب .

وأما شعره ففيه ما يشهد بحبه لهند ، وتزوجه منها .

ففي حبها يقول :

عَلِقَ الأحشاءَ من هِنْدٍ عَلَقْ مُسْتَسِرٌّ فيهِ نَصْبٌ وأَرَقْ[1]

ويقول :

يا خليليَّ يَسِّرا التَّعْسيرا ثُمَّ رُوحا فهجِّرا تَهْجيرا
عرِّجا بي على ديارٍ لهِنْدٍ ليسَ أنْ عُجْتُما المَطيَّ كَبيرا

ويذكر مصاهرته للبيت المنذري في احدى اعتذارياته التي يذكّر فيها النعمان بسابق صلته ببيتهم ، فيقول :

أَجْلَ نُعْمى رَبَّها أوَّلُكُمْ ودُنُوّي كان منكمْ واصْطِهاري

(١) العلق : الهوى . والنصْب : الداء والبلاء .

ويشير إلى هذه المصاهرة وحفظه لها في مكان آخر فيقول:

ولا أضَعْتُ لِرَبٍّ ما يُخَوِّلُني
بالعَهْدِ ، أو بسبيلِ الصِّهْرِ والنِّعَمِ

وتذهب بعض الروايات إلى أن هنداً بقيت في عصمته حتى قتله النعمان ويذهب بعضها إلى أنها لم تمكث معه سوى ثلاث سنين ، وفي ذلك يقول أبو الفرج (١) : « قال خالد بن كلثوم : فكانت معه حتى قتله النعمان ، فترهبت وحبست نفسها في الدير المعروف بدير هند في ظاهر الحيرة . وقال ابن الكلبي : « بل ترهبت بعد ثلاث سنين ومنعته نفسها واحتبست في الدير حتى ماتت ، وكانت وفاتها بعد الاسلام بزمان طويل في ولاية المغيرة ابن شعبة الكوفة ، وخطبها المغيرة فردّته » .

ويذهب بعض هذه الروايات الى أنه أكره على طلاقها يوم دخل السجن ، وفي ذلك يقول أبو الفرج (٢) : « وروى ابن حبيب عن ابن الاعرابي : أن النعمان لما حبس عديّاً أكرهه في أمرها على طلاقها ولم يزل به حتى طلّقها » .

أما من هي هند هذه ؟ أهي ابنة النعمان بن المنذر أم أخته؟

---

(١) الأغاني ٢/١٣١ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٣٣ .

أغلب الروايات على أنها ابنة النعمان ، وأن عدياً تزوجها حين بلغت أو كادت [١] .

ولكن أبا الفرج يورد رواية أخرى لابن حبيب عن ابن الاعرابي تفيد أنها أخت النعمان أو ابنته ، يقول أبو الفرج [٢] : « قال ابن حبيب : وذكر عدي بن زيد صهره هذا للنعمان في قصائده وكان زوج أخته ـ هكذا ذكر العلماء من أهل الحيرة ـ وقالت رواة العرب : إنه كان زوج ابنته هند » .

وربما كان الأقرب الى الواقع أن تكون هند أخت النعمان ؛ لأن عدياً كان شاباً حينما طرح المنذر ابنه النعمان في حجره ليربيه [٣] . ولكي نعرف سنّ عدي يوم أعرس بهند ، على الرأي القائل بأنها ابنة النعمان ، لا بد لنا من أن نضيف إلى عمره آنذاك السنين التي بلغها النعمان حين بلغ أشدّه وتزوج وأنجب ، ثم لا بد لنا من اضافة اثنتي عشرة سنة أخرى على أقل تقدير ، وهي ما لهند من العمر حين تزوجها ، وبذلك يتبين لنا أن عدياً لم يعد ذلك الشاب الفاتن ، الذي ظل محتفظاً بشبابه الغضّ وصباه النضير بحيث يستطيع أن يصبي فتاة في الثانية عشرة من عمرها . إنه نتيجة هذا الحساب

(١) الأغاني ٢/١٠٥ ، ١٢٨ وما بعدها .
(٢) الأغاني ٢/١٣٣ . (٣) الأغاني ٢/١٠٥ .

أكبر من أبيها النعمان ، ولعله كان يضع قدمه في عتبة الشيخوخة، إنْ لم نقل إنه دلف اليها .

وقد لا نجد في تزوج عدي من هـذه الفتاة الصغيرة أي غرابة ، لو أن الزواج تم بشكله الطبيعي المعروف في تلك الأيام ، لأن من عادة العرب أنهم يتزوجون بفتيات صغيرات في مثل سن هند ، وبخاصة إذا كانت الفتاة كما صورت الروايات هنداً: «مديدة القامة ، عبلة الجسم [1] » . ولكن الغرابة في أن تُتَيَّم هذه الفتاةُ الغريرة الغَضَّة ، المترعرعة في قصر الملك ، المتقلِّبة في أعطاف النعيم ، برجل أكبر من أبيها بسنوات تزيد على خمس عشرة سنة .

لهذا كله ، بدا لنا أن الأقرب الى الحقيقة ، والأدنى إلى الصواب، أن تكون هند التي أحبها عدي وتزوجها هي أخت النعمان ، لا ابنته .

ونخلص بعد ذلك كله إلى الاجابة على السؤال الذي طرحناه في صدر هذه الكلمة ، وهو : هل كان عدي من الذين تيَّمهم الحب ، ولذَّع قلبهم الغرام ؟ فنقول :

الظاهر أن عدياً قد أحب ، ولكنه لم يتيمه الحب ، ولم يكوه بناره ، لأنه ، إنْ صحت قصة حبه ، قد تزوج ممن أحب ، ولم يذق طعم الحرمان .

---

(١) الأغاني : ٢/١٢٩ .

٦

تدينه :

كان التدين ، فيما يظهر ، جانباً واضحاً من جوانب شخصية عدي ، نلمحه بوضوح في نظراته الدينية في شعره ، تلك النظرات التي تذكر كتب الأدب أن النعمان تأثر بها فتنصَّر . ونلمحه فيما رواه أبو الفرج من تردد عدي على دور العبادة في المواسم والأعياد . هذا الى جانب ما ورد في شعره من ألفاظ وتشابيه منتزعة من أجواء المسيحية ودور العبادة فيها . وهذا كله إنْ لم يدل على تدين عميق وانصياع كامل لأوامر الدين ، فانه يشير ، على الأقل ، إلى يقظة العاطفة الدينية في نفس عدي ، والتنبه الى مصير الانسان المحتوم ، ونهايته المرتقبة وما يتصل بها من بعث وحساب ، يقول :

أينَ أهلُ الدّيارِ من قومِ نوحٍ ثم عادٌ من بعدِهِمْ وثَمودُ
أينَ آباؤُنا وأينَ بَنوهمْ أين آباؤُهُمْ وأينَ الجُدودُ
سَلَكوا منهجَ المنايا فبادوا وأرانا قَدْ حانَ منَّا وُرودُ
بينما هُمْ على الأسِرَّةِ والأنْ ماطِ أفْضتْ إلى التُّرابِ الخدودُ
ثم لمْ ينقضِ الحديثُ ولكنْ بعدَ ذا الوعدُ كُلُّه والوَعيدُ

ويبدو أن هذه الفكرة كانت تلح على عدي ، وتتعمق

نفسه ، وبخاصة في أواخر عمره ، فتتفجر شعراً ينساب من أعماقه، يردد الحقائق الكونية الخالدة في حياة البشر ، من حياة وموت، وما يتلوهما من حساب وعقاب ، كلما رأى مشهداً يذكر بحقيقة من هذه الحقائق ، أو سمع ما يتصل منها بسبب من الأسباب

ولعل خير شاهد على صحة ما قدمناه تلك القصة التي رواها المبرد [١] وأبو الفرج [٢] وخلاصتها : أن النعمان خرج يتنزه بظهر الحيرة ، ومعه عدي بن زيد ، فمر على المقابر من ظهر الحيرة ونهرها ، فقال له عدي : أبيت اللعن أتدري ما تقوله هذه المقابر ؟ قال : لا ، فقال له : تقول :

أيها الركبُ المُخِبّو نَ على الأرض المُجِدّونْ
فكما أنتمُ كُنّا وكما نحنُ تَكونونْ

فانصرف النعمان وقد دخلته رقة ، فمكث بعد ذلك يسيرا، ثم خرج خرجة أخرى ، فمر على تلك المقابر ، ومعه عدي ، فقال له : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه المقابر ؟ قال : لا ، قال فانها تقول :

من رآنا فليحدّثْ نفسَهُ أنهُ مُوفٍ على قَرْنِ زَوالِ

(١) الكامل : ٤٣٤

(٢) الأغاني ٢/١٣٤ .

وصُروفُ الدهرِ لا يَبْقى لَها ... ولما تأتي به صُمُّ الجبالِ
رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا ... يَمْزُجون الخمرَ بالماءِ الزُّلالِ
والأباريقُ عليها فُدُمٌ ... وجيادُ الخيلِ تَردي في الجِلالِ[1]
عُمِّروا دهراً بعيشٍ نَضِيرٍ ... آمني دَهْرِهِمْ غيرَ عِجالِ
ثمَّ أضحَوْا عَصَفَ الدهرُ بهمْ ... وكذاكَ الدهرُ يودي بالرِّجالِ
وكذاكَ الدهرُ يَرْمي بالفتى ... في طِلابِ العيشِ حالاً بعدَ حالِ

فرجع النعمان فتنصَّر .

وسواء أصحت تفاصيل هذه القصة أم لم تصح ، فانها تدل بجملتها على تنبه عدي لفكرة الموت ، وأصالة العاطفة الدينية في نفسه .

ويدعم هذا أيضاً ما يرويه أبو الفرج[2] في سياق حديثه عن حبه لهند بنت النعمان من أن عدياً كان يغشى دور العبادة في المواسم الدينية ليتقرَّب ، وأنه قد رأى هنداً لأول مرة في بِيعة توما في خميس الفصح .

هذا ، وقد سقط في شعره طائفة من الألفاظ والتعابير

---

(١) الفدم : جمع فدام بفتح الفاء وكسرها ، وهو ما يوضع في فم الابريق لتصفية الشراب . وتردي : تعدو .

(٢) الأغاني ٢/١٢٩ .

النصرانية ، وَشَتْ بهذه العاطفة الدينية ، وكشفت عن أثرها الواضح في نفسه ، يقول :

سَعَى الأعداء لا يألون شَرّاً إليكَ وربِّ مكَّةَ والصَّليبِ

ويقول مشبهاً زجاجة الخمر بقنديل الكنيسة المتألق في عيد الفصح :

بزجاجةٍ مِلْءِ اليديْنِ كأنَّها قِنْديلُ فِصْحٍ في كنيسةِ راهبِ

على أن الجانب الديني في شخصية عدي إنما يتجلى في هذا التأمل لأحوال الانسان في هذه الحياة ومصيره في نهاية المطاف ، لا في تمثله لعقيدة النصرانية وعرضه لتعاليمها ؛ ذلك أننا لا نلمح في شعره شيئاً عن العقيدة النصرانية المعروفة بفكرة (التثليث)، كما أننا لا نراه يتحدث عن تعاليم النصرانيـة ورأي النسطوريين في طبيعة السيد المسيح ، وما إلى ذلك من أحكام وتعاليم ، كانت المذهب السائد المنتشر بين نصارى الحيرة آنذاك ، رغم غزارة مواعظه التي فاضت بها نفسه ، بما فيها من نظرات خصبة عن الحياة والخلق والموت والبعث والنشور ، وكلها أفكار مستقاة من الدين . وهذا ما يفسر لنا عدم تعمق عدي للنصرانية ، وللنسطورية نحلة نصارى الحيرة آنذاك .

وفي شعره ما يشهد أن روح التدين عند عدي ليست بالروح النصرانيه الخالصة ، وإنما تمازجها الوثنية العربية . يبدو لنا هذا من قسم عدي الآنف الذكر بمكة والصليب معاً ، ومن قسمه برب الحل والحرم إذ يقول :

وما بدأتُ خليلاً أو أخا ثِقَةٍ
بخَنْعَةٍ ، لا وربِّ الحِلِّ والحَرَمِ (١)

كما يبدو من قسمه أيضاً بذات الوَدْع ، وهو وثن كان بالحيرة ، يقول :

كلاَّ يميناً بِذاتِ الوَدْعِ لوْ حدَثَتْ
فيكمْ وقابَلَ قبرُ الماجِدِ الزَّارا (٢)

وجماع عاطفته الدينية وسبحاته الروحية المحلقة ، هي تلك المواعظ والتأملات البعيدة المستأنية المستقصية للناس وأحوالهم في هذه الحياة ، على اختلاف منازلهم ورتبهم ، وما سيؤولون اليه في يوم آت لاريب فيه .

---

(١) الخنعة : الريبة .
(٢) الماجد : أراد به النعمان بن المنذر . والزار : موضع بالجزيرة كان النعمان مرض فيه .

٧

سجن ومقتل :

لقد كان تتويج النعمان بن المنذر على الحيرة ، بالطريقةالتي التي رأيناها ، ايذاناً ببدء معركة حامية الوطيس بين عدي بن زيد وعدي بن مَرِينا ، عميدي الأسرتين الكبيرتين اللتين كانتا تتعاوران النفوذ في الحيرة ، وانتهت بسجن عدي بن زيد ، فقتله .

لم تتخذ المعركة طابعاً قبلياً ؛ لأن العصبية القبلية قد ذهب ريحها في هذه المدينة التي جمعت أشتاتاً من الوافدين اليها،وصهرتهم الحياة المدنية فيها ، فأحالتهم إلى مجموعات رأينا من بينها العباد . والقطبان المتنازعان كلاهما من العباد ، فلم يبق إلا التنافس بين العائلية الملتفة حول العرش الحيري . ومن هنا كانت المعركة شخصية عائلية ، سلاحها المكر والكيد والدسّ والتدبيرفي الخفاء ، وميدانها الحيرة وقصر النعمان بن المنذر بالذات .

والذي نستظهره من احتضان أسرة عدي بن زيد للنعمان منذ الصغر ، واحتضان آل مَرِينا للأسْود بالمقابل ،ومن تنافس عدي ابن زيد وابن مرينا على انجاح مرشحيهما ، الذي نستظهره من هذا كله أنه كان هناك قوتان متصارعتان في الحيرة ، تمثلهما هاتان الأسرتان .

وإذا كان المنذر قد أرضى الأسرتين يوم طرح في كل منهما ولداً من أولاده ليرضعوه ويربوه ، فانَّ هذا التوازن قد اختلَّ يوم فاز مرشح عدي بن زيد على مرشح خصمه ابن مرينا ، وكانت الهزيمة مؤلمة لعدي بن مرينا الذي طوى نفسه على الكثير من الحقد والضغينة ، وراح يستعد ليوم التشفي والانتقام .

ولم يخف على ذكاء عدي بن زيد ما أحدثته هزيمة خصمه في معركة الامارة الحيرية من أثر سلبي في نفسه ، فأحب أن يبادره بعمل يفثأ نار الغضب التي تضطرم في صدره ، ويستلُّ من نفسه ما يعتلج فيها من حقد ، فصنع طعاماً في بِيعة ، وأرسل الى ابن مرينا أن ائتني بمن أحببت ، فان لي بك حاجة . وبعد الغداء وقف عدي وخاطب ابن مَرِينا قائلاً : « ياعدي، إن أحق من عرف الحق ثم لم يُلَمْ عليه من كان مثلك ، واني قد عرفت أن صاحبك الأسود بن المنذر كان أحب اليك أن يملَّك من صاحبي النعمان ، فلا تلمني على شيء كنت على مثله ، وأنا أحب ألا تحقد عليّ شيئاً لو قدرتَ عليه ركبتَه ، وأنا أحب أن تعطيني من نفسك ما أعطيك من نفسي ، فان نصيبي في هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك ، وقام الى البِيعة فحلف ألا يهجوه أبداً ، ولا يبغيه غائلة ، ولا يَزْوي عنه خيراً أبداً . فلما فرغ عدي بن زيد قام عدي بن مرينا

فحلف مثل يمينه ألا يزال يهجوه أبداً ، ويبغيه الغوائل مابقي [١]
« ثم قال ابن مرينا مهدداً عدي بن زيد :

ألا أبلِـغْ عديَّـاً عن عَـدِيٍّ فلا تَـجْـزَعْ وإنْ رثَّـتْ قُـوا كا
هيا كلَنا تبَـرُ لِغَيْرِ فَقْرٍ لِتُحْـمَـدَ أو يتمَّ بهِ غناكا
فانْ تَـظْفَرْ فلمْ تظفرْ حميداً وإنْ تَـعْـطَـبْ فلا يَبْـعُدْ سوا كا
ندمتَ نَـدامةَ الكُسَـعِيِّ لمَّـا رأتْ عيناكَ ما صنعَتْ يَـدا كا

ومنذ ذلك الحين ، لم يأل عدي بن مرينا جهداً في الايقاع بعدي بن زيد والدس عليه عند النعمان ، فراح يعمل على شحن قلب الأسود بن المنذر بالحقد ، فذكَّـره بمكر عدي الذي أسقطه ورفع أخاه النعمان ، ثم حثه على الانتقام منه ، وجعل يجمع المال لإنجاح خطته . وكان ابن مرينا كثير المـال والضيعة [٢] ، فلم يكتف بماله ، بل طلب من الأسود أن يأتيه بغلات أرضه كلهـا أيضاً ، لينفق ما يمكن جمعه في الكيد لعدي ، فما كان يمـر يوم الا وعلى باب النعمان هدية من ابن مرينا ، فصار من أكرم الناس عليه ، حتى كان لا يقضي في ملـكه شيئاً إلا بأمر ابن مرينا [٣] .

وجعل ابن مرينا يتربص بعدي الدوائر ، فاذا ما ذُكِـرَ عند

---

(١) الأغاني ٢/١٠٨ .
(٢) المصدر السابق ٢/١٠٩
(٣) المصدر السابق ٢/١٠٩

النعمان أحسن الثناء عليه ، ثم شيَّع ذلك بقوله : ان عدي بن زيد فيه مكر وخديعة . ثم تواطأ مع من يثق به من أصحابه أن يذكر هو عدياً بخير ، فيبادر أصحابه الى القول : إنه لكذلك ، ولكنه لا يسلم عليه أحد ، وإنه ليقول : إن الملك ، يعني النعمان ، عامله ، وإنه هو ولاّه ما ولاّه . وشايعه في دسّه هذا خلق كثير ممن يُطيف بالنعمان ، وبخاصة عندما رأوا منزلته عنده . وما زالوا يتقوّلون على عدي ، ويفترون عليه الكذب أمام النعمان حتى أضغنوه عليه ، ثم زيّن لهم مكرهم أن يكتبوا على لسانه كتاباً ممتلئاً بالدس والافتراء ، وأتوا به النعمان ، فقرأه فاشتد غضبه ، فأرسل إلى عدي بن زيد : عزمت عليك إلاّ زرتني ، فاني قد اشتقت إلى رؤيتك ، وعدي يومئذ عند كسرى، فاستأذن كسرى فأذن له . فلما أتاه لم ينظر اليه حتى حبسه في محبس لا يدخل عليه فيه أحد ، فجعل عدي يقول الشعر وهو في الحبس (١) يستعطف النعمان ، ويذكر مؤامرات الأعداء ، ويبين براءته من كل ما نسبوه اليه ، ولكن النعمان أصم أذنيه عن سماع صرخاته الحبيسة المستغيثة .

ويذكر أبو الفرج رواية أخرى للمفضل الضبي (٢) في سبب

---

(١) الأغاني ٢ / ١١٠ .

(٢) المصدر السابق ٢/١١٥ .

حبس النعمان عدي بن زيد ، فيقول : « وقال المفضل خاصة : إن سبب حبس النعمان عدي بن زيد ، أن عدياً صنع ذات يوم طعاماً للنعمان ، وسأله أن يركب اليه ويتغدّى عنده هو وأصحابه، فركب النعمان إليه ، فاعترضه عدي بن مرينا فاحتبسه حتى تغدّى عنده هو وأصحابه ، وشربوا حتى ثملوا ، ثم ركب إلى عدي ولا فضل فيه ، فأحفظه ذلك ، ورأى في وجه عدي الكراهة ، فقام فركب ورجع الى منزله ، فقال عدي بن زيد في ذلك من فعل النعمان :

أحسبتَ مجلسَنا وحسنَ حديثِنا يُودي بمالِكْ
فالمالُ والأهلونَ مَصْرَعَةٌ لأمرِكَ أو نَكالِكْ
ما تَأمُرَنْ فينا فأمرُكَ في يَمينِكَ أو شِمالِكْ

قال : وأرسل النعمان ذات يوم إلى عدي بن زيد فأبى أن يأتيه ، ثم أعاد رسوله فأبى أن يأتيه ، وقد كان النعمان شرب ، فغضب وأمر به فسحب من منزله حتى انتُهي به اليه ، فحبسه في الصِّنَّيْن ولجَّ في حبسه ، وعدي يرسل اليه بالشعر » .

ومهما يكن السبب المباشر الذي أخذ به النعمان عدياً ، فان الروايات تدل على أن هناك أسباباً أخرى بعيدة كانت تتجمع لدى النعمان فتوغر صدره ، وتهيء نفسه للبطش بعدي ، منها :

تعالي عدي الآنف الذكر وغضبه من فعلة النعمان . وقد سوغ لعدي أن يقف من النعمان هذا الموقف شعوره بسابقته التربوية له، وفضله عليه في ولايته على الحيرة ، هذا الى ما كان يتمتع به من مكانة رفيعة في البلاطين وفي نفوس الجماهير . ولكن ابن مرينا كان يضخم هـذا الشعور للنعمان ، ويضيف اليـه الكثير من الافتراءات ، حتى وجِد عليه النعمان وضاق به ذرعاً ، فألقاه في غياهب السجن .

وثمة سبب آخر ، هو أن عمل عدي الرسمي لدى كسرى أبعده عن الحيرة ، وجعله لا يزورها إلا لِماما ، في حين كان ابن مرينا مقيما في الحيرة ، لا يكاد يغادرها إلى بلد آخر، يعمل ماوسعه الجهد على تثبيت دعائم نفوذه بين أوساط الجماهير ، وفي بلاط النعمان وحاشيته وقد ساعده ثراؤه الواسع على ترسيخ نفوذه وزيادة تأثيره في نفوس الناس الرسميين ، وغير الرسميين . وقد أتاح غياب عدي لابن مرينا أن يدس عليه عند النعمان ، وأن يجد من يستمع اليه ويظاهره على خصمه حتى أوقع به .

وطفق عدي يرسل من سجنه الى النعمان بالشعر ، مستعطفاً تارة ، وناقداً لائماً تارة أخرى ، وذلك حين يتناهى اليه تقصير

من النعمان في حماية المملكة ، التي تكفل بالذبّ عن حياضها كلما تعرضت لغارة مغير .

يقول أبو الفرج [(١)] : « قالوا جميعاً : وخرج النعمان الى البحرين فأقبل رجل من غسان فأصاب في الحيرة ماأحب،ويقال: إنه جفنة بن النعمان الجَفْنيّ ، فقال عدي بن زيد في ذلك :

سَما صَقْرٌ فأشعلَ جانِبَيْها
وألهاكَ المُروَّحُ والعَزيبُ [(٢)]
وثَبْنَ لدى الثَّوِيَّةِ مُلْجَماتٍ
وصبَّحْنَ العِبادَ وهُنَّ شِيبُ [(٣)]
ألا تلكَ الغنيمةُ لا إفالٌ
تُرَجِّيها مُسَوَّمَةٌ ونِيبُ [(٤)]
تُرجّيها وقد صابَتْ بِقُرٍّ
كما تَرْجو أصاغِرَها عَتِيبُ

---

(١) الأغاني ٢/١١٧

(٢) المروح : الابل المروّحة إلى أعطانها ، أي المردودة إلى مأواهـا . والعزيب : ما ترك منها في مراعيه .

(٣) الثوية : موضع قرب الحيرة . وهن : أي الخيل . وأراد بقـوله « شيب » أنها بدت مبيضة من العرق اليابس .

(٤) الافال : صغار الابل . والمسوّمة : الابل المرسـلة إلى المرعى . ونيب : جمع ناب ونيوب ، وهي الناقة المسنة .

ولا ريب أن هذه الأبيات التي تشنع على النعمان لهوه وتقصيره في ادارة الملك وحمايته ، وتشيد بخصمه المنقضّ على الحيرة انقضاض الصقر على فريسته ، كفيلة بأثارة حفيظة النعمان على عدي ، وجعله يعرض عن كل نداء استعطاف يرسله عدي من أعماق السجن ، فلبث سنين يرسف في قيوده الثقيلة ، ويجتر آلامه المبرّحة .

وقد ألهب السجن شعور عدي ، وأثار أحاسيسه ،فتفجرت شعراً انساب من قلبه الجريح ونفسه المكلومة ، فيه عتاب للنعمان، وبرهان على براءته من تقولات الخصوم ووشاياتهم ودسائسهم ، وتذكير بما أسدى اليه من معروف .

ولما طال سجنه بعث الى أخيه أُبَيّ ، وهو مع كسرى ، بهذه الأبيات يصف حاله ويستنجده ، ويحذره من المجيء الى الحيرة، وإلاّ نام نومة ليس فيها حلم :

أَبْلِغْ أُبَيّاً على نَأْيِهِ وهَلْ ينفعُ المرءَ ما قدْ عَلِمْ
بأنّ أخاكَ شقيقَ الفُؤا دِ كنتَ بهِ واثِقاً ما سَلِمْ
لدَى مَلِكٍ موثَقٌ في الحديـــدِ إمَّا بحقٍّ وإمّا ظُلِمْ
فلا أعْرِفَنْكَ كَذاتِ الغُلا مِ مالمْ تَجِدْ عارِماً تَعْتَرِمْ (١)

---

(١) العارم : الرضيع . وتعترم : تبتغي من يرضعها .

فأرضَكَ أرضَكَ إنْ تأتِنا   تَنَمْ نَوْمَةً ليسَ فيها حُلُمْ

فلما قرأ أُبَيٌّ كتاب عدي قام إلى كسرى فكلمه في أمره وعرَّفه خبره ، فكتب إلى النعمان يأمره باطلاقه ، وكان للنعمان خليفة (سفير) عند كسرى يقيم بالمدائن ، ويوافي النعمان بما يهمه من أمره عند كسرى ، فكتب اليه بأمر كسرى باطلاق سراح عدي .

وكان أُبيٌّ قد أوصى الرسول أن يبدأ بعدي فيدخل عليه السجن ، فدخل عليه وأخبره بما جاء من أجله ، فقال له عدي : لا تخرجنّ من عندي ، وأعطني الكتاب حتى أرسله إلى النعمان ، فانك ، والله ، ان خرجت من عندي لأقتلنّ . فأبى الرسول إلا أن يسلم الكتاب بيده .

وانطلق بعض أعداء عدي فأخبر النعمان بدخول رسول كسرى على عدي ، وأقسموا له : لئن أفرج عن عدي لينتقمنَّ ، ولن يستبقي منا أحداً ، أنت ولا غيرك ، فبعث اليه النعمان أعداءه فغموه حتى مات

ولم تشر المصادر القديمة الى سنة وفاته ، كما لم تشر إلى سنة ولادته .

ولكن بعض الدراسات الحديثة حاولت تحديد السنة التي قتل فيها ، واضطربت في ذلك أقوال الدارسين .

في دائرة المعارف الاسلامية أنه قتل سنة ٦٠٤ م [١]. وإلى هذا ذهب حنا الفاخوري في كتابه تاريخ الأدب العربي [٢] . وذهب لويس شيخو إلى أنه قتل سنة ٥٨٧ م [٣] . أما فون غرنباوم فقد جعل وفاته سنة ٥٨٥ م [٤].

ونحن إذا ذكرنا أن حكم النعمان بن المنذر بدأ نحو سنة ٥٨٥ م [٥] بمساعي عدي بن زيد ، وأن عدياً عاش فترة في عهده قبل أن تسوء علاقته به ، ثم زج به في السجن فمكث فيه سنين يرسل بأشعاره إلى النعمان مستعطفاً معتذراً ، وإلى أخيه أبي وأهله محرضاً مستنجداً ، ويصوغ مواعظه التي أنضجها طول الأسر ، إلى أن انتهت حياته بالقتل على النحو الذي مرّ آنفاً إذا ذكرنا هذا كله ترجح لدينا ما ذهب إليه جرجي زيدان من أن مقتله كان في أواخر القرن السادس ، أي نحو سنة ٥٩٧ م [٦] على أبعد تقدير .

---

(١) المجلد : ١ A D ص ١٩٦ . (٢) تاريخ الأدب العربي ص ١٨٩ .

(٣) شعراء النصرانية : ٤٣٩ . (٤) دراسات في الأدب العربي : ١٤٠ .

(٥) انظر A literary History of the Arabs P . 37 - 49

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية : ١/٨٢ .

وكان مقتل عدي بدء نهاية النعمان بن المنذر ، وسبباً بعيداً من أسباب وقعة ذي قار الشهيرة في حياة العرب الجاهلية التي انتصف فيها العرب من العجم .

ذلك أن النعمان ندم على قتل عدي ، وأحس أنه خدع في أمره ، فأحب أن يكفّر عن خطيئته ، فعمل على إثبات زيد ابن عدي مكان أبيه لدى كسرى .

ولكن زيداً لم ينس دم أبيه المطلول ، فراح يعمل بهدوء وخفاء على الكيد للنعمان حتى أوقعه في غضب كسرى ،فاستدعاه إلى المدائن ، وأحس النعمان أن كسرى يضمر له السوء ، فحمل سلاحه وما قوي عليه ، وطاف على قبائل العرب لاجئاً مستجيراً، فلم يقبله أحد ؛ إذ لا طاقة لهم بكسرى ، حتى نزل بذي قار في بني شيبان ، واستجار بهانيء بن مسعود الشيباني فأجاره،ولكنه نصحه ألا يرضى أن يكون بعد الملك سُوقة يتجرع الذل ، فقبل نصيحته ، وتوجّه إلى كسرى ، حتى إذا وصل المدائن لقيه زيد ابن عدي فابتدره قائلاً : « انج نُعَيْم ، إن استطعتَ النَّجاء، فقال له : أفعلتَها يا زيد ! أما والله ، لئن عشت لك لأقتلنَّك قِتْلةً لم يُقْتَلْها عربي قط ولألحقنَّك بأبيك ، فقال له زيد :

امض لشأنك نُعَيم ، فقد والله أَخَيَّتُ لك أَخِيَّةً [١] لا يقطعها المهر الأرِن [٢] . فلما بلغ كسرى أنه بالباب بعث إليه ، فقيَّده وبعث به إلى سجن كان له بخانقين ، فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات فيه . وقال ابن الكلبي : ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطئته حتى مات . وغضبت له العرب حينئذ ، وكان قتله سبب وقعة ذي قار [٣] .

★ ★ ★

---

(١) الأخية : عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشدّ إليه الدابة .

(٢) الأرن : النشيط .

(٣) انظر تفاصيل كيد زيد بن عدي للنعمان عند كسرى ، واستجارة النعمان بسادات العرب وتسليمه نفسه ، في الأغاني ٢/١٢٢ ومابعدها.

الباب الثاني

عدي الشاعر

الفصل الأول

رواية شعره وتدوينه

١

تمهيد :

يرجع الاهتمام بتدوين شعر عدي إلى أواخر القرن الثاني، إذ اختار له المفضل الضبي قصيدتين من أجود شعره نجدهما بين المختارات التي جمعها أبو الحسن الأخفش الأصغر للمفضل والأصمعي بين دفتي كتاب (الاختيارين ، اختيار المفضل الضبي والأصمعي من أشعار فصحاء العرب في الجاهلية والإسلام) .

وحفظت كتب القرنين الثالث والرابع طائفة كبيرة من شعره وأخباره مروية بأسانيد متصلة إلى نفر من أعلام الرواية في تلك الفترة كمحمد بن السائب الكلبي والمفضل الضبي وابن الأعرابي وابن حبيب .

وقد لقي شعر عدي قبل ذلك من أهل الحيرة عناية كبيرة،

وفي ذلك يقول الجاحظ :[١] « ولأهل الحيرة بشعره عناية . وقال أبو زيد النحوي : لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد » .

وعلى الرغم من الموقف السلبي الذي وقفه بعض العلماء الرواة من شعره ، « لأن ألفاظه ليست بنجدية »[٢] ، فقد طارت لشعره شهرة عظيمة في الحواضر العربية منذ أوائل العصر الإسلامي ، واحتفلت بشعره مختلف الأوساط الاجتماعية ، كأوساط الشعراء ، والعلماء والوعّاظ والأدباء ، ومجالس الخلفاء ، وأوساط المغنين الذين كانوا يجدون في شعره مادة غنائية خصبة ، ودلّت هذه الشهرة على سيرورة شعر عدي وشهرته البالغة ، وتذوق الناس له على اختلاف منازلهم ورتبهم . وسنبسط القول في ذلك عند حديثنا عن شعره والقدماء[٣] .

وصنع ديوانه في القرن الثالث ، وتداولته أيدي العلماء من المؤلفين ، فأدخلوا غير قليل من شعره في كتب الأدب واللغة والاختيار والتراجم . ومن ثَم حفلت كتب القرنين الثالث والرابع بشعره .

وسنعرض فيما يلي للجهود التي بذلت ، على ممر القرون ،

(١) الحيوان ١٤٩/٧ .
(٢) انظر فحولة الشعراء : ١٩ والشعر والشعراء ١٨١ .
(٣) انظر شعره والقدماء : ١٧٠ .

في تدوين شعر عدي ، مبتدئين بديوانه أولاً ، ثم بكتب الاختيار، فكتب الأدب واللغة ، فكتب التراجم والطبقات ، مبينين قيمة هذه الجهود في حفظ شعر عدي من التبعثر والتداخل والضياع .

٢

ديوان عدي :

تشير المصادر إلى أن ديوان عدي ظل متداولاً بين أيدي العلماء حتى أواخر القرن الحادي عشر ، فقد ورد ذكره في عدد من كتب الأدب واللغة لمؤلفي القرن الحادي عشر وما قبله . وأشارت هذه الكتب إلى أنه صنع صنعتين · إحداهما لابن الاعرابي، والثانية لأبي سعيد السكري . وإليك بيان ذلك :

١ ـ صنعة ابن الاعرابي :

أشار أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر (ـ ٣١٥) في شرحه للاختيارين اختيار المفضل الضبي والأصمعي [1] إلى هذه الصنعة ، إذ نقل شرح ابن الاعرابي للبيت الأول من رائية عدي:

أَرَواحٌ مُـوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ
لكَ ؟ فَاعْمِدْ لِأَيِّ حالٍ تَصيرُ

(١) كتاب الاختيارين : ٣٢٤ .

ويترجح لديّ من هذه الاشارة أن مؤلف الاختيارين قد نقل من ديوان عدي بشرح ابن الاعرابي مباشرة .

وأصرح من هذه الاشارة ما ذكره الفيّومي (ـ ٧٧٠) في آخر خاتمة كتابه « المصباح المنير » أثناء تعداده المصادر التي اعتمد عليها في تأليف « المصباح » قال : « ومن كتب التفسير والنحو ودواوين الأشعار عن الأئمة المشهورين المأخوذ بأقوالهم ، الموقوف عند نصوصهم وآرائهم مثل ابن الاعرابي وابن جني ، وغيرهما ، وسميته غالباً في مواضعه حيث يبنى عليه حكم » .

وقال في مادة (أمم) : « وقال ابن الاعرابي في شرح ديوان عدي بن زيد العبادي : الأمّة بالفتح : الشَّجّة ، أي مقصوراً ، والأمّة بالكسر : النعمة ، والأمّة بالضم : العامة والجمع فيها جميعاً : أمم لا غير » . فهذا صريح أنه كان لديه نسخة من الشرح المذكور .

وابن الأعرابي هو ابو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (١٥٠ ـ ٢٣١) ، العالم الراوية الكوفي الثقة ، وهو تلميذ المفضل الضبي وربيبه ، « سمع منه الدواوين وصححها [١] » ، وهو الذي روى عن شيخه أصح رواية للمفضليات . قال ابن النديم [٢] :

---

(١) نزهة الألباء : ١٠٦ . والارشاد لياقوت ١٨/١٩٠ (٢) الفهرست : ١٠٢

« وهي مئة وثمان وعشرون قصيدة .. والصحيحة التي رواها ابن الأعرابي » .

٢ - صنعة السكري :

أما صنعة السكري فقد أشار إليها صاحب الفهرست[١] (- ٣٨٥) إذ ذكر عدياً في جملة الشعراء الذين جمع دواوينهم أبو سعيد السكري (٢١٢ - ٢٧٥) وجماعة لم يسمِّ أحداً منهم .

والسكري هو أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ، الراوية العالم الذي جمع بين الروايتين البصرية والكوفية[٢] ، وعرف بكثرة التحري والاستيعاب ، وكان ثقة صدوقاً ، وقد قالوا عنه : إنه « الراوية الثقة المكثر[٣] » .

وما خلا هاتين الصنعتين لم تذكر المصادر ، فيما علمت ، أصلاً آخر لديوان عدي . غير أن الذي نستظهره من النقول أن نسخاً عديدة من ديوانه ظلت تتداولها أيدي العلماء ، وتحتويها خزائن الكتب العامة والخاصة حتى نهاية القرن الحادي عشر .

ففي رسالة الغفران يشير أبو العلاء (- ٤٤٩) إلى أن ديوان

---

(١) الفهرست : ٢٢٤ . (٢) المصدر السابق : ١١٧ .
(٣) الارشاد ٨/٩٤ .

عدي كان موجوداً في أكثر من مكتبة من مكتبات عصره فيقول[١] : « وكنت بمدينة السلام ، فشاهدت بعض الورّاقين يسأل عن قافية عدي بن زيد التي أولها :

بَكَرَ العاذِلاتُ في غَلَسِ الصُّبْحِ يُعاتِبْنَهُ أما تَسْتَفيقُ ؟
ودَعا بالصَّبوحِ فَجْراً فجاءَتْ قَيْنَةٌ في يَمينِها إبْريقُ

وزعم الورّاق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة، وطلبت في نسخ من ديوان عدي فلم توجد . ثم سمعتُ بعد ذلك رجلاً من أهل استراباذ يقرأ هذه القافية في ديوان العبادي ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم » .

ويذكر ابن الشجري (ـ ٥٤٢) في أماليه[٢] أنه تصفح نسختين من ديوان عدي محققاً في نسبة بيت من شواهد سيبويه فيقول : « وتصفحت نسختين من ديوان عدي فلم أجد فيهما هذه المقطوعة » .

وينص ابن خير الإشبيلي (ـ ٥٧٥) في فهرسته[٣] على أن أبا علي القالي قرأ شعر عدي بن زيد تاماً في جزء على أبي بكر

---

(١) رسالة الغفران ٢٢ . (٢) أمالي ابن الشجري : ١/٧٣ .
(٣) فهرست ابن خير : ٣٩٦ .

ابن دريد . ويضيف أن أبا علي القالي (- ٣٥٦) دخل الأندلس ، ومعه نسخة تامة من ديوان عدي بن زيد .

وفي خزانة الأدب للبغدادي (- ١٠٩٣) أن المؤلف تصفح ديوان عدي بن زيد مرتين محققاً في نسبة بيت من شواهد سيبويه ، نسبه الشراح خطأ إلى عدي . يقول [١] : « وقد تصفحت ديوان عدي بن زيد مرتين فلم أجده فيه » .

هذه هي الاشارات التي وقفت عليها ، وكلها تثبت أن الديوان ظل موجوداً في خزائن الكتب العامة والخاصة حتى أواخر القرن الحادي عشر .

ولكن الأيام عدت على هذا الديوان ، فلم تبق ، فيما علمت ، على نسخة منه ، على كثرة النسخ التي وجدت منه في مكتبات العالم الإسلامي قروناً طويلة .

هذا ، وكتب إليّ العالم الأديب الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار من مكة المكرمة في رجب عام ١٣٨٣ يقول : إن ديوان عدي بن زيد كان إلى سنوات خلت في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ، وإنه نقل منه بخطه أبياتاً ، ولا يدري أهو موجود حتى الآن ، أم فقد مع ما فقد .

---

(١) خزانة الأدب : ٢/٢٠ ، ٢١ .

وشددت الرحال إلى المدينة المنورة ، وبحثت عن الديوان المذكور في مكتبة شيخ الإسلام ومكتبة المحمودية وغيرهما من مكتبات المدينة المنورة فلم أعثر عليه .

واتصلت بمن أعرف من العلماء والأدباء من ذوي الخبرة والإطلاع ، وكتبت إلى عدد من الأساتذة الأعلام في شتى الأقطار العربية والإسلامية ، أسألهم عن ديوان عدي ، وتتبعته في فهارس الخزائن العامة ، فلم يتيسر لي الوقوف على نسخة مخطوطة منه .

حتى إذا كان عام ١٩٦٥ كتب لهذا الديوان الظهور من أصل مخطوط في المكتبة العباسية بالبصرة ، على يد وزارة الثقافة والارشاد العراقية ، بتحقيق محمد جبار المعيبد ، ففي هذه المكتبة مجموعة شعرية ، كتب على جلدها الخارجي بخط حديث (جمهرة العرب في الأدب ، لأبي بكر بن دريد ، عليه الرحمة)، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٧٢ هـ . وقد ضمت هذه المجموعة الشعرية المنسوخة حديثاً سبعة دواوين لأصحاب المعلقات الذين بدأ بهم أبو زيد القرشي جمهرته ، وديوانين لشاعرين من أصحاب المجمهرات هما (بشر بن أبي خازم) و (عدي بن زيد العبادي) ، ثم يذكر

المؤلف بعد هذه الدواوين التسعة ثلاثة من أصحاب المجمهرات ، وسبعة من أصحاب المنتقيات ، ومثلهم من أصحاب المذهبات ، ويلي ذلك عشرة من أصحاب المراثي ، خلط بينهم وبين أصحاب المشوبات ، وأتبع ذلك بسبعة من أصحاب الملحمات ، ثم ثلاث معلقات ، وتنتهي المجموعة بلامية العرب للشنفرى . وعلى هذا فترتيب ديوان عدي في هذه المجموعة التاسع ، ويقع في اثنتين وعشرين صفحة [١] .

وواضح أن هذا الأصل المخطوط لم يعد أن يكون مجموعة حديثة من شعر عدي ، ضمها ناسخ جمهرة الأدب إلى هذا المجموع الشعري ، فلقد ذكر في أول المخطوط وآخره عبارة (كتبها صالح بن عطية لمحسن بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد النبي الذهبي العربي) [٢] .

فهي إذاً نسخة حديثة جداً ، وليست نسخة وثيقة الصلة بالنسخة الأم ؛ ذلك أنها غفل من ذكر رواة شعر عدي ، والأصل الذي نقلت عنه ، زد على ذلك أنها لم تستوفِ كل ما وقع لدينا من شعر عدي ، وأثبتته المصادر الأدبية الموثوقة .

وعسى أن تكشف الأيام عن نسخة أصل من ديوان عدي

(١) عن مقدمة ديوان عدي بن زيد العبادي : ٢٣ بتصرف .
(٢) المصدر نفسه : ٢٢ .

تتمم ما عراه من نقص ، وتملأ ما فيه من فجوات .

أما المصادر الأدبية الموثّقة التي كان لها الفضل الأكبر في حفظ شعر عدي من الضياع والتبعثر والتداخل ، فقدصنَّفتُها في ثلاث مجموعات : كتب الاختيار ، فكتب الأدب واللغة ، فكتب التراجم والطبقات ، واقتصرت على ذكر أصلها وأكثرها احتفالاً بشعر عدي .

وفيما يلي عرض لأهم هذه المصادر التي اعتنت بشعر عدي وفق ترتيبها التاريخي .

٣

شعره في كتب الاختيار :

وكتب الاختيار من أهم مصادر الشعر القديم بعد الدواوين، وقد حفظت لنا طائفة كبيرة من شعر عدي . وسأقتصر على ذكر ستة منها ، هي أصلها وأكثرها احتفالاً بشعره ، وهي: الخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ، وحماسة البحتري ، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، وكتاب الاختيارين ، اختيار المفضل الضبي والأصمعي لأبي الحسن الأخفش والحماسة البصرية لأبي الحسن البصري .

١ - الخيل :

من أقدم كتب الاختيار التي عنيت بشعر عدي كتاب الخيل ، لمؤلفه الراوية العالم البصري ، أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩) وقد روى لعدي أبياتاً من القصائد [١] : (٤ ، ١٢ ، ٩٣) ، كما أورد المقطعة (١١٨) ولهذا الكتاب بين مصادر شعر عدي منزلة هامة ، فهو ، من جهة يعد من أصلها باعتباره من كتب القرن الثالث ، ومن جهة ثانية حفظ لنا أبياتاً من شعره لم ترد في غيره من المصادر .

٢ - المعاني الكبير :

ومن أهم مصادر شعر عدي كتاب المعاني الكبير ، ومؤلفه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦) الإمام العالم اللغوي الأديب . وقد قسم كتابه إلى أجزاء بحسب موضوعاتها ، وأورد ما قيل فيها من أشعار . ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي جمعت أكثر أبيات المعاني منسقّة في أجزاء ، مرتبة مشروحة المعاني مفسرة الألفاظ . وقيمة هذا الكتاب الكبرى في مصادر عدي أنه من كتب القرن الثالث ، ومؤلفه من الأئمة الذين يستند إلى أقوالهم ونقولهم في اللغة والغريب من جهة ، وأنه

(١) الاحالة على أرقام قصائد ومقطعات الديوان المطبوع .

حفظ لنا طائفة كبيرة من شعر عدي لم تروِها الكتب الأخرى، وهي إن روت بعضها أتت بها غير مفسرة تفسيراً واضحاً كما في هذا الكتاب . وقد أورد من شعر عدي أبياتاً من القصائد : (٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١٢٥)، والمقطعة : (١٤٢) .

٣ ـ حماسة البحتري :

وتمتاز بأنها من صنع شاعر كبير مرهف الذوق، يعرف كيف يميز غث الشعر من سمينه ، ويختار الأبيات الجميلة ، كما تمتاز بأنها جمعت بين دفتيها مختارات لأكثر من ستمئة شاعر جلهم من الجاهلية وصدر الاسلام ، صنفها مؤلفها في أربعةوسبعين ومئة باب مقتضب ، صارفاً عنايته إلى المعاني الجزئية دون الأغراض الرئيسية وقد أورد البحتري في حماسته لعدي المقطعتين: (٢٤ ، ٤٠) وأبياتاً من القصائد : (٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٩٢ ، ١١٩، ١٢٥ ، ١٣٨) .

والبحتري يختار في حماسته ما يتذوقه ، دونما عناية بالأسانيد أو المصادر التي استمد منها ما اختاره . ومختاراته لعدي تدل على شهرة شعره ، وتداوله في أوساط الأدباء في القرن الثالث .

٤ - جمهرة أشعار العرب :

وهي من المجموعات الشعرية القديمة ، ومؤلفها الراوية المغمور أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي الذي عاش حتى أوائل القرن الرابع ، وتحتوي على تسع وأربعين قصيدة مطولة من عيون شعر الجاهلية وصدر الاسلام ، وزعها المؤلف في سبع فئات متكافئة، كل فئة منها تضم سبع قصائد ، وهذه الفئات هي : المعلقات ، المجمهرات ، المنتقيات ، المذهبات ، المراثي ، المشوبات ، الملحمات.

وقد روى بين مجمهراته قصيدة عدي الدالية (٢٣). وأهمية هذا الكتاب بين مصادر شعر عدي في حفظه هذه القصيدة كاملة، وهي من عيون شعره .

٥ - كتاب الاختيارين :

وهذا الكتاب من أهم المصادر التي حفظت لنا شعر عدي ، وهو من اختيار الراويين العالمين : المفضل الضبي (ت ١٦٨) والأصمعي (ت ٢١٥) ، وقد ضمت طائفة كبيرة من أشعار فصحاء العرب في الجاهلية والاسلام ، جمعها أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر (ت ٣١٥) وفسّرها . وقد حفظ هذا الكتاب القيم لنا من شعر عدي القصيدتين : (١٦ ، ١١٩) ، وهما من كريم شعر عدي ومتخيره .

وأهمية هذا الكتاب بين مصادر عدي ترجع إلى حفظهاتين القصيدتين ، وإلى أنه من اختيار شيخي الرواية الكبيرين الموثوقين: المفضل الضبي والأصمعي .

٦ - الحماسة البصرية :

ومن مصادر شعر عدي الحماسة البصرية لأبي الحسن علي ابن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٦) ، وهي في اثني عشر باباً .

ويبدو أنه انتقى مادة كتابه من عدد وفير من كتب الأدب والاختيار ودواوين الشعراء ، وما حواه من كريم الشعر وجيّده يشهد أن مصادره كانت من الأصول الجياد .

وقد روى مؤلفها لعدي المقطعة (١٥) وأبياتاً من القصائد : (١٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٩) . وأهمية هذا الكتاب بين مصادر شعر عدي أنه حفظ لنا قدراً صالحاً من شعره ، ودل على اهتمام الأدباء والمؤلفين بشعر عدي في القرن السابع .

٤

شعره في كتب الأدب واللغة :

اهتمت كتب الأدب واللغة برواية شعر عدي ، فروت له

قسماً كبيراً منه . وسأتحدث عن كتب الأدب التي اعتنت برواية شعره ، فكتب اللغة .

وسأخص بحديثي عن كتب الأدب أربعة منها ، هي آصلها وأكثرها اهتماماً بشعره ، وهي الحيوان للجاحظ ، وشرح مقصورة ابن دريد للخطيب التبريزي ، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وأمالي ابن الشجري .

١ - الحيوان :

أما كتاب الحيوان فقد أورد فيه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، العالم اللغوي الأديب (ت ٢٥٥) لعدي أبياتاً من القصيدتين : (٢٣ ، ١٠٣) . وقيمة هذا الكتاب بين مصادر عدي أنه حفظ له أبياتاً لم ترد في غيره من المصادر ، هذا إلى أنه من كتب القرن الثالث .

٢ - شرح مقصورة ابن دريد :

وثاني هذه الكتب شرح مقصورة ابن دريد للعلامة الخطيب التبريزي (ت ٣٢١) وقيمته بين مصادر شعر عدي أنه روى له قصيدة من أشهر قصائده ، وهي القصيدة (١٣٨) ولم ترو كاملة في مصدر آخر ، ودلّل أيضاً على احتفال العلماء في القرن الرابع

بشعر عدي واستشهادهم به في مؤلفاتهم .

٣ - رسالة الغفران :

وثالث هذه الكتب رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، العالم الأديب الناقد (ت ٤٤٩) ، فقد أورد لعدي فيها قصيدته الصادية الرائمة (١١) والقصيدة (٩٣) وأبياتاً من القصائد : (١٦ ، ٤٥ ، ١٢٥) . وأهمية هذا الكتاب بين مصادر شاعرنا أنه أورد قصيدتين كاملتين من أجود شعره ، في حين لم ترو المصادر الأخرى منهما سوى أبيات متفرقات معدودات ، وأنه ، بما تضمن من آراء وتعليقات لأبي العلاء تشيد بشعر عدي وسبقه يدل على اهتمام واعجاب الأدباء والمؤلفين بشعره في القرن الخامس.

٤ - أمالي ابن الشجري :

ورابع هذه الكتب أمالي ابن الشجري لأبي السعادات هبة الله بن علي العلوي الحسني البغدادي النحوي اللغوي بابن الشجري (ت ٥٤٢) ، فقد أورد له في أماليه أبياتاً من القصائد : (٥ ، ١٦ ، ٢٣ ، ١٢٥) . وترجع أهمية هذا الكتاب الذي أملي على طلاب العلم إلى أنه يدل على مدارسة شعر عدي في مجالس العلم وحلقات العلماء في القرن السادس .

أما معاجم اللغة فقد حفل معظمها بشعر عدي ، فلم يكد يخلو معجم منها من أبيات من شعره ساقها مؤلفوها شواهد على أبحاثهم اللغوية المختلفة ، ومن أهم المعاجم التي استشهد أصحابها بشعر عدي : الألفاظ لابن السكيت (ت ٢٤٤) ، وجمهرة ابن دريد (ت ٣٢١) والصحاح للجوهري (ت ٣٩٣) ومقاييس اللغة لابن فارس (ت ٣٩٥) والمحكم والمخصص لابن سيده (ت ٤٥٨) وأساس البلاغة للزمخشري (ت ٥٣٨) ، ولسان العرب لابن منظور (ت ٧١١) . وتاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥) .

على أن أكثر هذه المعاجم احتفالاً وأكثرها استشهاداً بشعر عدي : تاج العروس ولسان العرب ، فقد تضمنا نحوا من ثلاثمائة بيت من شعره .

٥

شعره في كتب التراجم والطبقات :

وهذه الكتب أيضاً من أهم مصادر الشعر العربي القديم ، وقد عني بعضها بشاعرنا فذكر له عدداً من غرر قصائده . وسنقتصر في حديثنا عن شعره فيها على ثلاثة كتب ، هي أهمها وأقدمها وأكثرها احتفالاً بشعره وأخباره ، وهي : طبقات فحول

الشعراء لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

١ - طبقات فحول الشعراء :

أما طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام بن عبد الله الجمحي ، العالم الراوية الناقد الاخباري المعروف (ت ٢٠١) ، فهو من أقدم الكتب التي وصلتنا في تراجم الشعراء . وقد ذكر ابن سلام عدياً في الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية الفحول ، وذكر له أربعاً من قصائده ، وصفها بأنها غرر روائع مبرزات ، وهي القصائد : (٥ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٩٢) ثم أردف قائلاً : « وله بعدهن شعر حسن [(١)] ».

وقيمة هذا الكتاب بين مصادر شعر عدي كبيرة جداً ، لأنه أقدم ما وصلنا من كتب تراجم الشعراء من جهة ، ومن جهة ثانية لأن مؤلفه ابن سلام معروف بميله إلى الشك في كثير مما نسب إلى الشعراء الجاهليين ، وقد شك في كثير مما نسب إلى عدي فقال [(١)] : « وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف الأحمر ، وخلّط فيه المفضّل فأكثر » . فاثباته هذه القصائد الأربع الغرر لعدي ، مع شعر

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١١٥ .

حسن بعدهن ، توثيق لقدر صالح لا يستهان به من شعره .

٢ - الشعر والشعراء :

وأما الشعر والشعراء لمؤلفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦) ، فهو أيضاً من أقدم الكتب العربية التي نعرفها في تراجم الشعراء ، وقد ذكر أيضاً لعدي أربعاً من قصائده وصفها بالغرر ، وهي القصائد : (٥ ، ٩ ، ١٦ ، ٢٣) ، وأبياتاً من القصائد : (٤ ، ١١ ، ١٧ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ١٣٨) وقيمة هذا الكتاب بين مصادر شاعرنا أنه من كتب القرن الثالث ، ومؤلفه من العلماء الثقات الذين يطمئن الباحث إلى نقلهم وتدوينهم وقد حفظ طائفة صالحة من أجود شعر عدي .

٣ - الأغاني :

وأما كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦) ، فهو من أكبر المصادر التي اتسمت لرواية شعر عدي ، ومن أكثرها احتفالاً به واختياراً له . فلقد أورد أبو الفرج له قدراً كبيراً من شعره ، فروى له المقطعات : (١٥ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١٤١) وأبياتاً من القصائد : (٣ ، ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٧٣ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٨) .

وأهمية كتاب الأغاني بين مصادر عـدي أنه من أغنى الموسوعات الأدبية القديمة ، وأوسع المصادر في تراجـم شعـراء العربية حتى نهاية القرن الثالث . فلقد استقطر مؤلفـه محتويات كثير من المؤلفات التي أُلفت قبله ثم عدت عليها عوادي الزمن فلم تصلنا ، فصان لنا بذلك الثمين من التراث العـربي الذي كان سيضيع بضياع المصنفات التي صدر عنها . ولولا هـذا الكتاب الثمين لما وقفنا على هذا القدر الكبير من شعر عدي وأخباره . يضاف إلى هذا أيضاً أن مؤلفه يسوق ما يروي من أشعار وأخبار بأسانيد متصلة إلى أئمة الرواية في القرن الثالث ، فيدلنـا بذلك على من نهض من الرواة برواية شعر عدي وتدوينه . والكتاب بعد هذا كله يصور أوضح تصوير الشهرة التي بلغها شعر عـدي في القرن الرابع ، فيحدثك عن اقبال المغنين على تلحينه والتغني به، وعن إنشاده في المجالس والأوساط الاجتماعية المختلفة .

هذه هي المعالم الرئيسية للجهود التي بذلها العلماء والرواة على ممر القرون لحفظ شعر عدي وتدوينه ، وهي كما تبدو من خلال العرض السابق جهود خصبة ، استطاعت أن تحفظ لنا قدراً كبيراً من شعره .

وقد بدا لنا من خلال هـذا العرض أيضاً مـدى الاهتمام

الذي أصابه شعر عدي منذ أواخر القرن الثاني حتى القرون المتأخرة.

على أن أصل المصادر التي حفظت شعر عدي من التبعثر والضياع والتداخل بغيره، إنما هي كتب القرنين الثالث والرابع، وأما ما ظهر بعد ذلك من مصادر فهي تبع لأصول هذين القرنين، تصدر عنها في كثير من النقول.

وقد سبق أن ذكرت في مستهل حديثي عن ديوان عدي أن أبا سعيد السكري صانع ديوانه قد جمع بين الروايتين البصرية والكوفية، فلم يتقيد بمدرسة دون أخرى، بل كان يأخذ ما صح عنده من المدرستين، مرجحاً كفة هؤلاء تارة وكفة هؤلاء تارة أخرى، فكان له بذلك طريقته المتميزة في الجمع بين الروايات المختلفة والنص عليها، والحرص الشديد على ألاّ تضيع معالم كل رواية، وألاّ تختلط بغيرها [1].

ولا ريب أن مؤلفي كتب الأدب والاختيار والطبقات الذين جاءوا بعد ذلك قد أفادوا من هذه الروايات والجهود التي بذلت في تحقيقها جميعاً، وأدخلوا في كتبهم ما تخيّروه من شعر عدي.

وعلى الرغم من هذه الجهود العظيمة التي بذلت فان الظاهر

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي: ٥٦٥، ٥٦٨ حول دقة السكري في جمع الدواوين.

أن طرفاً كبيراً من شعر عدي قد أصابه الضياع ، يدلنا على ذلك الأبيات المتفرقة التي انتثرت هنا وهناك ، وبقيت شاهداً على القصائد التي انتزعت من اصلابها ، ويدلنا على ذلك أيضاً مطالع قصائد تشير المصادر إلى أنها مطالع لقصائد طويلة ، ولكن لم يبق من هذه القصائد إلا هذه المطالع ، أو أبيات معدودات (١) .

٦

الشك في رواية بعض أشعاره :

لا يستطيع الباحث ، رغم الجهود العظيمة التي بذلت على ممر القرون في تدوين شعر عدي ، أن يطمئن إلى أن كل ماوصلنا من شعره مبرأ من كل شبهة ، بعيد عن كل ريبة ، صحيح النسبة لعدي ، لا يرقى إلى بعضه الشك . فالمعروف أن سحباً من الشك ظهرت حول شعر عدي في القديم والحديث .

فلقد شك من القدماء في شعره ابن سلام حين قال (٢) : « وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد ،

(١) انظر الأغاني : ٢/١١١ ، ١١٤ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ وشرح مقصورة ابن دريد ورقة ١١٧ ب .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ١١٧ .

واضطرب فيه خلف الأحمر ، وخلّط فيه المفضّل فأكثر ، وله أربع قصائد غرر روائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن » .

وتابعه على شكه الجاحظ أيضاً فقال [١] : « إنه أحد من حمل على شعره الحمل الكثير ، ولأهل الحيرة بشعره عناية ... » .

ونفهم من قول ابن سلام أن الحمل على شعر عدي قديم ، غمّ على إمامين من أئمة الرواية هما خلف الأحمر والمفضل الضبي ، فزيّف عليهما الكثير من شعره فلم يتنبها إليه ، لرقة لسان عدي وسهولة منطقه . على أن ابن سلام أثبت له أربعاً من غرر قصائده ، هي : (٥ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٩٢) ، وشعراً حسناً بعدهن لم يحدده بقـدر .

وتنشط حركة التدوين في مطلع القـرن الثالث ، ويصنع ديوان عدي صنعتين ، إحداهما لابن الأعرابي ، والثانية لأبي سعيد السكري ، كما بيّنا آنفاً ، ويتلقّفه العلماء والأدباء الذين جاءوا بعد ذلك ويضمّنون كتبهم الشيء الكثير من شعـره ، وتحتفظ مختلف المصادر بعدد كبير من قصائده ومقطعاته كاملة منسوبة إلى عدي قروناً طويلة ، دون أن يعترض على نسبتها إليه عالم راوية ، أو يقدح في صحتها ناقد بصير .

(١) الحيوان ٧/١٤٩ .

وهذا يدل على أحد شيئين :

الأول : أن شعر عدي قد صفّي عند التدوين على يد ابن الأعرابي وأبي سعيد السكري ، إذ كان لكل منهما منهجه الدقيق الحر في تصحيح رواية الشعر الذي يتلقاه ، ونفي ما حمل عليه وأدخل فيه من زيف [١] .

الثاني : أن الذي حمل على شعر عدي وغمّ على المفضل وخلف لصعوبة تخليصه ، كما يقول ابن سلام ، بقي خافياً عصيّاً على من جاء بعدهما من العلماء الرواة ، وذهب في الناس على أنه شعر عدي ، ولذلك لم يعترض أحد بعد التدوين على نسبته إليه.

ومن المؤكد أن حركة التدوين استفادت من عناية أهل الحيرة بشعر عدي التي أشار اليها الجاحظ : فلقد ظل العباد يتغنون بشعر عدي قرناً ونصف قرن بعد وفاته [٢] ، ومن ثم تسربت رواية شعر عدي إلى الكوفة لقربها من الحيرة .

ولا يبعد أن يكون شعره مدوناً عند أهل الحيرة محفوظاً في ذلك الحين ، فابن الكلبي يقول [٣] : « إني كنت أستخرج

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي : ٤٨٧ ، ٥٠٥ ، وإنباه الرواة ١/١٤٨ .
(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/١٢٥ .
(٣) الطبري ٢/٣٧ .

أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى ، وتأريخ سنيهم من بِيَع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها » .

ولقد بلغ عدي من الشهرة والنفوذ في الحيرة مالا يبعد معه أن يسجل أهل الحيرة شعره ويقبلون على روايته وإنشاده والتغني به في مجالسهم ، وفي ذلك حفظ له من الضياع والتلف والاختلاط .

أما شك المحدثين في شعره فنجده عند الدكتور طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » (١) إذ رأى أن العصبية العربية التي حملت العرب على أن ينحلوا أسلافهم الشعر قابلتها عصبية دينية من اليهود والنصارى ، فنظموا أشعاراً أضافوها إلى ابن عادياء وإلى عدى بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى ، ورأى أيضاً أن سهولة شعر عدي ليست من عنده ، وإنما هي من اسلوب النصارى الذين وضعوا على لسانه شعراً نحلوه إياه .

ولست في صدد الرد على دواعي شك الدكتور طه حسين. وحسبي أن أقول : إن العصبية الدينية لا تنهض دليلاً على نحل النصارى شعراً لعدي في تلك الفترة ، كما أن السهولة أو الرقة

(١) الأدب الجاهلي : ١٦٨ ، ١٦٩

في شعره ليست حجة على زيف شعره بل يمكن أن ترد إلى بيئته الحضرية وطبيعته الفنية وثقافته العقلية من جهة، وإلى الموضوعات التي طرقها، كالمواعظ والغزل ووصف الخمر من جهة أخرى، وكلها موضوعات تتطلب الرقة والسهولة .

هذه هي سحب الشك التي أحاطت بشعر عدي في القديم والحديث، وهي لم تظلِّل شعراً بذاته أو تلابس شاهداً بعينه، وإنما ظهرت حول بعض شعر عدي دونما تخصيص ولا تحديد .

على أن الباحث المتأمل ما حفظته لنا المصادر من شعر عدي لا يسعه قبول كل ما ورد فيها، بل إن الشك ليخالجه في كثير مما نسبته إليه هذه المصادر .

ومما تحوم حوله سحب الشك الأبيات المفردة التي روتها بعض المصادر ولم نعثر لها على أصل نلحقها به، وما لاحت عليه أمارات الوضع والنحل .

ومن هذه الأبيات :

نُرقِّعُ دُنْيانا بِتَمْزيقِ دِينِنا فلا دِينُنا يَبْقى ولا ما نُرقِّعُ

فالمسحة الصوفية ظاهرة على البيت، وهي دليل واضح على وضعه .

ومن هذه الأبيات ما اضطربت أقوال الرواة في نسبتها ، ومثال ذلك قوله :

وأصفرَ مَضْبوحٍ نظـرتُ حَوِيرَهُ
على النَّارِ واستَوْدَعْتُهُ كفَّ مُجْمِدِ

فقد اختلف الرواة في نسبة هذا البيت ، فمنهم من عزاه لعدي ، ومنهم من صرفه لطرفة .

ومن الأبيات التي يحوم حولها الشك أبيات المقطعة (٢٨)، وأولها :

هلا بكيتَ على الشَّبابِ الذاهبِ
وكففتَ عن ذمِّ المَشيبِ الآئبِ

فان أبا الفرج يقول فيها (١) : إنها أبيات غناها حنين في منزل سكينة بنت الحسين ، وينسبها بصيغة المجهول لعدي ، وعبارته في هذا الشعر : « ويقال : إنه لعدي بن زيد . وقيل : إن بعضه له ، وقد أضافه المغنون إليه » .

ولا يخفى ما في هذه النسبة من ضعف ومن شك .

ومما لا يمكن قبوله عارياً عن الشك أيضاً قصيدتاه في منشأ

(١) الأغاني ٢/٣٥٧ .

الخلق ، وقصة خلق آدم وحواء وهبوطهما من الجنة ؛ فأسلوبهما لا يرقى إلى أسلوب عدي في قصائده الأخرى ؛ ذلك أن فيهما من ضعف الصياغة ، ومن ضرورات النحو والعروض ما يحملنا على الشك في نسبتهما إليه ، ويجعلنا نظن أنهما حملتا عليه .

ومما يقوي لدينا هذا الظن أن قصيدته في هبوط آدم من الجنة لم ترد في غير كتاب « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » للويس شيخو نقلاً عن كتاب « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي » للعصامي المتوفى سنة ١١١١ هـ . أما قصيدته الأخرى في منشأ الخلق فقد انفرد المقدسي برواية أبيات منها هي : ١ ـ ٧ في كتابه البدء والتاريخ ، وانفرد الجاحظ في كتابه الحيوان برواية الأبيات : ٧ ـ ١٨ ، ولعلها مما حمل على عدي من قديم ، وغمّ على المتقدمين .

ويخلص لنا ، مما تقدم ، أنه لا يسع الباحث المدقق إلا أن يقف من شعر عدي موقف الاحتراس والتحفظ ، لأنه أتانا من طريق الحيرة والكوفة ، ومن طريق نصارى الحيرة ، وهو طريق غير مأمون مزالق التزيد والوضع ، وزاد الأمرَ صعوبة فقدُ أصول ديوانه ؛ إذ استحال بذلك على الباحث النظر في روايات قصائده ووضعها موضع النقد والمناقشة .

وإذا كنا نقبل الكثير مما سلم لنا من شعر عدي ، ونحا فيه منحى يخالف الشعراء الجاهليين ؛ لأنه شاعر نصراني متحضر ، نشأ في بيئة تختلف عن بيئاتهم ، وتقلَّب في جو يختلف عن أجوائهم ، وحصل من الثقافه ما لم يتوفر لهم تحصيله ، فان هذا القبول يبقى مشفوعاً بكثير من الحذر ، وسيبقى هذا الحذر ملازماً لنا حتى يقوم الدليل القاطع الذي يرجّح جانب القبول أو الرفض .

★ ★ ★

الفصل الثاني

أغراضه الشعرية

تمهيد :

أول ما يطالعنا في شعر عدي الذي انتهى إلينا اختفاء الأغراض التقليدية من مدح وهجاء ورثاء ، وظهور أغراض جديدة ، أبرزها المواعظ ، والقص ، والإعتذار ، والإستعطاف ، ووصف الخمر ومجالسها .

ولم يقتصر عدي على هذه الفنون الشعرية ، بل طرق أيضاً باب الغزل ، ووصف السحاب والروض ، والفرس ، ومشاهد الصيد ومجالس اللهو والسمر والطرب ، وافتخر بشمائله وسجاياه، واستنجد بأهله وحرضهم على فكاكه من السجن ، وتغنى بالشباب متلهفاً على أيامه الوضيئة المليئة بالملذات ، ووصف الشيب وتجهمه .

لقد طرق عدي الشعر من أبواب مختلفة ، وولج فنونه من أطراف متعددة ، ولم يكتف بأن يسلك سبيل المتقدمين فيوقع ألحانهم فحسب ، بل شد إلى قيثارته أوتاراً جديدة ، فأسمعنا

نغمات ، فيها جمال القديم ، وطرافة الجديد .

وعلى كثرة الأغراض التي حفل بها شعر عدي ، نستطيع أن نتبين فيها اتجاهين واضحين : اتجاهاً جاداً رزيناً ، ويتمثل في اعتذاراته ومواعظه . واتجاهاً لاهياً مرحاً ، ويتمثل في غزله ، ووصفه لمشاهد الصيد والمرح ، ومجالس الخمر واللهو والطرب . ففي هذين الاتجاهين تتجلى شاعرية عدي ، وتبرز موهبته الفنية الخصبة .

والغالب على شعره الاتجاه الأول ، فلقد أفرغ فيه كل أحاسيسه النفسية ، ووهبه كل طاقاته العقلية والفنية ، فأودع فيه عصارة تفكيره ، وأفرد له كريم قصيده .

أما الأغراض الثانوية الأخرى فلم تستحوز على نفسه إلا بمقدار ، ولم تشغل من شعره إلا اليسير

وسنعرض في هذا الفصل لدراسة هذه الأغراض جميعاً ، ونبدأ بالأغراض التي تمثل الجانب الجادّ من حياته، ثم نتبعها بالأغراض التي تمثل الجانب اللاهي منها ، فالأغراض الثانوية الأخرى .

★ ★ ★

١

الاعتذار والاستعطاف :

لقد كان سجن عدي المصهر الذي ألهب قلبه ، وأذكى عواطفه ، وفجّر أنّات الألم والشكوى في حنايا نفسه ، التي هوت بعد صعود ، وتجرعت غصص المذلة والبؤس ، بعد العز والرفعة والنعيم .

كان عدي سيداً عزيزاً في قومه ، محبوباً من الناس ، موقراً ، وكان ذا مكانة عالية ونفوذ كبير في البلاطين : العربي في الحيرة ، والفارسي في المدائن ، حتى أنه كاد يصل إلى أمارة الحيرة ذات مرة ، لولا أن فضّل حياة الدعة والمرح والنعيم على حياة الحكم الحافلة بالشواغل والمتاعب والمؤامرات .

ورجل كعدي ، ترعرع في القصور ، وألف خفض العيش وغضارة النعيم ، عسير عليه جد عسير أن ينتقل من هذه الحياة العزيزة اللينة الناعمة إلى حياة السجن الذليلة القاسية الجابة القاتمة .

فلا بدع إذاً أن يلهب السجن مشاعره ، ويذكي أوار الحسرة في نفسه ، فتنثال على لسانه شعراً ، فيه إباء العزيز حط به الزمان ، وفيه شكاة المستغيث أهاضه العذاب الشديد .

ومن هذا الشعر الذي كان صدى خفق قلبه الجريح، ولواعج نفسه المكلومة، ما قاله في استعطاف النعمان والاعتذار إليه، والشكوى من السجن وما لاقى فيه.

يذكر أبو الفرج [١] أن أول ما قاله عدي من شعر، وهو في السجن، قصيدته اللاّمية:

لَيتَ شِعْري عن الهُمامِ ويأْ تيـ
ـكَ بِخُبْرِ الأَنْباءِ عَطْفُ السُّؤالِ

ويفتتحها بهذا التمني: (ليت شعري عن الهمام) كأنه يتمنى أن يعرف وقع صيحاته الشاكية اللائمة في نفس النعمان، ثم يسأل بحسرة وألم: أين ما قدمناه في سبيلك من مال ونفس، وما بذلنا من جهد ومسعى، يوم وقفت أدفع عنك الخصوم في معركة العرش الضارية، التي لم يقصر فيها الطرفان، فأردي كل من ناصبك العداء؟!:

أينَ عنّا إِخْطارُنا المالَ والأنْ
فُسَ إذْ ناهَدوا ليومِ المِحالِ [٢]

---

(١) الأغاني ٢/١١٠

(٢) إخطار النفس والمال: بذلها. والمناهدة في الحرب: المناهضة. والمحال: الكيد.

ونضالي في جنبكَ الناسَ يَرْمو
نَ وأرْمي، وكلُّنا غيرُ آلِ [١]
فأُصيبُ الذي تُريدُ بلا غِـ
شٍّ وأُرْبي عليهمُ وأُوالي

ويؤوب الشاعر بعد هذا العرض الخاطف إلى نفسه، فيطلق هذا التمني المفعم بالألم، الزاخر بالحسرة :

ليتَ أنّي أُخَذْتُ حتفي بكَفّـ
ـيَّ ولم أَلْقَ ميتَةَ الأقْتالِ [٢]

فما أشدها ميتة يلقاها الكريم الحر على يد عـدوه اللدود الشامت، وليتها كانت بيده هو، إذاً لسهل الخطب، ولكانت أهون عليه من إيقاع الأعداء به عند صديقه الحميم النعمان، ثم تحريضهم إياه على قتله. ويعبر عن هذه الوقيعة بكناية لطيفة، فيها جمال الإيجاز، ودقة التصوير، وصفاء البيئة البدوية :

محَلوا محْلَهُمْ لِصَرْعَتِنا العا
مَ فقدأوقَعوا الرَّحا بالثِّفالِ [٣]

وكأنه يريد أن يقول : لن يكون طحن بعد اليوم بعـد أن أوقعوا بين الرحا والثفال.

---

(١) غير آل : غير مقصر.
(٢) الاقتال : جمع قتل بكسر القاف، وهو العدو.
(٣) الثفال : الحجر الأسفل من الرحا.

وتبلغ به الثورة النفسية مداها ، فيفجرها بهذه الاستفهامات ، التي تحمل اللوعة الكاوية والألم الدفين :

ما رَجائي في اليافِعاتِ ذواتِ الـْ
هَيْجِ أمْ ماصبري وكيفَ احْتِيالي[١]

وواضح أن عدياً لم تزايله في هذه القصيدة رباطة الجأش ، ولم تخرجه المحنة بعد عن اتزانه وثباته ، لأنها لا تزال ، على مايظهر ، في أولها ، فهو يعدد ماله من أياد بيضاء على النعمان ، ويأسف لما صار إليه ، دون أن يظهر ضعفاً ، أو يبدو عليه خور .

ويبدو لنا أنه قال قصيدته الميمية[٢] في أوائل أيام سجنه أيضاً ، لأننا لا نلمح فيها تهالكاً ولا خوراً ، بل يطالعنا فيها اعتداده بنفسه وفخره بشمائله وسجاياه .

يستهلها بأبيات ثلاثة يصور فيها قلقه وهمّه لما حاق به ، فصحبه كلهم نيام ، وعينه لم تعرف طعم النوم ، لا لعشق شغف قلبه ، ولا اسقم أهاضه ، ولكن لهمّ لا يزايله ولا يريم عنه :

قد نامَ صَحْبي وبِتُّ الليلَ لم أَنَمِ
من غيرِ عِشْقٍ تَعنّاني ولاسَقَمِ

(١) اليافعات من الأمور : ماعلا وغلب منها فلم يطق . والهيج : الفورة والغضب.
(٢) مطلعها :
قد نامَ صحبي،وبِتُّ الليلَ لم أنمِ   من غيرِ عِشْقٍ تَعنّاني ولا سَقَمِ

إِلاَّ تَأَوُّبَ هَمٍّ قبلَ أدفعُهُ
والهمُّ يأمرُ حينَ الكربِ بالألَمِ

ثم يتوجه إلى نفسه بهذه المناجاة الرقيقة ، التي هي أشبه ما تكون بأنات شجيات يصعدها من أعماق القلب :

يا نفسُ صبراً على ما كانَ من وجَعٍ
لا تطلُبِنَّ شفاءَ البثِّ بالنَّدَمِ

ثم يتمنى بلهفة المكروب الملتاع من يحمل شكواه إلى النعمان ، ويخاطبه بكنيته متودداً مستعطفاً ، مذكراً إياه بتقلبات الأيام ، وبمصارع الغابرين من الأجداد والأمم والملوك ، منهم من شهد مصرعه بعينيه ، ومنهم من جاءت الأنباء بحديثهم ، كانوا ملوكاً فبادوا ، فأصبحوا كفيء الظل المتحرك أو الحلم الزائل :

أبا شُرَيْحٍ فلا تَحزُنْكَ عثرتُنا
فالمرءُ رَهْنٌ لِرَيْبِ الدهرِ والحِمَمِ
إنَّ الأُسى قبلَنا جَمٌّ ، ونعلمُهُ
فيما أُزيلَ من الأجدادِ والأُمَمِ
منهمْ رأيتَ عِياناً ، أو تُحدَّثُهُ
وما تُنَبَّأُ عن عادٍ وعَنْ إرَمِ

وقبلَ ذلكَ مِنْ مَلْكٍ وَمَغْبَطَةٍ
بادوا ، فكانوا كَفَيْءِ الظِّلِّ والحُلُمِ

وينتقل إلى تبيان الظلم الذي حاق به ، فكرامته لم تحفظ حين رماه الأعداء بالتهم ، فكان جزاؤه السجن . ولم ينس عدي أن يتودد إلى النعمان في أثناء ذلك أيضاً باضافة نفسه إلى أم النعمان، جرياً على الأسلوب العربي الذى يدعو المتفقين على الأمر بني الأم ، والمختلفين بني العلاّت ، ليشعره أنه موافق له ، ميّال إليه ، منتسب له ، وليثير فيه شعور الصداقة والتفاهم ، وهو حسن تأتٍّ وتلطفٌ من عدي ، من غير خنوع أو ذلة :

إنَّ ابنَ أُمِّكَ لمْ تُنْظَرْ قَفِيَّتُهُ
لمّا تَوارى ورامَى الناسُ بالكَلِمِ (١)

ثم يعدد الأعباء الجسيمة التي نهض بها ، يوم عمل على توليته الملك دون إخوته جميعاً ، من غير تلجلج في الرأي . ويكثر من ذكر اسم الله الذي يعلم حقيقة إخلاصه وبره وبراءته من التهم ، وهي طريقة نفسية بارعة للتأثير على النعمان . ويعدد بعد ذلك صفاته الخلقية ، التي تأبى عليه خون الأصفياء وخنع الأخلاّء ، ويقسم على ذلك برب الحل والحرم ، لأنه الجواد الشهم الذي لا يقابل

(١) قفيته : كرامته . ورامى الناس بالكلم : ظنوا به .

بالخيانة حتى من خانوا وداده ، وهو إلى وفائه وصدقه وأمانته الكريمُ السخي الذي لا يقصر ببذل المال في كل مذهب :

فاللهُ يعلمُ في رِسْلٍ وفي أزَفٍ
واللهُ أعلمُ بالآلاءِ والنِّعَمِ (١)
بل رُبَّ عِبْءٍ ثقيلٍ قدْ نهضتُ بهِ
فما تزِلُّ إذا عدَّيْتُه قدَمي
وإرْبَةٍ قدْ علا كَبْدي معاقمُها
ليستْ بفَوْرَةِ مأْفونٍ ولا برَمِ (٢)
وما بدأتُ خليلاً أوْ أخا ثِقَةٍ
بخَنْعَةٍ ،لا وربِّ الحِلِّ والحَرَمِ (٣)
يأْبى ليَ اللهُ خونَ الأصْفياءِ وإنْ
خانوا وِدادي ،لأني حاجِزي كَرَمي
ولا بَخِلتُ بمالي عن مَذاهبِه
في حاجةِ الرُّزْءِ،إنْ كانتْ،ولا الذِّمَمِ

وواضح أن عدياً يستخدم في هذه القصيدة الأسلوب النفسي

(١) الأزف : العجلة .
(٢) الإربة : الحاجة . والمعاقم : المفاصل . والمأفون : ضعيف الرأي والعقل . والبرَم : اللئيم البخيل .
(٣) الخنعة : الريبة .

المؤثر في صوره وأشكاله المتعددة ، من قسم برب الحل والحرم ، وترداد لاسم الله ، واستعطاف وتلطف باضافة نفسه إلى أم النعمان ، وبتقرير براءته من كل أثر للخيانة أو الغدر ، حتى ولو قوبل بهما ، كأنه في حرز حريز من رعاية الله له أن ينحط إلى هذا الدرك الدنيء:

يأْبى ليَ اللهُ خونَ الأصفياءِ وإنْ
خانوا وِدادي،لأنّي حاجِزي كَرَمي

وتطالعنا في هذه الأبيات نبرة الانفعال الصادق الحار المشوب بالألم ، حتى إننا لنكاد نلمح فيها اهتزازات أعصاب الشاعر ، ونحس بلفحات مشاعره المتقده وأحاسيسه المستوفزة في كل بيت من أبيات القصيدة ، وبخاصة الأبيات التي يدافع فيها عن نفسه ويعدد سجاياه ، وقد واكبت الأبيات نغمة قوية ، فيها دقات العزة النفسية ، وإيقاع الفخر المستعلي المعتد ، تخالطها بين الحين والحين نغمات الأسى المكبوت . فعدي هنا ليس ذلك المتهالك الضعيف المستجدي ، وإنما هو العزيز الأبي الذي ذل بعد عزة ، وهوى بعد رفعة ، ولم تزايله كبرياؤه بعد ، فهو يستعرض صفحاته البيض ، وسجاياه الرفيعة ، وخلائقه الغرّ .

ولكننا ما نكاد نغادر هاتين القصيدتين إلى قصائده الأخرى

في الاعتذار والاستعطاف ، حتى نرى أن الضعف قد تسرب إلى هذه النفس العزيزة المستعلية ، واستحال الهدير المعتد أنات عميقة ، وصرخات مبحوحة شاكية مستغيثة من عذاب السجن الطويل .

لقد أصم النعمان أذنيه عن صرخات عدي المدوية الجريئة في أيام سجنه الأولى ، والخافتة المستكينة فيما بعد ، وتركه إلى السجن وعذابه ، وطفق السجين الرازح في الأغلال يصعّد الشكوى تلو الشكوى ، ويطلق الحسرة تلو الحسرة ، دون أن يرق له قلب ، أو تأخذ نفساً به رحمة .

ففي بائيته [١] يقسم ببراءته مما نسبه الأعداء إليه ، ويفند دعاواهم ، ويذكر مساعيه من أجله وفوزه على خصومه وتتويجه ملكاً ، ثم يتساءل : أليس عجيباً أن يكون جزاؤه السجن :

سَعَى الأعداءُ لا يأْلونَ شَرّاً
عليَّ وربِّ مَكّةَ والصَّليبِ
أرادوا أنْ تُمَهّلَ عنْ عَدِيٍّ
ليُسْجَنَ أوْ يُدَهْدَهَ في القَليبِ [٢]

---

(١) مطلعها :

أَرِقْتُ لمُكْفَهِرٍّ باتَ فيهِ بوارقُ يرتقينَ رؤوسَ شيبِ

(٢) دهده الشيء : حدره من علو إلى سفل . والقليب : البئر القديمة ، وأراد بها القبر .

وكنتُ لِزازَ خصمِكَ لمْ أُعَرِّدْ
وقَدْ سلكوكَ في يومٍ عَصيبِ [١]
أُعالنُهمْ وأُبْطِنُ كلَّ سِرٍّ
كما بينَ اللِّحاءِ إلى العَسيبِ [٢]
ففُزْتُ عليهمُ لمَّا التَقَيْنا
بتاجِكَ فَوْزَةَ القِدْحِ الأريبِ
وما دهْري بأنْ كدّرتُ فَضْلاً
ولكنْ ما لقيتُ من العَجيبِ
ألا مَنْ مُبلغُ النّعمانِ عنّي
وقدْ تُهْدى النَّصيحةُ بالمَغيبِ
أحظّي كانَ سِلْسِلَةً وقَيْداً
وغُلاًّ والبيانُ لدى الطَّبيبِ

ثم يستعطف النعمان بنفس منكسرة أكلها الهم ، إذ لم يكن جزاؤها إلا القيد الثقيل والغل المؤلم ، ويصور له نساءه المضيّمات اللواتي كاد يهلكهن النحيب والنواح تصويراً رائعاً مؤثراً :

(١) اللزاز : مصدر من لازّه ملازّة ولزازاً ، إذا قارنه ولم يفارقه .
ولم أعرد : لم أحجم

(٢) اللحاء : ما على العود من القشر . والعسيب : جريد النخل .

أتاكَ بأنّني قد طالَ حبْسي
ولم تَسْأمْ بمسجونٍ حَريبِ
وبيتي مقفرٌ إلاّ نساءً
أراملَ قد هَلَكْنَ من النَّحيبِ
يُبادِرْنَ الدموعَ على عديٍّ
كَشَنٍّ خانَهُ خَرْزُ الرَّبيبِ (١)
يُلاْلِئْنَ الأكفَّ على عديٍّ
ويُعْطَفُ رَجْعُهُنَّ إلى الجيوبِ (٢)

وبعد هذا الأسلوب النفسي المؤثر يسلك طريق المنطق والحجة في اعتذار لطيف ابق ، يلوح فيه بقيمة دعمه للنعمان ووقوفه إلى جانبه فيقول :

فانْ أخطأتُ أو أوْهمتُ أمراً
فقد يَهِمُ المُصافي بالحَبيبِ
وإنْ أظلِمْ فقد عاقبتُموني
وإنْ أُظلَمْ فذلكَ مِنْ نَصيبي

(١) الشنّ : الخلق من كل آنية صنعت من الجلد ، والربيب : المصلح .
(٢) يلاءلئن : يحركن . والجيوب : جمع حيب ، وهو طوق القميص ونحوه . يريد أنهن يقلبن أيديهن عند النواح ، ويلطمن نحورهن وصدورهن .

وإنْ أَهْلِكْ تجدْ فقْدي وتُخْذَلْ
إِذا التقتِ العَوالي في الحُروبِ

وهذا الأسلوب ، أُسلوب الشرط والجدل والمنطق نراه فيما بعد عند النابغة في اعتذاراته للنعمان بن المنذر نفسه حين غضب عليه وتوعَّده . يقول النابغة :

فانْ أكُ مَظْلوماً فعبدٌ ظلمتَهُ
وإنْ تكُ ذا عُتْبى فمثلُكَ يُعْتِبُ

ولا يخفى ما بين هذا البيت وبيت عدي الثاني المتقدم من تشابه .

ويهيب بعد ذلك بالنعمان ألا يغلب على أمره ، وأن يتدارك ما بينهما قبل فوات الأوان ، ثم يكل أمره إلى الله في استسلام قانع مستكين :

فهل لكَ أنْ تداركَ ما لدينا ولا تُغْلَبْ على الرأي المُصيبِ
فانّي قدْ وكَلتُ اليومَ أَمْري إلى ربٍّ قريبٍ مُسْتَجيبِ

ومن بديع اعتذاراته قصيدته الرائية التي يقول فيها :

طالَ ذا الليلُ علينا واعْتَكَرْ
وكأنّي ناذِرُ الصُّبحِ سَمَرْ

إذْ أتاني نَبَأٌ من مُنْعِمٍ
لم أخُنْهُ والذي أعْطى الشَّبَرْ (١)
مِنْ نَجِيِّ الهَمِّ عندي ثاوياً
فوقَ ما أعلنُ منه وأُسِرّْ
وكأنَّ الليلَ فيه مثلُهُ
ولَقِدْماً ظُنَّ بالليلِ القِصَرْ
لم أغمِّضْ طولَه حتى انقَضى
أتَمنَّى لو أرى الصبحَ جَشَرْ (٢)
شَئِزٌ جَنْبي كأنّي مُهْدَأٌ
جعلَ القينُ على الدَّفِّ إبَرْ (٣)
غيرَ ما عِشْقٍ ولكنْ طارِقٌ
خَلَسَ النومَ وأجْداني السَّهَرْ

يستهل هذه القصيدة بشكواه من طول الليل وادلهامه عليه في غيابة السجن الرهيب ، وهو مسهد العين مقرح الجفن ، طار النوم من أجفانه لهذه التهمة البشعة التي ألصقت فيه ، وهو منها

(١) الشبر : العطية والخير .

(٢) جشر : طلع .

(٣) شئز : قلق . ومهدأ : من أهدأت المرأة الصبي إذا جعلت تضرب بيدها عليه رويداً لينام . والدف الجنب .

براء ، حتى ليخيل إليه أن الليل تضاعف ، وأن مثله معه تطاول على نفسه المعذبة المؤرقة . ولم يكتف بهذا التصوير لأرقه وعذابه ، بل أراد أن يبرز للنعمان قلقه وعذابه في صورة مادية مجسمة للألم الذي استبد به وحرمه لذيذ المنام :

شَئِزٌ جنبي كأنّي مُهْدَأٌ جعلَ القينُ على الدَّفِّ إبَرْ

إنه في هذه الصورة يتململ من طول الليل ، لا يهدأ له جنب ، كأن إبراً محماة تخز جنبه وتكويه ، فتجعل جنبه يتجافى عن المضجع ، ويتقلب فلا يعرف الهدوء ولا السكون .

إنها صورة لم تتعد في رقعتها المادية البيت الواحد ، ولكنها في مساحتها النفسية واسعة شاسعة ، إن صح التعبير ، إذ جسدت الحالة النفسية القلقة التي كان يعانيها الشاعر ، وأبرزت كل عناصرها من هم وبلبلة واضطراب ، وإنها لتذكرنا بصورة أخرى للنابغة ، ساقها للنعمان فيما بعد في إحدى اعتذاراته له ، وهي :

أتاني أبيتَ اللعنَ أنكَ لمتَني
وتلكَ التي أهتمُّ منها وأنْصَبُ
فبِتُّ كأنَّ العائداتِ فرشْنَني
هَراساً،بهِيُعْلَى فِراشي ويُقْشَبُ(١)

(١) الهراس : شجر كبير الشوك . ويقشب : يخلط ويجدد .

وقريب منها قول النابغة أيضاً :

وعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنْهِهِ
أتاني ودوني راكسٌ فالضَّواجِعُ
فبِتُّ كأنّي ساورتْني ضئيلةٌ
من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ ناقِعُ [(١)]

ونبحث عن مبعث هذا الأرق الشديد الذي استبد بعدي، فاذا هو تلك التهمة التي افتراها عليه الأعداء، تبدو له شاخصة كالطارق المروع المخيف الذي يقضّ المضجع، ويسلب النوم والراحة والطمأنينة :

غيرُ ما عِشْقٍ ولكنْ طارِقٌ   خلَسَ النومَ وأجْداني السَّهَرْ

ولا يخفى ما للفظ طارق من ظلال أليمة موجعة مروعة، تبرز ما كان يعانيه الشاعر من عذاب وقلق وخوف .

ثم يتوجه إلى النعمان برسالة رقيقة متواضعة، فيها التلطف واللباقة والخوف والاعتذار :

أبلغِ النعمانَ عنّي مَأْلُكاً
قولَ مَنْ قدخاف ظَنّاً فاعْتَذَرْ [(٢)]

(١) ضئيلة، أي أفعى دقيقة اللحم. والرقش : جمع رقشاء، وهي الأفعى التي فيها نقط بيض وسود .   (٢) مألكاً : رسالة .

إنَّني واللهِ فاقبلْ حَلِفِي
لأبِيلٍ كلّما صلَّى جأرْ (١)
مُرْعَدٌ أحشاؤُهُ في هيكَلٍ
حَسَنٌ لمّتُهُ وافي الشَّعَرْ
ما حملتُ الغِلَّ مِنْ أَعْدائِكمْ
ولدَى اللهِ مِن العِلمِ المُسَرّْ
لا تكونَنَّ كآسي عَظْمِهِ
بأَساً حتَّى إذا العَظْمُ جَبَرْ (٢)
عادَ بعدَ الجَبْرِ يَبْغي وهنَهُ
يَنْحُونَّ المثي منهُ فانْكَسَرْ

إنه يغلظ له الأيمان أنه بريء ، مصوراً نفسه راهباً متبتلاً ترتعد أحشاؤه من الخشوع ، ويُشْهِدُ الله أنه سمع من أعدائه الكثير، فلم يحمل يوماً عليه غلاً . ثم يتوجه إليه بالرجاء ألا يقسو عليه ويزيد في تعذيبه ، بعد أن كان له بمثابة العظم من الجسد ، هو عدته وبه قوامه ، وإنه لتمثيل بديع لمكانته في القديم عنده وقربه منه ، فاذا هو الآن يبغي البطش به والتخلص منه .

(٤) الأبيل : الراهب . وجأر : رفع صوته .
(٥) الآسي : الطبيب والأسا الدواء

إنها قصيدة تمثل الجو النفسي الكابي المعتم الذي كان يعيش فيه عدي ، وتجسد الكرب الذي أطار صوابه فحرمه النوم وأجداه السهر ، وهي كلها تنبض بهذا الإيقاع الحزين الواجف المرتاع ، الذي يحكي أنات النفس المكروبة في ظلمات السجن الرهيب .

ومن صيحاته الشاكية المستغيثة التي أرسلها إلى النعمان يستعطفه بها قصيدته الرائية المكسورة التي يقول فيها :

أبلغِ النعمانَ عنّي مأْلُكاً
أنه قد طالَ حَبْسي وانتظاري
لو بغيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ
كنتُ كالغَصّانِ بالماءِ اعْتِصاري

يشكو إلى النعمان طول سجنه وإبطاء عفوه عنه ، ويستعطفه ضارباً له هذا المثل الرائع : لقد كان له بمثابة الماء الذي يدفع به كل غصة وألم ، فاذا كان غصصه بالماء ففيم يسيغه ويدفعه ؟ ثم يشكو إليه شماتة الأعداء ، ويعود للاستعطاف ممثلاً نفسه بطير ابتلَّ ريشه فعجز عن الطيران ، وهوى من حالق ، وهي صورة بارعة في إثارة الرحمة لذل العزيز وسقوطه ، بعد رفعته ومنعته :

لَثِقُ الرّيشِ تَدَلَّى غُدْوَةً
مِنْ أعالي صَعْبَةِ المَرْقَى طِمارِ (١)

(١) لثق : مبتل . وطمار : مكان مرتفع .

ويبدي ألمه من افتراءات الأعداء التي صدقها النعمان ، مع أنه لم يبل منه سقطة قط ، ويصور له ما هو فيه من كرب شديد ، ويذكره بسابقته وسابقة أسرته من قبله في ترسيخ دعائم بيتهم المالك ، باذلين في سبيلهم المال والنفس ، وأن والده قدحفظ لهم هذه اليد ، فأدناه ووقره وأكرمه ، ويشيد بعد ذلك برفعة النعمان ، ويسمعه من المديح ما ترتاح له الأذن ، عسى أن يرق له قلب أو تأخذه به رحمة :

لَيتَ شِعْري عن دَخيلٍ يفتري
حيثما أدركَ ليلي ونَهاري
لامرِئٍ لم يَبْلُ منّي سَقْطَةً
إنْ أصابَتْهُ مُلِمّاتُ العِثارِ
قاعِداً يَكْرُبُ نفسي بَثُّها
وحَراماً كان سِجْني واحتْصاري
نحنُ كنّا قد علمتمْ قبلَكمْ
عَمَدَ البيت وأوتادَ الإصارِ (١)
نُحْسِنُ الهِنْءَ إذا استَهْنَأْتَنا
ودِفاعاً عنكَ بالأيدي الكِبارِ (٢)

(١) الإصار : حبل صغير يشدّ به أسفل الخباء .
(٢) الهنء : النصر . واستهنأتنا : استنصرتنا .

وأبوكَ المرءُ لم يُشْنَأْ به
يومَ سِيمَ الخسفَ منّا ذو الخسارِ [(١)]
أجْلَ نُعْمى ربَّها أولُكمْ
ودُنُوِّي كانَ منكمْ واصْطِهاري [(٢)]
أجْلَ أنَّ اللهَ قد فضَّلكُمْ
فوقَ مَنْ أحكَأَ صُلْباً بإزارِ [(٣)]

ونستطيع بعد استعراض هذه النماذج من اعتذارات عدي أن نميز فيها لونين اثنين :

الأول : ما قاله عدي في الأيام الأولى من سجنه ، وهو الشعر الذي بدا فيه متماسكاً متزناً رابط الجأش .

والثاني : ما نظمه بعد أن طال به السجن ، وهو الشعر الذي يصور عدياً متهالكاً منهاراً .

ولم يدخر عدي وسعاً في الاعتذار الى النعمان واستعطافه والشكوى إليه فيما قاله من شعر الاعتذار في هاتين المرحلتين ، لقد شكا إليه ما يكابد من هم وقلق وعذاب ، وصور له نفسه

---

(١) لم يشنأ به : لم يقرّ به . أراد لم يقرّ به. ملكاً على الحيرة إلا بعظاهرتنا له .
(٢) أجل ، أي من أجل . ربّها : رباها ونمّاها .
(٣) أحكأ العقدة : أحكمها .

المكدودة ونساءه النائحات تصويراً مؤثراً، وذكره بما له ولأسرته على البيت المنذري من أياد وخدمات ، كما ذكره بوقوفه إلى جانبه في مسعاه المشهور ، الذي جعل له عرش الحيرة دون إخوته أجمعين ، ورد ما ألصق به الأعداء من اتهامات ، وما افتروا عليه من أباطيل ، ودافع عن نفسه وعدد سجاياه ، واستعطف النعمان فأسمعه رائع المديح وخالص الثناء ، ضرب له الأمثلة ، وقدم له الحجج ، استثار فيه كوامن الشفقة والرحمة ، ولوح له بعاقبة هذه الوقيعة التي حاكها لهما الأعداء الشامتون الحاقدون . لم يدع وسيلة من وسائل الاستعطاف والاعتذار والشكوى إلا سلكها ، عسى أن تنبجس الرحمة من قلب النعمان ، فتغسل ما علق في نفسه من أدران الحقد والموجدة ، فيفرج عنه من كرب سجنه الرهيب ، ويرد إليه حريته المهيضة . ومن ثم كانت تنثال عليه هذه المعاني، فيلون فيها وجوه القول ، ويسلك في عرضها ألوان الأساليب .

وأسلوب عدي في اعتذاراته صورة مجسمة لانفعاله الحار ونفسه الملوعة المنكوبة ، ترق ألفاظه فتشي بما في نفسه من استكانة وعذاب واستسلام ، ولكنها سرعان ما ترتد فخمة جزلة تملأ الفم عندما يشيد بمناقب النعمان :

مَلِكٌ يقسمُ الخزائنَ والذِمّةَ قد ردَّها وكادَت تَبورُ

عالِمٌ بالذي يُريدُ نقيُّ الصَّدْرِ عفٌّ على جُثاه نَحورُ (١)

أو عندما يشيد بخصاله الحميدة وخلائقه الحسان :

إنْ يُصبْني بعضُ الأذاةِ فلاوا ... نٍ ضعيفٌ ولاأكبُ عثورُ (٢)
وأنا الناصرُ الحقيقةَ إن أظ ... لَم يومٌ تَضيقُ فيهِ الصُّدورُ
يومَ لا ينفعُ الرَّواغُ ولا ينْ ... صَعُ إلاّ المُشيَّعُ النِحْريرُ (٣)

ويعمد إلى التكرار كوسيلة من وسائل الاقناع والتأثير ، فيكرر إن الشرطية يدعم بها حججه ، ويكسبها المسحة المنطقية المقنعة : فان أخطأت . . وإن أظلم . . وإن أهلك . .

ويكرر بعض الألفاظ للتأثير على نفسية النعمان مثل : عدى ، رب ، بر ، وكلها كلمات استعطاف واستمالة واسترضاء ، يقول :

ويقولُ العُداةُ أَوْدَى عَدِيٌّ ... وعديٌّ بسُخْطِ ربٍّ أسيرُ
ظِنَّةٌ شَبَّهَتْ فأمْلَكَها القَسْ ... مُ فَعَدَّاهُ والخَبيرُ خَبيرُ
وِكلانا بَرٌّ يُساعدُه بَرٌّ ... وربّي بِما أتَى مَعْذورُ

(١) الجثا : تراب كان يجمع وتوضع عليه الحجارة ، وتنحر عليها الأنعام . ونحور ، أي كثير نحر الابل .

(٢) الأكب : دائم الغفلة . والعثور : كثير الخطأ .

(٣) الرواغ : الميل والحيد . ينصع إلى الحرب : يبرز إليها والمشيع : الشجاع . والنحرير : الماهر المجرب .

إنَّ ربّي لولا تدارُكُهُ الملـــكَ وأهلَ العِراقِ ساءَ العَذيرُ

واعتذارات عدي حافلة بالصور الدقيقة البارعة ، وقد رأينا طرفاً منها ، كتصويره الرائع لبكاء نسائه ونواحهن ، وتصوير هبوطه بعد رفعته ، وتصويره نفسه القلقة المسهدة المعذبة .

ويغلب على هذه الاعتذارات الايقاع المؤثر الحزين ينبعث من الحروف والألفاظ والتعابير والصور ، فيحكي بكاء النفس الكسيرة الراسفة في الأغلال :

ألا يا طالَ ليلي والنهارُ

....

فانْ أمسيتُ مكتئِباً حزيناً
كثيرَ الهمِّ يُسهِدُني الإسارُ
فقد بُدِّلتُ ذاكَ بنُعْم بالٍ
وأيامٍ لياليها قِصارُ
ألا مَنْ مبلغُ النعمانِ عنّي
علانيةً ، وما يُغْني السِرارُ
بأنَّ المرءَ لمْ يُخْلَقْ حديداً
ولا هَضْباً توقَّلَهُ الوِبارُ

ولكنْ كالشّهابِ سَناهُ يَخْبو
وحادي الموتِ عنهُ ما يَحارُ

وبعد ، فان في ما قدمناه من اعتذارات عدي دلالتين اثنتين :

الأولى : براعة عدي في فن الاعتذار والاستعطاف ، فلقد سلك فيه شتى الأساليب ، ونوع في الصور والأمثال وطرق الأداء ، بعد أن غمس رسائله وشكاواه إلى النعمان بمداد قلبه الملوع ، وحملها أنات نفسه المكلومة . ومن ثم اتسمت هذه الاعتذارات بالبراعة والأصالة والصدق .

والدلالة الثانية : سبق عدي إلى هذا الفن ، فلقد رأينا التشابه في الاسلوب المنطقي الجدلي بين عدي والنابغة ، والتشابه في بعض الصور التي تعكس القلق النفسي عند الشاعر ، وتصور سهده وتوجسه من وعيد النعمان .

وإذا كان عدي قد سبق النابغة في اتصاله بالبلاط العربي في الحيرة ، وبالنعمان بن المنذر ، فلا يبعد أن يكون هو السابق إلى هذا الفن في البيئة التي عاش فيها الشاعران ، وأنه هو الذي بذر بذوره الأولى في الشعر العربي ، وبذلك يكون عدي هو الفاتح لباب الاعتذار والاستعطاف في الشعر العربي ، لا النابغة

الذبياني[١] ، وعنه أخذ النابغة .

وتمتاز اعتذارات عدي عن اعتذارات النابغة بأنها ألصق بقلبه المعذب ونفسه الملتاعة ، لأن عدياً اكتوى بنار السجن ، وذاق مرارة السهد ، وعانى عذاب الأسر والخوف واليأس من النجاة . أما النابغة فلم يزج به في السجن ، بل بلغه وعيد النعمان له ، فهرب من وجهه ، وراح يبعث إليه باعتذاراته من بعيد .

وشيء آخر يميز اعتذارات عدي ، وهو أنها اعتذارات صدرت من صاحب اليد العزيز إلى من أنكرها وجحد فضلها ، ففيها نغمة الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالسجايا الحميدة والماضي المشرف . أما اعتذارات النابغة فهي اعتذارات شاعر متكسب إلى ملك معط متفضل . ومن ثم كان فيها شيء من الخنوع والتذلل لم نره في شعر عدي ، رغم وقوعه في أسر السجن وعذابه .

هذا ، وتمثل اعتذارات عدي المرحلة الشعورية الأولى من

(١) المشهور في كتب الأدب أن النابغة هو أول من أوجد فن الاعتذار في الشعر العربي ، قال أبو هلال العسكري في ديوانه المعاني ١/٩١ : « وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي حتى زاد النابغة فيها قسماً سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

حياته التي قضاها في السجن ، وقد انطلق منها بعد ذلك إلى المرحلة الشعورية الثانية التي تتميز بغلبة الموعظة على شعره ، تلك الموعظة التي نقلته من اطار الذات الضيق إلى الأفق الانساني الرحيب .

★ ★ ★

٢

المواعظ

آ ـ الموت والفناء :

لقد ملكت الموعظة على عـدي نفسه ، وزحمت أقطـار حسه ، وجعلته يعيش في آفاقها الرحبة الواسعة ، ويرتاد عوالمهـا الفساح ، فيكرس لها معظم شعره ، ويوقف عليها أروع آيات فنه.

وآية ذلك أن عدياً أفرد كثيراً من قصائده للمواعظ ، فلم يشرك معها غرضاً آخر ، ولوّن بها بعض قصائده الأخـرى ، وطبعها بطابعها الرزين ، حتى غدت مطالع قصائده الوعظية تنبض بايقاع الوعظ الهادىء ، وتخلع ظلاله الكثيفة ، وتمهد للجو النفسي القلق الذي يحياه الشاعر المتأمل المتدبر .

لقد اختفت البدايات الطللية التي عرفتها القصيدة الجاهلية تقليداً فنياً غالباً ، اختفت من مطالع عدي الوعظية ، لتحل محلها بدايات تصور رحيل الانسان الحتمي عن الوجود :

أَرواحٌ مودِّعٌ أَمْ بُـكورُ
لكَ ؟ فاعمِـدْ لِأيِّ حالٍ تَصيرُ

أو تحمّل الحبيبة رسالة العقل المتأمل إلى الفتيان الأغرار في هذه الحياة :

أبلِغي الفتيانَ مألُكَةً نَصْحَةً مِنّي وإخبارا
أَنّني رُمْتُ الخطوبَ فَتىً فوجدتُ العيشَ أَطْوارا

أو تصف أرق الشاعر ومناجاته نفسه المعذبة :

طالَ ليلي أراقبُ التَّنْويرا
أرقُبُ الليلَ بالصباحِ بَصيرا
شطَّ وصلُ الذي تُريدينَ مِنّي
وصَغيرُ الأمور يَجْني الكَبيرا

ولا ريب أن هناك عوامل كثيرة أدت إلى غلبة الموعظة على شعر عدي ، منها عوامل ذاتية ترد إلى شخصية الشاعر ، ومنها عوامل محيطية ترد إلى بيئته ، وإلى ما أحاط بالشاعر من أحداث.

وأول هذه العوامل فطرة الشاعر المتيقظة ، فلقد وهب عدي فطرة بصيرة مستوفزة ، لا يعزب عنها شبح الموت ، ولا يلهيها بريق العيش عن تقلبات الأيام ، ورفدت هذه الفطرة ثقافة عدي الدينية والتاريخية ، واطلاعه على أحوال الناس الغابرين من قراءاته المختلفة ، ولقد رأينا أنه كان « صاحب كتب[1] » ،

(١) الحيوان ٤/١٩٧ .

وزاد في خصبها وحساسيتها مشاهداته في حياته الخاصة والعامة في الحيرة وفي بلاط كسرى ، وتأملاته في أسفاره العديدة ، ثم تأتي المحنة القاسية بسجنه ، فتفجر عيون الشاعرية في نفسه،وتوجهها في طريق الموعظة المشوبة بالاعتذار تارة ، وبالحكمة تارة أخرى .

ذلك أن محنة السجن الأليمة طالت على عدي ، ولم تنفعه صيحاته العزيزة المستعلية العاتبة في أوائل المحنة ، ولا استغاثاته الباكية الضارعة بعد ذلك في إزالة الكربة وقشع الغمة والخلاص من ظلمات السجن الرهيب .

هنالك تلفت عدي ، الانسان الذي يئس من الفرج أو كاد ، وراح يتلمس منافذ جديدة للحرية والخلاص في جولاته الانسانية عبر القرون والأزمان ، لعله يجد فيها سلواه في محنته وأساه في نكبته.

وبسجن عدي تنطلق صيحاته الوعظية بارنان حار متدفق ، تحمل وهج النفس المكروبة الملتاعة ، وتستعرض أحوال الملوك السابقين والأمم الغابرة ، والمصير الحتمي الذي آلوا إليه جميعاً ، وكأنه كان يتعزى بهذه المواعظ عما ألم به من كرب ، وماحاق به من بلاء .

ومن هنا تعددت المنابع التي امتاح منها عدي مواعظه ،

والناظر في شعره يستطيع ردها إلى منابع ثلاثة : الدين ،والتاريخ، والتجارب الشخصية والمشاهدات الواقعية .

١ ـ **الدين** : فلقد كان الدين بكتبه السماوية مصدراً خصباً من المصادر التي أمدت عدياً بحديثها عن الأقوام البائدة ، شارحة أحوالهم ، مبينة مصائرهم . ومن هذا المعين الثرّ كان عدي يستقي إذ يطرح مثل هذه الأسئلة المليئة بالعظة والاعتبار :

أينَ أهلُ الديار مِنْ قومِ نوحٍ
ثم عادُ مِنْ بعدِهِمْ وثَمودُ
أينَ آباؤنا وأينَ بنوهمْ
أينَ آباؤهمْ وأينَ الجُدودُ
سَلَكوا منهجَ المنايا فبادوا
وأَرانا قدْ حانَ منا وُرودُ

إنهم بادوا جميعاً ، لم تبق لهم باقية ، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، وإنما هناك يوم موعود ، يؤوبّ فيه البشر إلى خالقهم ، ليلقوا جزاء ما قدمت أيديهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر :

ثمَّ لمْ ينقضِ الحديثُ ولكنْ بعد ذا الوعدُ كُلُّهُ والوَعيدُ

٢ ـ التاريخ : والتاريخ هو المصدر الكبير الواسع الذي اغترف منه عدي فأكثر ، وهو السجل الضخم الحافل الذي جاس عدي خلال عصوره ، وطوّف في أمصاره ، واستعرض فيه الأمم والممالك من شتى الأجناس والألوان ، ووقف عند المدن والقلاع والقصور ، متأملاً هذه المواكب البشرية في ماضيها السحيق المتواصل ، تزحف جميعاً نحو الورد المورود والنهاية المحتومة ، ورأى الموت يأتي على الأمم ، ويقوّض الحضارات ، ويدك المعاقل ، ويثلّ العروش .

إنها المنايا التي لا تفرق بين جنس وجنس ، وعرش وعرش ، وحضارة وحضارة :

فبِتْ أُعدّي كم أسافَتْ وغيَّرَتْ
وُقوعُ المَنونِ مِنْ مَسودٍ وسائِدِ (١)
صَرعْنَ قُباذاً ربَّ فارسَ كلِّها
وحسَّتْ بأيديها بوارِقَ آمِدِ (٢)

---

(١) أعدي ، أي أعدد ، أبدل الدال الأخير ياء كراهة اجتماع الأمثال ، وهو كثير شائع في كل ثلاثي مضعف مزيد . وأسافت : أهلكت .
(٢) قباذ : ملك من ملوك الفرس . وحشت : قطعت . وبوارق وآمد : أعظم مدن ديار بكر .

وغُصْنَ على الحِيقارِ وَسْطَ جنودهِ
ويبَّتْنَ في لَذّاتِه ربٌّ ماردِ [١]
وجِئْنَ بتُرْكٍ مِنْ قرارِ بِلادِهِمْ
يسيرُ بجَمْعٍ كالدَّبا المتُسانِدِ [٢]
وأخرَجْنَ يومَ الحوصِ سيدَ حِمْيَرٍ
بحَرْبَةِ جِنّيٍّ من الحُبشِ حارِدِ [٣]
وملكَ سليمانَ بنِ داوودَ زَلْزلَتْ
ورَيْدانَ قد أَلْحَقْنَهُ بالصَّعائِدِ [٤]
وخَلْفَ بني الناصورِ لمْ يبقَ منهمُ
بقيةُ مولودٍ ولا ذكرُ والِدِ
وكانَ ملوكُ الرومِ يُجْبَى إليهمُ
قناطيرُ مالٍ مِنْ خَراجٍ وزائِدِ
فلا تَغْبِطَنْ إنساً بشيءٍ ينالُهُ
مِنَ الدهرِ لا مالٍ ولا عيشِ واجِدِ

وهي الأيام التي لا يصمد أمام ضرباتها معقل :

---

(١) الحيقار : ملك من ملوك فارس . ومارد : حصن بدومة الجندل .
(٢) الدبا : أصغر الجراد والنمل .
(٣) حارد : غضبان .
(٤) ريدان : حصن في قنسرين .

والحَضْرُ صُبَّتْ عليهِ داهيةٌ　　من فوقِهِ أَيِّدٌ مَناكِبُها [١]

٣ - التجارب الشخصية والمشاهدات الواقعية :

لقد أحكمت التجارب عدياً ، وحنكته الأيام ، وعلمته ضروباً من الدروس والعبر ، فكانت مصدراً غنياً من المصادر التي صاغ منها مواعظه ، وجاءت ممثلة خلاصة تجاربه في الحياة والأحياء ، وإلى هذه التجارب التي حفلت بها حياته يشير عـدي في نسيبه مخاطباً لبيني :

أبلِغي الفتيانَ مألُكَـةً　　نَصْحَةً مِنّي وإِخْبارا
أنَّني رُمْتُ الخطوبَ فَتىً　　فوجدتُ العيش أَطْوارا

ثم يذكر طرفاً من تجاربه ومشاهداته في هـذه الحياة ، فالعيش أطوار متقلبة ، والحياة لا تخلو من مكدر ، إنْ من صديق قريب أو عدو بعيد ، أو من خطوب تحل بالمرء فتحيل المعروف في عينيه جحوداً ونكراناً :

ليسَ يُغْني عيشَهُ أَحَدٌ　　لا يُلاقى فيهِ أَمْعارا [٢]
مِنْ صديقٍ أو أخي ثِقَةٍ　　أو عدوٍّ شاحِطٍ دارا [٣]

(١) الحضر : قصر منيع كان بين دجلة والفرات . والأيد : القوي .
(٢) الأمعـار : الفقر والشدة .
(٣) الشاحط : البعيد .

مِنْ خُطوبٍ تستَمِرُّ بهِ فتُريهِ العُرْفَ إنْكارا

وقد يمر على المنظر المألوف لدى الناس جميعاً ، فينظر إليه بعين الشاعر المرهف وإحساسه البصير ، فيلهمه ضروباً من المواعظ، ويفجر في نفسه ينابيع من المعاني والصور ، من ذلك مروره على المقابر ، وتأمله الأجيال العديدة التي اندثرت تحت اللحود ، وقد كانت قبل ذلك تلهو وتعبث ما طاب لها اللهو والعبث ، فينطق المقابر حديث هؤلاء الغابرين : فكم من ركب أناخوا حول هذه القبور ، وفرشوا الموائد وصفوا الكؤوس ، وراحوا يعتلون الخمر مطموثاً بالماء الزلال الشبم المصفى ، وقد انتثرت الأباريق من حولهم ، وسرحت الجياد أمام أبصارهم ، صفت لهم الحياة ، ونعموا بنضير العيش ، مطمئنين هنئين ، فاذا بالدهر يعصف بهذا النعيم ، ويودي بأصحابه إلى حيث المصير المحتوم :

مَنْ رآنا فليحدّثْ نفسَهُ
أنَّه موفٍ على قَرْنِ زوالِ
وصروفُ الدهرِ لا يَبْقى لَها
ولِما تأتي بهِ صُمُّ الجبالِ
ربَّ ركبٍ قد أَناخو حولَنا
يَمْزُجونَ الخمرَ بالماءِ الزُّلالِ

والأباريقُ عليها فُدُمْ
وجيادُ الخيل تَرْدي في الجِلالِ
عُمِّروا دهراً بعيشٍ نَضِرٍ
آمني دهرِهِمُ غيرَ عِجالِ
ثمَّ أضحَوْا عصَفَ الدهرُ بهِمْ
وكذاكَ الدهرُ يُودي بالرِّجالِ
وكذاكَ الدهرُ يَرْمي بالفتى
في طِلابِ العيشِ حالاً بعدَ حالِ

وتدور مواعظ عدي حول محور واحد لا تتعداه ، هو الموت والفناء وتقلبات الأيام . فهو ينظر بعين المفكر المتأمل إلى الانسان الذي يعيش في هذه الحياة عيشة مؤقتة ، لا تدوم لها سعادة ، ولا يبقى لها نعيم ، فيرى أنه مهما أوتي من مال وولد لا يستطيع أن يلهو وينعم وتصفو له الحياة ، ما دام شبح الموت الرهيب ، والحوادث الطارقات في الأسحار له بالمرصاد :

ولم أجِدِ الفتى يلْهو بشَيْءٍ
ولوْ أثْرى ولو وَلَدَ البَنينا
ألمْ ترَ أنَّ ريبَ الدهرِ يَعْلو
أخا النَّجَداتِ والحِصْنَ الحَصينا

وما دام أخو النجدات والحصن الحصين لا يُعرَّى من ريب الدهر ، ولا يفلت من قبضة المنون ، فأي لهـو مؤقت زائف هذا الذي يعكف عليه الانسان ، وهو يتوجس خيفة مما تخبئه له الأيام المقبلات ، وأية متعة هذه التي تستطيع أن تشيع السعادة في النفس البصيرة ، وهي تعلم المصير المحتوم الذي ستصير إليه ؟!

ومن هذه النقطة تنثال على عدي المعاني الغزيرة ، وتتسع أمامه جوانب القول ، ويتراقص في مخيلته العديد من الصور .

ومن ثم ساق عدي مواعظه في أشكال مختلفة ، وأقامها على ركائز متعددة ، وسلك في عرضها شتى السبل والاتجاهات .

فتارة يضعنا منذ البدء في جو الموعظة البالغة أمام الحقيقة الكونية الخالدة ، نتأملها معه بتدبر وخشوع ورهبة :

لیسَ شيءٌ على المَنونِ بِباقِ غيرُ وجهِ المُسبَّحِ الخَلاَّقِ

وللدهر صولات فاحذرنها أيها الانسان . قد يبيت الانسان معافى ، فيردى بعد سرور وأمن ، والدهر لين ونطوح ، يكسر العظم بضرباته القاصمات :

إنَّ لِلدَّهْرِ صَوْلَةً فَاحْذرنْها

لا تبيتَنَّ قـدْ أمِنْتَ الدُّهورا

قد يَبيتُ الفَتَى صَحيحاً فيرْدَى
بعدَ ما كانَ آمِناً مَسْرورا
إنما الدهرُ ليِّنٌ ونَطوحٌ
يترُكُ العَظْمَ واهِياً مَكْسورا

ولا يغرنك ما أنت فيه من دعة وخفض عيش وأمن وهناءة ، فالحوادث قد تأتيك من حيث لا تحتسب ، وأنت راقد في أحضان النعيم :

يا راقدَ الليلِ مَسْروراً بِأوَّلِهِ
إنَّ الحوادثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارا

وتارة أخرى يتخذ من القصص التاريخي إطاراً كبيراً ، يضمنه تأملاته بالعظة والعبرة ، فيستعرض فيه كثيراً من الأمم والملوك السابقين ، الذين شادوا القصور الفخمة ، وساسوا الملك العريض ، وينتهي بهم جميعاً إلى الفكرة التي تلح عليه ، وتشغل باله ، فكرة الموت والزوال :

أينَ كِسْرى، كِسْرى الملوكِ أنوشِرْ
وانُ أم أينَ قبلَهُ سابورُ

وبَنو الأصفرِ الكرامِ ، ملوكُ الر
وم ِ لمْ يبقَ منهمُ مَذْكورُ
وأخو الحَضْرِ إذْ بَناهُ وإذْ دِجْ
لَةُ تُجْبَى إليهِ والخابورُ

لقد عصف الدهر بهم جميعاً ، فأدال ملكهم ، وطواهم في لجة العدم والفناء ، فأصبحوا كالهشيم ، ذرته الرياح فلم تبق له أثراً:

ثمَّ بعدَ الفلاحِ والرُّشْدِ والإمَّ ة وارتْهمُ هُناكَ القُبورُ [1]
ثم أضحَوْا كأنهمْ ورَقٌ جَ فَّ فألْوَتْ بهِ الصَّبا والدَّبورُ [2]

وقد يلجأ عدي إلى المفارقات الكبيرة يقيم عليها مواعظه ، فيعرض لك الوجه المشرق الوضيء لما يتأمله ، ثم يعقبه بالوجه القاتم المظلم الكالح ، فصنعاء المدينة الزاهية بمكانتها التاريخية وغناها المادي ، لم تسلم من تقلبات الأيام ، فبعد أن كانت حاضرة ملك عضوض متحضر ، منيعة الجانب ، محصنة الحدود ، دهمها القدر بجحافل الفرس ، فقوضت دعائم الملك وأطاحت بما حوى من نعيم وخيرات :

(١) الإمة : غضارة العيش والنعمة .
(٢) ألوت : ذهبت . والصبا : ريح تهب من المشرق ، وتقابلها الدبور .

ما بعدَ صنعاءَ كانَ يَعْمُرُها
وُلاةُ مُلْكٍ جَزْلٌ مَواهِبُها
رفَّعَها مَنْ بَنَى لَدى قَزَعِ الْـ
مُزْنِ وتَنْدَى مِسْكاً مَحاربها
مَحْفوفَةٌ بالجبالِ دونَ عُرى الكَيْـ
دِ فما تُرْتَقى غَوارِبُها (١)
يأنسُ فيها صوتُ النُّهامِ إذا
جاوَبَها بالعَشِيِّ قاصِبُها (٢)
ساقَتْ إليها الأسبابُ جُنْدَ بني الأحـ
رارِ فُرسانُها مواكِبُها (٣)
وكانَ يومٌ باقي الحَديثِ وزا
لَتْ أُمَّةٌ ثابِتٌ مَراتِبُها

والناس تتخطفهم المنايا من قلب النعيم إلى ظلمة القبر ، ومن لين الأسرّة والأنماط إلى صلابة الأرض والتراب :

بينما هُمْ على الأسرَّةِ والأنْـ ـماطِ أَفْضَتْ إلى التُّرابِ الخُدودُ

---

(١) غواربها : أعاليها .
(٢) النهام : ضرب من الطير . والقاصب : النافخ في القصب، أي الزامر .
(٣) بنو الأحرار : أراد بهم الفرس .

فيا للمفارقة الكبرى ، ويا للنقلة السريعة الشاسعة ، بينما هم يتقلبون في أعطاف النعيم سيقوا إلى نهايتهم المحتومة ، فكأنهم في لمحة عين أضحوا جثثاً هامدة ، تنهشها الديدان ، وتخدش الخدود الناعمة ذراتُ التراب الخشن .

ومن تأملاته لهذه المفارقات في سير الناس وأحوالهم ، وتعاقبها عليهم جميعاً ، سواء أكانوا ملوكاً يتبخترون أم سوقة يتنصفون ، يتنهي عدي إلى القانون الأزلي الذي يخضع له كل حي ، وهو الانتقال الحتمي من خفض العيش ونضارة النعيم إلى الموت الصامت واللحد المظلم :

وأرى ذا العيشِ لا تُحْرِزُهُ
لُمْعَةٌ يَعْمُرُ أوْ غيبُ وَطَنْ (١)
هلْ لهُ إنْ لمْ يَمُتْ في قَعَصٍ
من غِناهُ غيرُ قَبْرٍ وكَفَنْ (٢)
بينما يغبِطُه أشياعُهُ
قلَبَ الدهرُ له ظهرَ المِجَنْ

وقد يطرح الأسئلة المليئة بالعبر والتدبر ، كأنه يصيح بكل

---

(١) اللمعة : البلغة من العيش .
(٢) القعص : الموت السريع .

انسان رانت الغفلة على قلبه ، فحسب أن لا مـوت ولا فناء ، ليتنبه ويتأمل بقلبه النهاية المرتقبة للبشر أجمعين :

أينَ أهلُ الديارِ من قـومِ نوحٍ
ثم عادٌ مِنْ بعـدِهمْ وثمَودُ
أينَ آباؤنا وأينَ بنوهمْ
أينَ آباؤهمْ وأينَ الجُدودُ
سَلَكوا منهجَ المَنايا فبادوا
وأَرانا قد حانَ منّا وُرودُ

ويقول :

فاسألِ الناسَ أينَ آلُ قُبَيْسٍ
طحْطَحَ الدَّهْرُ قبلَهمْ سابورا (١)
ولقدْ عاشَ ذا جُنـودٍ وتاجٍ
ترهَبُ الأُسْدُ صوتَهُ إنْ تَزيرا
خطَفَتْهُ منيَّةٌ فتَرَدّى
وَهْوَ في المُلْكِ يأمُلُ التَّعْميرا

(١) آل قبيس : بطن من قبيلة ـ شهر ، الممتدة المنازل الكثيرة العدد. وطحطح : بدد وأهلك . وسابور : ملك من ملوك العجم .

وبنو الأصْفَرِ الملوكُ كَذا لمْ
يَتْرُكِ الدهرُ منهمُ مَذْ كورا
أينَ أينَ الفرارُ ممّا سيأتي
لا أَرى طائِراً نجا إنْ يَطيرا

وواضح أن هذه المواعظ انسانية عميقة النفوذ في النفس البشرية ، لأنها تتناول المصير الذي سيؤول إليه كل حي درج على ظهر الأرض ، وقد تعمق عدي هذه المعاني ، ووقف لها طاقته الشعرية ، وثقافته العقلية المتنوعة ، فجاءت غزيرة في مادتها ، منوعة في شكلها ، واستطاع بانسانية هذه المعاني وغزارتها وتلوينها ، والتأصيل لها بقصائد خاصة بها ، أن يسمعنا لحناً جديداً واضحاً ، ما كانت تتساقط إلى مسامعنا منه في العصر الجاهلي إلا نغمات متفرقات ، من حكمة زهير ولبيد وطرفة ، تنبعث من البيت أو البيتين ، ثم تتلاشى بين ضجيج النغمات الأخرى التي حفلت بها القصيدة الجاهلية .

وقد انسابت هذه المعاني من نفس الشاعر انسياب الماء الرقراق من الكأس المترعة في عفوية ويسر ، لم يلق في صوغها عنتاً ولا رهقاً ، ذلك أن فكرة الموت والفناء قد ملأت عليه تفكيره كله ، وأفعمت نفسه ومشاعره ، ففاضت بهذه المعاني

صافية صادقة واضحة ، لا تكلف فيها ولا تزوير ولا غمـوض ، فدلت بذلك على ذهن شاعري صاف ، وشعور صادق عميق .

وتتسم هذه المعاني أيضاً بالتسلسل القصصي المنظم ، لغلبة السرد والعرض على معظمها ، ولذلك جاءت رخية متتابعة ، آخذاً بعضها برقاب بعض . ولعل ثقافة الشاعر واطلاعه الواسـع كان سبباً في تنظيم هذه المعاني وتسلسلها ، بحيث تخدم غرضه الوعظي ، وتؤصل لفكرة الموت التي شغلت باله وملكت عليه تفكيره .

ولم يصدر عدي في مواعظه عن ذهنه فحسب ، بل عاشها بذهنه وقلبه وروحه جميعاً ، ومن ثم لم يعرضها عرضاً ذهنياً بارداً جافاً ، وإنما عرضها عرضاً حياً حاراً ، فيه خفقة الحياة ، ودفقة العاطفة الصادقة المتأججة ، وصنيع الشاعرية الخصبة الأصيلة من تصوير رائع ، وسبك متين أخاذ ، وإيقاع معبّر موح .

فالمواعظ عنده تأتي ضمن أطر رائعات من الصور الشاخصة التي تكسب المعنى الذهني الحياة والقوة والحركة ، فلنستمع إليه يصف دفع المنايا جموع الترك الزاحفة من قـرار بلادهم ، لتلقى حتفها ، فيشبهها بالجراد المنتشر فيقول :

وجِئْنَ بتُركٍ مِنْ قرارِ بلادهِمْ
يَسيرُ بجَمْعٍ كالدَّبا المُتسانِدِ [١]

وهو تشبيه سريع يشخص مشهد الزحف ، ويرسم صورة لكثرة الترك الزاحفين في كلمات . والملوك باد عنهم الملك ، وطوام الزمان ، فأضحوا كالورق الجاف لعبت به الصبا والدبور :

ثم أضْحَوْا كأنّهمْ ورقٌ جـ ـفَّ فألوتْ بهِ الصَّبا والدَّبورُ

ويكثر من التشخيص لإبراز فكرته عن المـوت وأخـذه الناس ، فالمنايا تصرع الملوك ، وتزلزل العروش :

صَرعْنَ قُباذاً ربَّ فارسَ كلّها
وحشَّتْ بأيديها بوارِقَ آمـِدِ
وملكَ سليمانَ بنِ داوودَ زلزلتْ
ورَيْدانَ قد ألحقْنَهُ بالصَّعائِدِ

والموت يدرك كل حي ، ويصل إلى أعلى المعاقل والحصون :

يدركُ الأعصم الغرور ويردي الطير في النّيق يبتنين الوكورا [٢]

---

(١) الدبا أصغر الجراد .

(٢) الأعصم من الظباء والوعول : ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر . والنيق : أرفع موضع في الجبل .

وللخير والشر حركة دائبة ودوران لا ينقطع ، تكرْ بهما الأيام حاملة الخير تارة والشر تارة أخرى ، فما من خير إلاوأعقبه شر ، وما من شر إلا وأعقبه خير ، ولا يدوم على مدى الأيام حال :

أَلم تَعْلَموا للخيرِ والشَّرِّ مَوْرَةً
تَناقَلُها الأيامُ عُوجاً رَواجِعا

وقد يرسم المشهد المتخيل حافلاً بالحركة واللهو والمرح ، فترتسم أمام أعيننا شخوص القوم ومجالسهم وموائدهم وجيادهم ، وإذا بالموت يعصف بهم ويسدل عليهم الستار ، ويجعلهم نسياًمنسياً:

رُبَّ ركبٍ قَدْ أناخوا حَوْلَنا
يمزُجونَ الخمرَ بالماءِ الزُّلالِ
والأباريقُ عليها فُدُمٌ
وجيادُ الخيلِ تَرْدي في الجِلالِ (١)
عُمِّروا دهراً بعيشٍ نَضِرٍ
آمني دهرِهمُ غيرَ عِجالِ
ثم أضحَوْا عصَفَ الدهرُ بهمْ
وكذاكَ الدهرُ يُودي بالرِّجالِ

(١) الفدم : جمع فدام بفتح الفاء وكسرها ، وهو ما يوضع في فم الابريق لتصفية الشراب . وتردي : تعدو

إنه شريط سريع في عرضه ، ولكنه بديع في تصويره ، فقد صور مجلسهم الهادىء وعيشهم الرغد في أبيات ثلاثة ، ثم عصف الدهر بهم في بيت واحد ، بل في شطر منه ، وفي ذلك تخييل لسرعة الأخذ ، وتعفيتها على كل ما رسم في هذا المشهد من صور الشراب والنعيم والعيش اللين النضير .

ويستخدم عدي الكناية أيضاً في عرض أفكاره الوعظية ، ومنها:

قتَلوا كسرى أميناً مُحْرِماً
غادَروه لم يُمتَّعْ بكَفَنْ
طاهرَ الأثواب يَحْمي عِرضَهُ
من خَنَى الذِّمَّةِ أو طَمْثِ العَطَنْ (١)

وربما أتى بالمثل القائم على الكناية البارعة في إطار من التشخيص:

بينما يغبِطُه أشياعُه قلَبَ الدهرُ له ظهرَ المِجَنْ

وإنها لصورة رائعة مخيفة ، مليئة بالعبرة المذهلة ، ذلك أن الذي يقلب للانسان ظهر المجن فجأة ، فيستبدل بالنعمة بؤسى ، وبالعزة ذلاً ، وبالحياة موتاً ، ليس صديقاً مسالماً ولا عدواً مداجياً ، وإنما هو الدهر ، ولا رادّ لقضائه ، ولا منجي من ضرباته القاصمات .

---

(١) الطمث : الدنس والفساد . والعطن : العرض .

وقد تخير عدي لمواعظه اللفظ الكريم الحر الجزل ، الذي يوحي بعنف ضربات الموت ، ويشي بفظاعة استئصاله الأحياء والعروش ، فاسمعه يقول :

صرعْنَ قباذاً ربَّ فارسَ كلِّها
وحشّتْ بأيديها بوارقَ آمدِ
وغُصْنَ على الحِيقار وَسْطَ جنودِه
وبيَّتْنَ في لذّاته ربَّ ماردِ
وملكَ سليمانَ بنِ داوودَ زَلزلَتْ
وريدانَ قد ألحقْنَهُ بالصّعائدِ

وكلها ألفاظ نخمة جزلة تقرع الآذان ، ولقد أوتي عدي موهبة فائقة في اختيار اللفظ النقي المناسب بجرسه وظلّه للمعنى الذي يعبر عنه ، وللجو الذي يرسمه ، فكأن الألفاظ تقفز إلى ذاكرته فيصطفي منها ما يريد ، ولنسمعه أيضاً يقول :

فاسألِ الناس أينَ آلُ قُبَيْسٍ
طَحْطَحَ الدهرُ قبلَهمْ سابورا

فما أجمل (طحطح) في هذا المقام ، إنه لفظ أوحى بجرسه الثقيل عنف الضربة التي أنزلها الدهر بسابور ، ورسم حوله ظلال القوة والبطش والجبروت .

وقد صاغ عدي ألفاظه المنتقاة في تراكيب محكمة النسج ، رصينة السبك ، رائعة الصياغة ، وأنزل كل لفظ في مكانه المناسب بحيث يشع شحنته من الايقاع والصور والظلال ، دون أن تلمح في أسلوبه أثراً للتكلف أو التحكيك أو التزويق . وهذا دليل على أصالة التجربة الشعورية وصدقها في مواعظ عدي .

ومن هذا الانفعال الحار بجو الموعظة كانت تتفجر على لسان عدي تلك الأسئلة ، وتتكرر كلمة (أين) ، وتتلون الصيغ، فتنتقل من الإخبار إلى الإنشاء ، كأنها تحكي نفس الشاعر اللاهث المكدود :

أينَ أهل الديارِ من قومِ نوحٍ . . ؟ أين آباؤنا ؟ أين بنوهم ؟ أين آباؤهم ؟ أين الجدود ؟ . . أين أين الفرار . . ؟

ومن هذه التجربة الشعورية الصادقة الحارة كانت تنسرب الموسيقا الشجية النائحة من ألفاظ الشاعر وتراكيبه وقوافيه ، ومن حروف المد التي كان يتكئ عليها في إطلاق زفرات النفس وآهات القلب .

لقد عانى عدي عظاته بقلبه قبل أن يعالجها بفكره ، فجاءت بمعانيها العميقة ، وصورها الشاخصة ، وأسلوبها الجزل ، وإيقاعها الحزين ، تنبض بالحياة والعبرة ، وتحكي أصالة الشعور ، وتحمل

إلى الأدب العربي لوناً جديداً واضحاً من الشعر الانساني، في تلك الفترة الجاهلية المبكرة .

ولمواعظ عدي ، عدا القيمة الفنية ، قيمتان كبيرتان : قيمة انسانية ، وقيمة تاريخية .

١ ـ القيمة الانسانية :

إن من يقرأ مواعظ عدي يجد نفسه أمام شعور انساني عميق بدوران الأيام ، حيث تطوي في لجة الموت الأملاك والعظماء ، فلا تبقي على أحد مهما علت مكانته وسما مقامه ، ومهما أحاط به من أنصار ، وجُبيَ إليه من ثمرات :

أيها الشامتُ المعيِّرُ بالدهـ
ـرِ أأنتَ المُبرَّأُ الموْفورُ
أم لديكَ العهدُ الوثيقُ من الأيّا
مِ أم أنتَ جاهلٌ مغرورُ
مَنْ رأيتَ المنونَ عرَّينَ أم مَنْ
ذا عليه من أن يُضامَ خَفيرُ
أينَ كسرى كسرى الملوكِ أَنوشِرْ
وانُ أم أين قبلَهُ سابورُ

وبنو الأصفرِ الكرامُ ملوكُ الر
وم لم يبقَ منهمُ مذكورُ

لقد عصفت يد المنون بهؤلاء الملوك جميعاً ، فعُرُّوا مما عليهم من ثياب النعمة والثراء ، وضل عنهم ما كانوا يستمتعون به من سلطان وعزة ونعيم ، ولم تغن عنهم أموالهم وأملاكهم وأنصارهم وحصونهم من الموت شيئاً :

ثمَّ بعدَ الفلاحِ والرُّشْد والإمَّ ة وارتهمُ هناكَ القُبورُ
ثم أضحَوْا كأنَّهمْ ورَقٌ جَـ ـفَّ فألْوَتْ بهِ الصَّبا والدَّبورُ

وتشفّ هذه المواعظ وترق فتصور غفلة الانسان واندماجه في لهو الحياة ومسراتها ، وهو لا يعلم ما تخبئه له الأيام والساعات المقبلات بأسلوب رشيق ، ولفظ ناعم عذب ، وتصوير رائع أخاذ :

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوّلِه
إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أَسْحارا

٢ ـ القيمة التاريخية :

يبدو عدي من خلال مواعظه المفكر المتأمل الذي يرصد حوادث الأيام من خلال التاريخ ، ويصوغ من مصارع الغابرين ونكباتهم الحكم الخالدة ، ويقرر الحقائق المتصلة بالحياة والأحياء

على مدى العصور وكر الأزمان .

ومن ثم كان شعره سجلاً حافلاً بحوادث التاريخ ، وأسماء الملوك والممالك والمدن والأمم ، وقد مر بنا الكثير من هذه الحوادث والأسماء ، ولا يزال لدينا الكثير من الشواهد عليها .

في القصيدة (٥) يعرض لغزو الفرس لليمن ، فيذكر صنعاء وتداول الفاتحين عليها ، ثم يذكر الحضر ، ذلك القصر العالي المنيف الذي لم يسلم من ضربات الزمان ، إذ خانت البنت أباها ودلت عليه العدو ، فنالت هي جزاء فعلتها ، وخرب الحضر واستبيح وأضحت سواءً دورُه ومقابره :

والحضرُ صُبَّتْ عليهِ داهِيَةٌ
من فوقهِ أيِّدٌ مناكِبُها
رَبِيَّةٌ لمْ تُوَقّ والدَها
لِحُبِّها إذْ أضاعَ راقِبُها [(١)]
إذ غبَقَتْهُ صهباءَ صافيةً
والخمرُ وَهْلٌ يَهِيمُ شارِبُها [(٢)]

---

(١) ربية : فعيلة بمعنى مفعول ، من ربّى يربي .

(٢) الوهل : فقدان الادراك ، من وهل الرجل إلى الشيء إذا ذهب وهمه إليه وهو يريد غيره .

فأسلمَتْ أهلَها بِلَيْلتِها
تظنُّ أنَّ الرئيسَ خاطِبُها
فكانَ حظُّ العَروسِ إذْ جشَرَ الصُّبْ
حُ دماءً تجري سَبائِبُها (١)
وخُرِّبَ الحضرُ واستُبيحَ وقد
أُحْرِقَ في خِدْرِها مَشاجِبُها

وفي القصيدة (١٩) يعرض حشداً من الملوك الغابرين : قباذ ، الحيقار ، سيد حمير ، سليمان بن داوود ، ملوك الروم ، ويورد أيضاً طائفة من الأمم والأجناس : الفرس والترك والحبش.

وفي القصيدة (٦) يأتي على ذكر كسرى وسابور وملوك الروم وصاحب الحضر الضيزن النخعي ، وصاحب الخورنق النعمان ابن امريء القيس اللخمي الملقب بالنعمان الأكبر .

وتدور هذه الأسماء على لسان عدي في أكثر مواعظه ، يضرب بأصحابها الأمثال ، ويستخرج العبرة ، ويسوق العظة للسامعين.

ومن الحوادث التاريخية التي ساقها عدي ، وهو في السجن للنعمان قصة ابن بختنصر ، الذي تخير لوزارته من رعى شؤون ملكه ونصح له وكتم سره ، فعاش مهيباً محبوباً منيعاً :

(١) جشر : أضاء وسبائبها : طرائقها .

أَلا في الأولِ الماضي اعتبارٌ ... لذي عقلٍ أخي فهمٍ بَصيرِ
تَخَيَّرَ للوزارةِ مَنْ رَعاهُ ... بإشفاقٍ ونُصحٍ في الأُمورِ
وحصَّنَ سِرَّهُ فعَلا مَهيباً ... يُجازي القُلَّ بالجَمِّ الكَثيرِ
وواتاه الزمانُ فعاشَ دهراً ... مَنيعاً في السُّهول وفي الوُعورِ

ولكن لم تمنعه قوته وحزمه وتدبيره من الموت المنغص للسرور ، وهذه سنة الكون ألا يبقى على الأرض باق سوى الاله العزيز القدير :

ولم يمنَعْهُ تدبيرٌ وحَزْمٌ ... مِنَ الموتِ المنغِّصِ للسُّرورِ
وما يبقى على الأيامِ باقٍ ... سوى ذي العِزَّةِ الربِّ القَديرِ

وهكذا جمعت مواعظ عدي القيمتين الانسانية والتاريخية ، فضلاً على القيمة الفنية التي تبدت لنا في أسلوب عدي الوعظي الحي ، فكان لها ، بما تحمل من قيم ، مكانها المرموق في ديوان شعر العرب .

★ ★ ★

ب - الشعر القصصي : القرون الخالية والأمم السالفة

من الظواهر البارزة في شعر عدي الشعر القصصي . والقصة في هذا الشعر لا تأخذ عنده الشكل الوصفي المبني على الملاحظة الحسية والمشاهدة الواقعية ، كما هو الحال عند بعض الشعراء الجاهليين كالأعشى وعنترة والنابغة ، وإنما تأخذ عند عدي شكلاً آخر قائماً على الثقافة العميقة والاطلاع الواسع ، وتتفرع في فرعين اثنين : القصص التاريخي والقصص الديني .

أما القصص التاريخي فهو منطلق كبير من منطلقات عدي في مواعظه ، ومنبع خصب من منابعها ، وإطار واسع يضمنه الكثير من جولاته الواسعات في تاريخ الأمم والملوك . ولقد عرضنا في الفقره السابقة من مواعظه لكثير من هذه القصص ، وسقنا العديد من الشواهد ، فرأينا عرضه لقصة الحَضْر وصاحبه الضَّيْزَن وابنته النَّضِيرة ، وقصة جذِيمة والزبّاء وقصير ، وقصة الخوَرْنَق وصاحبه النعمان الأكبر وغيرها ، ورأينا كيف كان عدي يعرض مواعظه في هذه الاستدرات القصصية الواسعة ، فيستخلص منها العبر ، ويسوق المواعظ لكل غافل عن الموت أو عن تقلبات الأيام .

وقصص عدي التاريخي ، منه السريع الذي يكتفي عدي

بالاشارة العابرة إليه ، كما في حديثه عن سيد حمير وبني الناصور وملوك الروم ، ومنه المفصل الواسع الذي يلم بحوادث القصة من البدء حتى النهاية ، ومن هذا النوع قصة جذيمة والزباء وقصير ، وقصة الحضر وصاحبه الضيزن وابنته النضيرة .

وأسلوب عدي في قصصه التاريخي متصل بسبب وثيق بأسلوبه في مواعظه ومن ثم كان يغلب عليه التوهج والاشراق والحيوية في العبارات والتراكيب والصور ، وهو اسلوب يشي بحرارة انفعال الشاعر بالموضوع الذي يعالجه ، وهو التأمل في أحوال الناس الغابرين واستخلاص العبرة وسوق العظة للأحياء . وقد ملك هذا الموضوع على عدي تفكيره ، وأثار ما في نفسه من أحاسيس ومشاعر

وأما قصصه الديني فقوامه قصيدتان اثنتان ، الأولى في منشأ الخلق ، وقصة خلق آدم وحواء ، وهبوطهما من الجنة . يقول :

اسمعْ حديثاً كما يوماً تُحدِّثُه
عَنْ ظَهْرِ غيبٍ إذا ما سائلٌ سَألا

أنْ كيفَ أبدى إلهُ الخلقِ نعمتَهُ
فينا ، وعرَّفنا آياتِهِ الأُوَلا

كانتْ رياحٌ وماءٌ ذو عُرانيَةٍ
وظُلْمَةٌ لم تَدَعْ فَتْقًا ولا خَلَلا [1]
فأمرَ الظُّلْمةَ السوداءَ فانكشفَتْ
وعزَلَ الماءَ عمّا كانَ قدْ شَغَلا
وبسَطَ الأرضَ بسْطاً ثم قَدَّرَها
تحتَ السماءِ سَواءً مثلَ ما فَعَلا
وجعلَ الشمسَ مِصْراً لا خَفاءَ بِهِ
بينَ النهارِ وبينَ الليلِ قدْ فَصَلا [2]
قضَى لستةِ أيامٍ خليقَتَهُ
وكانَ آخرَها أنْ صَوَّرَ الرَّجُلا
دعاهُ آدمَ صوتاً فاستجابَ لهُ
بِنَفْخَةِ الرّوحِ في الجسمِ الذي جَبَلا
ثُمَّتَ أورثَهُ الفِرْدَوْسَ يَعْمُرُها
وزوجَهُ صَنْعَةً من ضِلْعِهِ جَعَلا
لم يَنهَهُ ربُّهُ عن غيرِ واحدةٍ
مِنْ شجرٍ طيِّبٍ: أَنْ شمَّ أو أَكَلا

---

(١) ماء ذو عرانية : الكثير ، المرتفع العباب .
(٢) المصر : الحدّ .

فكانتِ الحيَّةُ الرقشاء إذْ خُلقَتْ
كما ترى ناقةً في الخلْقِ أوْ جملا
فعمدا لِلَّتي عَنْ أكلِها نُهِيا
بأمرِ حوَّاءَ لم تأخذْ لهُ الدَّغلا
كِلاهُما خاطَ إذْ بُزّا لَبوسَهما
مِنْ ورقِ التينِ ثوْباً لم يكُنْ غُزِلا
فلاطَها اللهُ إذْ أغوَتْ خليفتَهُ
طولَ الليالي ، ولم يجعلْ لها أَجلا
تمشي على بطنها في الدهرِ ما عَمِرَتْ
والتُّرْبُ تأكلُه حَزْناً وإنْ سَهُلا
فأُتعِبا أَبوانا في حياتِهما
وأوْجدا الجوعَ والأوْصابَ والعِلَلا
وأُوتِيا المُلْكَ والإنجيلَ نقرأُهُ
نَشْفي بحكمتِه أَحْلامَنا عِلَلا
من غيرِ ما حاجةٍ إلا ليجعلَنا
فوقَ البريّةِ أرباباً كما فعَلا

وهي حديث متسلسل عن بدء الخلق ، وكيف كانت

الدنيا رياحاً وماء وظلمة ، ثم فصل الله الماء عن اليابسة ، وكشف الظلمة ، وبسط الأرض وركبها تحت السماء ، وأوجد الشمس حداً فاصلاً بين الليل والنهار ، وأنه خلق الخليقة في ستة أيام وبدأها بآدم ، وخلق من ضلعه زوجه ، وأسكنهما الفردوس ، ونهاهما عن أكل الشجرة ، وكانت الحية كالجمل في خلقها ، فمسخها الله لمشاركتها ابليس في إغواء آدم . وعصيا ربهما، فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق التين ، ومن هنا بدأ التعب والنصب في حياة الأبوين ، وأهبطا إلى الأرض ، وأرسل الله رسالاته للانسان لترتفع به على مر الأزمان .

وواضح أن هذه القصيدة تتضمن جملة من الأخبار التي وردت في الكتب السماوية ، وهي أخبار نقلها من عدي النصراني، الذي اطلع على ما بين يديه من كتب دينية نصرانيةوأخرى يهودية. وقد رأينا في القصيدة ذكره للانجيل ، وأن في قراءة حكمه شفاء للمعقول من العلل .

والقصيدة الثانية تذكر سعي ابليس إلى حواء ووسوسته لها حتى أغوت آدم ، فأهبطا من الجنة ، ومطلعها :

سعَى الرجيمُ إلى حوّا بِوَسْوَسَةٍ

غوَتْ بِها وغَوى مَعْها أبو البَشَرِ

وهي لا تخرج في مضمونها عن مضمون القصيدة الأولى في كثير .

وإلى جانب هاتين القصيدتين هناك اشارات سريعةإلىبعض الأنبياء وأقوامهم الذين ذكرتهم الكتب السماوية ، كقـوم نوح وعاد وثمود .

واسلوب هذا القصص الديني في جملته هادىء ، تسلسلت فيه المعاني بتتابع دونما تزويق ، وغلب عليه السرد الرتيب ، فأثر العقل فيه أكثر من العاطفة . ومن ثم خلا من توهج الانفعال الحار وألق العاطفة المتقدة .

ولشعر عدي القصصي بفرعيه دلالتان اثنتان :

أولاهما : ثقافة عدي التاريخية والدينية ، فلقد ألم بجملةمن أخبار المتقدمين من ملوك وأمم ، وتحدث عن حضارات غبرت، ومدن اندثرت ، واستفاد من ذلك كله في تطعيم مواعظه وعرضها في إطار تاريخي قصصي جذاب .

وثانيتهما : سبق عدي في الشعر القصصي . ولقد سبق أن قلت في مستهل هذه الفقرة : أن قصص عدي يفترق عما روى للشعراء الجاهليين من شعر قصصي ، من حيث كونه قصصاً

مبنياً على الثقافة والاطلاع ، وليس مقصوراً على الملاحظة الحسية والمشاهدة الواقعية ، وأضيف هنا : أنه قصص يدور حول موضوع واحد ، فقصصه التاريخي في جملته يدور حول العبرة بزوال الممالك وفناء الأمم والشعوب ، وقصصه الديني يدور حول نشأة الخليقة ، وخطيئة الأبوين ، وهبوطهما إلى الأرض .

ويتصف قصص عدي أيضاً بتسلسل الحوادث وترتيبها ، فهو يسوق الأخبار والحوادث في ترتيب منطقي متلاحم ، يدل على أثر ثقافة الشاعر في تنظيم أفكاره وعرضها .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن شعر عدي القصصي يعد بالقياس إلى عصره فتحاً جديداً في أغراض الشعر العربي ومضمون القصيدة العربية ، وإن عدياً قد سبق إلى فتح هذا الباب القصصي لمن جاء بعده من الشعراء الذين نظموا في هذا اللون من الشعر كأمية بن أبي الصلت والنابغة وغيرهما ، هذا اللون الذي لم يكتب له الشيوع والازدهار في شتى عصور الأدب العربي ، لأسباب جعلت الشعر العربي مشدوداً دائماً بخيط وثيق إلى هيكل القصيدة العربية وعمود الشعر التقليدي .

ويشير الجاحظ في كتابه الحيوان إلى سبق عدي إلى هذا الشعر القصصي ، وإلى أخذ النابغة هذا اللون من الشعر عنه ،

إذ يورد قصيدة النابغة التي يضرب فيها لبني مرّة مثل الحية ذات الصفا وقصة خيانة حليفها لها ، فيقول [١] : « ذهب في الحيات مذهب أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد العبادي وغيرهما من الشعراء » .

ونحن إذا علمنا أن أمية والنابغة قد جاءا بعد عدي ، وأن الأول قد تأثر في شعره بأهل الكتاب فاستمد كثيراً من موضوعاته من الثقافة النصرانية واليهودية ، وأن الثاني قد عاش في البيئة التي عاش فيها عدي ، واتصل بالبلاط والملك الذي اتصل به عدي ، ترجح لدينا تأثر هذين الشاعرين بشعر عدي القصصي ، وبخاصة إذا علمنا ما كان يلقى شعر عدي من أهل الحيرة من رواج واهتمام . يقول الجاحظ [٢] : « ولأهل الحيرة بشعره عناية ، وقال أبو زيد النحوي : لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد » .

وبذلك نستطيع أن نضيف الشعر القصصي باباً جديداً من الأبواب الشعرية التي طرقها عدي وسبق إليها .

---

(١) الحيوان ٤/٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) الحيوان ٧/١٤٩ .

م ـ الحكمة :

ليست الحكمة في شعر عدي شيئاً بعيداً عن مواعظه، بل بل إن بينهما تداخلاً وتلاحماً في مواضع كثيرة من شعره والدارس المتأمل شعر عدي لا يكاد يقع على قصائد مستقلة في الحكمة كما هو الحال في قصائده عن الموت والفناء وسير الغابرين ، اللهم إلا قصيدته الدالية :

أتعرِفُ رسمَ الدّارِ من أُمِّ مَعْبَدِ
نعمْ ! ورَمَاكَ الشوقُ قبلَ التجلُّدِ

فقد حفلت هذه القصيدة بالحكم والنصائح . وما خلا هذه القصيدة ، لا نجد فيما سلم لنا من شعر عدي ، إلا أبياتاً مفردة معدودة في الحكمة ، أو أبياتاً مبثوثة في تضاعيف حديثه عن الأمم السالفة ، يضمنها النتيجة التي يصل إليها من خلال رصده للأحداث ، ويصوغ منها العبرة التي تلوح له ومضاتها ، وهو يستعرض أنباء الغابرين .

ففي قصيدته النونية مثلاً يسرد قصة جذيمة الأبرش والزبّاء بتفاصيلها ، ولا يفوته أن يسوق الحكمة هنا وهناك كتعليق لا بد منه ، فما كانت القصة غرضه ، وإنما هي وسيلة للحكمة والعظة ،

وهي الاطار الكبير الذي يريد إن يعرض فيه الحكم ، ويبرز العبر ، ويستخلص النتائج :

لِخِطِّيبَى الـتي غدرتْ وخانَتْ
وهُـنَّ ذواتُ غائِلَـةٍ لُحِينا (١)
وقـد غرَّتْ جذِيمةَ ثم غُرَّتْ
وكانَ الدهرُ آوِنَةً فُنونا
فأرْدَتْهُ ورُغْبُ النّفسِ يُرْدي
ويُبْدي لِلْفتى الحَينَ المُبِينا

وحكمة عدي بنت تفكيره العميق في أحوال الناس وأعرافهم وسلوكهم وتقلبهم في معترك الحياة ، ووليدة ما وصل إليـه من تجارب ومشاهدات ، وما حصّل من ثقافة دينية وتاريخية ، عربية وفارسية .

ومن هنا كانت هذه الحكمة تدور حـول مصائر النـاس وحياتهم وسلوكهم .

فالمصائر مقررة ، من كتبت له السعادة فاز ، ومن كتبت عليه الشقاوة ضل وخاب والحياة مؤقتة زائلة ، والمنايا تترصد الأحياء

(١) خطيبى : خطبة ، وأراد بها خطبة الزباء التي غدرت بجذيمة .

لتتخطفهم في آجالهم المحدَّدة ، وإنهم عنها لغافلون :

أعاذلُ : ما يدريكِ أنَّ منيَّتي
إلى ساعةٍ في اليومِ أو في ضُحى الغدِ

أما سلوك الانسان في هذه الحياة فينبغي أن يكون منسجماً مع طبيعتها المؤقتة ، ومن هنا كان الكرم أولى بالانسان وأجدر ، وما ينفقه في حياته يبقي ذكره ، ويخلّد مآثره بين الناس :

ذَريني فانّي إنّما ليَ ما مَضَى
أمامِيَ مِنْ مالي إذا خَفَّ عُوَّدي
وحُمَّتْ لميقاتي إليَّ مَنيَّتي
وغُودِرْتُ إنْ وُسِّدْتُ أو لَمْ أُوَسَّدِ
ولِلْوارِثِ الباقي منَ المالِ فَاتْرُكي
عِتابي فانّي مصلحٌ غيرُ مُفْسِدِ

والكرم يدفع عنك شكوى الأصدقاء وتذمر الأخلاَّء ، وما أمسك انسان يده عن البذل إلا سلقته ألسنة اللائمين،ونسبته إلى الخسة واللؤم ، فمن كانت منه بخلة فلا يبخلنَّ ثانية ، ذلك أنقى لسمعته بين الناس :

ولا تُلْحِ إلاَّ مَنْ ألامَ ولا تَلُمْ
وبالبذلِ مِنْ شَكْوى صَديقِكَ فَافْتَدِ

وللخلقِ إذلالٌ لِمَنْ كانَ باخلاً
ضنيناً ومَنْ يبخلْ يَذِلَّ ويُزْهَدِ
ولَلْبخلةُ الأولى لِمَنْ كانَ باخلاً
أعفُّ ومَنْ يبخلْ يُلَمْ ويُزَهَّدِ

والرجل القدوة ينبغي أن يجتنب مواطن الشبهات ، وألا يقف مواقف التهم ، ليكون النموذج الحي الكريم للفضائل ، يحتذيه الناس فلا يضلون بتقليده ، ولا يزيغون بالاقتداء به :

فنفسَكَ فاحفَظْها عن الغَيِّ والرَّدى
متَى تُغْوِها يَغْوَ الذي بك يَقْتَدي
وإنْ كانتِ النَّعماءُ عندكَ لامْرِئٍ
فَمِثْلاً بِها فاجْزِ المُطالِبَ وازْدَدِ

فالانسان ينبغي أن يحفظ المعروف فلا ينساه ، وأن يبقى وفياً لأصدقائه فلا يصرمهم وأن يصاحب الأخيار ويبتعدعن الأشرار:

إذا كنتَ في قومٍ فصاحِبْ خِيارَهُمْ
ولا تصحبِ الأرْدى فترْدَى مع الرَّدي

وينظر عدي إلى الخِدْن وماله من أثر بالغ على أخلاق خدينه وسلوكه فيطلب إليك في بيته المشهور ألا تسأل عن المرء ، بل

سل قرينه فهو الصورة المماثلة له في كل سجية وخليقة :

عنِ المرءِ لا تسألْ وسَلْ عَنْ قَرِينِه
فكلُّ قَرينٍ بالمُقارَنِ يَقْتَدي

والانسان في نظر عدي ينبغي أن يكون قوياً ينفع ويضر ، عزيزاً لا يلين إلا لمن لان له وطلب وده :

إذا أنتَ لم تَنفَعْ بوُدِّكَ أهلَهُ
لمْ تَنْكِ بالبُؤْسَى عدوَّكَ فَابْعُدِ
إذا ما امرُؤٌ لم يرجُ منكَ هَوادةً
فلا تَرْجُها منهُ ولا دفعَ مَشْهَدِ
وعَدِّ سواهُ القولَ واعلمْ بأنَّهُ
متَى ما يُبِنْ في اليوم يَصْرِمْكَ في غَدِ

والرجل الحق من كان ثابتاً رزيناً ، عفّاً حليماً ، إذا قال عدل ، وإذا حكم استقام :

إذا أنتَ فاكهتَ الرجالَ فلا تَلَعْ
وقُلْ مثلَ ما قالوا ولا تَتَزيَّدِ
وإياكَ مِنْ فَرْطِ المُزاحِ فانَّهُ
جَديرٌ بِتَسْفيهِ الحَليمِ المُسَدَّدِ

إذا أنتَ طالبتَ الرجالَ نوالَهمْ
فعِفَّ ولا تأْتِ بجَهْدٍ فتَنْكَدِ
ستُدْرِكُ من ذي الفُحشِ حقَّكَ كلَّهُ
بحِلْمِكَ في رِفْقٍ ولمّا تَشَدَّدِ
وبالعَدْلِ فانطِقْ إنْ نطقتَ ولا تَجُرْ
وذا الذَّمِّ فَاذْمُمْهُ وذا الحَمْدِ فاحْمَدِ

ويرى عدي في القوة الدرع الواقي لكل حق ، والزاجر الدافع الماحق لكل ظلم وعدوان :

ومَنْ لم يكُنْ ذا ناصِرٍ عندَ حَقّهِ
يُغَلَّبْ عليهِ ذو النَّصيرِ ويُضْهَدِ
وفي كَثْرةِ الأيدي عنِ الظُّلْمِ زاجِرٌ
إذا حضرَتْ أيدي الرجالِ بِمَشْهَدِ

ومعظم هذه الحكم والنصائح وردت في قصيدته الدالية ، وقد انطلق فيها من نقطة ردّه على عاذلة هبت بليل تلومه ، وتغلو في لومه ، ففجر هذا اللوم ينابيع الحكمة في نفسه ، فراح يمتاح منها الأفكار ، ويسوق القيم والأخلاق الاجتماعية التي ينبغي أن يلتزمها كل فرد .

ولذلك غلب على هذه الحكمة طابع النصح والوعظ والارشاد ، وحفلت بصيغ الطلب ، من استفهام وأمر ونهي ونداء ، وكثر فيها الالتفات . وقد أكسبها هذا التنوع والتلون في الصيغ حيوية وحرارة ، وكشف عن صدق انفعال الشاعر وإيمانه بما يقول .

وقد يلجأ عدي إلى التشبيه التمثيلي يعرض به حكمته ، فيبرز المعنى الذهني أو الحالة النفسية في صورة محسوسة شاخصة، يستقيها من واقع الحياة ومعطياتها . ومن ذلك نهيه عن أن يلح الانسان في طلب شيء فاته ، وإلاّ كان كدودة القزّ ، كلما ازدادت على نفسها لفاً ازدادت من الخروج بعداً :

ولا تكُ في الإلحاحِ في إثْرِ فائتٍ
تحاولُ منه فائتاً ليسَ يُطْلَبُ
كصانِعَةِ القَزِّ التي كلمّا ارتَدَتْ
بصَنْعَتِها كانتْ إلى اللَّبْثِ أَقْرَبُ

ويرى أن من يتعب نفسه في دوامة الحياة كمن يرد ماء من ملح أجاج ، فما يشربه لا ينقع له غلة ، ولا يطفىء له أوار ، بل يزيده ظمأ على ظمأ :

مطالِبُ دنياهُ باتْعابِ نفسهِ
كَورَّادِ ماءٍ مِنْ أُجاجٍ مُكَدَّرِ

فما ازدادَ شُرْباً منه إلاَّ أَثابَهُ
بهِ عَطَشاً يَرْويهِ في كلِّ مَصْدَرِ

وبعد ، فان جمال هذه الحكمة بصدقها الشعوري ، وبقربها من النفوس وتجاوبها معها بما تحمل من قيم انسانية أخلاقية رفيعة ، وبلصوقها بحياة الناس ومعايشهم ، وبطلاوة عرضها وحيويته ، وببساطتها وطبيعتها ؛ ذلك أن عدياً في هذه الموضوعات التي تنبع من قلبه وتلامس أعصابه ، يصدر عن عفوية صادقة ، وطبع سجح متدفق ، فتنثال على لسانه المعاني رخية متتابعة ، متسلسلة منسجمة ، لا وعورة فيها ولا غموض ، ولا تكلف ولا تقعر ، ولا اجهاد ولا تحكيك . بل إنه ليعرضها بلفظ رشيق عذب متخير ، وتركيب رصين محكم النسج ، متين السبك ، تنبعث منه الموسيقا الهادئة الشجية ، المناسبة لجو الحكمة الهادىء الرزين .

ز - الشيب والشباب :

لعدي في الشيب والشباب والبكاء على أيام الصبا الوضيئة أبيات لطيفة ، يتجهم فيها للشيب ، ويرى فيه مزاحماً خطيراً للشباب الرفيق الحبيب الذي صحبه فأحسن صحبته ، ورعاه فكان أحب شيء لديه . يقول :

نَزَلَ المَشيبُ بوفدِهِ لا مَرْحبا
وراى الشَّبابُ مكانَهُ فتجَنَّبا
ضيفٌ بغيضٌ لا أرى ليَ عُصْرَةً
منهُ هربتُ فلمْ أجدْ ليَ مَهْرَبا
بُدِّلْتُ بالعيشِ اللّذيذِ ونعِمَةِ الْـ
ـمَضْرَيْنِ هَمّاً شاهداً ومُغَيَّبا
ولقد يَصاحِبُني الشَّبابُ فلمْ أكُنْ
آتي بهِ إلاَّ الفَعالَ الأصْوبا
ولقدْ حفظتُ مكانَهُ ورعيتُهُ
وجعلتُه منّي الأحبَّ الأقربا

ويشتعل رأس عدي شيباً ، فتتجسد له الحقيقة المؤلمة،وهي انحسار الشباب عن حياته ، فيبكي على أيامه الغر النواضر ،وأنّى للبكاء أن يرد شباباً ؟ يقول :

وأرى سوادَ الرّأسِ يَنْقصُهُ البِلَى
والشّيبُ عن طولِ الحياةِ يَزيدُ
ولقدْ بكيتُ على الشّبابِ لوَ انّه
كانَ البكاءُ بهِ عليَّ يَعودُ

لیسَ الشبابُ وإنْ جزعتَ براجِعٍ
أَبداً وليسَ لهُ عليكَ مُعيدُ

وهي أبيات بينة الدلالة على صبوة عدي واقباله على الحياة ، وتعلقه بأماليد الشباب ، وفيها تصوير لحسرة النفس على أجمل أيام العمر ، ووجفة الانسان من زحمة المشيب المبشرة بقرب نهايته المحتومة .

★ ★ ★

٣

الخمر :

نشأ عدي في الحيرة ، المدينة الجميلة الغنية المتحضرة ، التي عرفت في تاريخ الأدب العربي بقصورها ومتاجرها ، وأديرتها وبيعها وحاناتها ، وشهرت بجنَّاتها المعروشات ومزارعها المنبسطة ، ونسيمها الندي الناعم ، ومائها العذب النمير .

وكانت مركزاً من أكبر مراكز صنع الخمور في عصرها ، فحاناتها تملأ الأسواق ، ودور الشراب واللهو والطرب منتشرة في كل مكان .

في هذه البيئة الجميلة المنتشية الطروب نشأ عدي ، وتقلب في أعطافها ، وهو في ميعة الصبا وريعان الشباب ، وفي علو المنزلة وقوة النفوذ . فليس بدعا أن يقبل على حياة الشراب واللهو والمجون ،

ويرتشف كؤوس اللذة دهاقاً مترعة ، ويدعو إلى هـذه الحيـاة الرخية الحافلة بضروب اللذة والنعيم فيقـول :

نادمتُ في الدَّيرِ بني عَلْقَما عاطيتُهم مَشْمولَةً عَنْدَما[(١)]
كأنَّ ريحَ المسكِ في كأْسِها إذا مزجناها بماء السَّما
مَنْ سرَّهُ العيشُ ولذَّاتُهُ فَلْيجعلِ الراحَ لهُ سُلَّما
فاشربْ على الدَّيرِ ولذّاتِه إذا اشتهيتَ اليومَ أنْ تَنْعَما

ويبدو أن هذه الحياة الغنية الطافحة بالملذات والمرح قد استهوت عدياً في فترة شبابه الأولى ، حتى إنها صرفته عن التفكير في المزيد من الجاه والسلطان ، وجعلته يؤثر حياة اللهو والصيد واللعب على عرش الحيرة ، وإنه على حيازته لقادر في تلك الفترة من حياته[(٢)] . بل إن في إيثاره اللهـو والانطلاق والصيد على حياة الجد وتحمل مسؤوليات الملك ، لدليلاً قاطعاً على مدى تعلق عدي في رَيِّق شبابه بهذه الحياة الغضة الناعمة المترفة ، واستجابته لها.

ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن فاضت نفسه الشاعرة

(١) العندم : خشب نبات ساقه أحمر يصبغ به .
(٢) انظر الأغاني ١٠٤/٢ .

المرهفة بطائفة من الخمريات ، تعد من عيون شعر الخمر في الأدب العـربي .

إن نظرة فاحصة يلقيها الباحث على شعر عدي ، تكشف له بوضوح غنى شعره الخمري ، وتنـوع ألوانه ، وتدل على سبقـه في كثير من الصور والأساليب ، مما يحملنا على الاعتقاد أن عدياً هو الشاعر الجاهلي الأول الذي فتح باب القول في الخمر على مصراعيه ، ومهد الطريق أمام من تلاه من شعراء الخمر في الجاهلية والاسلام ، كالأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبي نواس .

وآية ذلك أنه أفرد للخمر عدداً من القصائد والمقطعات ، وجعل منها غرضاً مستقلاً ، تُقَصَّدُ له القصيدة ، فلا يشـركه غرض آخر إلا إذا اتصل بالخمر بسبب من الأسباب ، وماوصلنا من شعره الخمري ، على قلته ، كاف للدلالة على استقلال هـذا الفن في شعر عدي عن غيره من الأغراض ، وعلى أن الركائز والأسس التي انطلق منها شعراء الخمر من بعده ، وبنوا عليها فنهم ، قد سبق إليها عدي ، وأن من تلاه قد أخذ عنه الكثير في الشكل والمضمون جميعاً .

كان الشاعر الجاهلي يقول الأبيات المعـدودات في الخمر ،

يسوقها مع حديثه عن شجاعته وكرمه وسخائه ، ثم ينتقل إلى غرض آخر من الأغراض التي حفلت بها القصيدة الجاهلية .

أما عدي ، فقد عاش جو الخمر ، وذاق لذائذ مجالسها ، وأحس دبيبها في أعطافه ، وتملكته نشوة المخمور ، فلا عجب إذا رأيناه يخالف عن تقليد عصره الفنّي في وصف الخمر ، ويحدث تحولاً واضحاً في هذا الباب ، فيخص الخمر بالقصيدة كلها ، ويفرغ في هذه القصيدة ما يتصل بالخمر ومجالسها من قريب أو بعيد .

لقد وسّع عدي دائرة الحديث عن الخمر ، فوقف عند لونها ، وصفائها ، وتعتيقها ، ورائحتها ، ومزجها ، وطعمها ، وفقاقيعها . ووصف كوبها ، وزجاجتها ، وباطيتها ، وأباريقها ، ومصافيها ، وبيت خمارها . وصور مجالسها الحافلة ، واجواءها المنتشية الحالمة وما يضطرب فيها من سقاة وإماء ، وندامى تدار عليهم الكؤوس ، باستقصاء دقيق رائع لم يسبقه إليه أحد من الشعراء الجاهليين .

ولعل قصيدته القافية ، التي شغل بها هشام بن عبد الملك ، فبعث إلى حماد الراوية (١) ليسأله عن بيت من أبياتها ، من أرق

---

(١) انظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء : ٤٧ والأغاني ٦/٧٧ ، وقد أورد أبو الفرج هذا الخبر بلفظ حماد عن أبيه، وفيه : أن هشاماً =

شعره وأجوده وأسيره ، وأكثره دلالة على فنه الخمري . فهي تضعنا منذ اللحظة الأولى في جو منتش لاه مرح ، فلندع الشاعر يحكي القصة ويرسم المشهد ، وينقلنا إلى عالمه الثمل الطروب :

بَكَرَ العاذلونَ في وضَحِ الصُّبْ
حِ يقولونَ لي ألا تَستَفيقُ
ويلومونَ فيكَ يا ابنةَ عبدِ اللّ
هِ والقلبُ عندكمْ مَوْهوقُ
لستُ أدري إذْ أكثروا العذلَ عندي
أعَدُوٌّ يلومُني أم صَديقُ
زانَها حسنُها وفرعٌ عَميمٌ
وأَثيثٌ صَلْتُ الجَبينِ أنيقُ (١)
وثَنايا مُفَلَّجاتٌ عِذابٌ
لا قِصارٌ تُرى ولا هُنَّ رُوقُ (٢)

= أمر الجارية أن تسقي حماداً بعد انشاده القافية . ثم علق أبو الفرج عليه قائلاً : « ولم يقل أحمد بن عبيد في خبره أنه سقاه شيئاً ... وهذا هو الصحيح ، لأن هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقى أحد بحضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه » .

(١) الفرع : الشعر . والعميم : المجتمع الكثير . والأثيث : الكثير الملتف . والصلت : الواضح .

(٢) المفلجات من الأسنان : المنفرجات . وروق : طوال .

ثم نادَوْا إلى الصَّبوح فقامَتْ
قينةٌ في يَمينِها إبريقُ
قَدَّمَتْهُ على عُقارٍ كعينِ الدِّ
يكِ صَفَّى سُلافَها الرَّاووقُ (١)
صانَها التاجرُ اليهوديُّ حولَيْ
نِ فأذْكى من نَشْرِها التَّعْبِيقُ
فوقَ علياءَ لا يُنالُ ذُراها
يَلْغَبُ النَّسْرُ دونَها والأَنوقُ (٢)
مُزَّةٌ قبلَ مَزْجِها فإذا ما
مُزِجَتْ لذَّ طعمُها مَنْ يَذوقُ
وطَفا فوقَها فقاقيعُ كاليا
قوتِ حُمْرٌ يُثيرُها التَّصْفيقُ (٣)
ثم كانَ المزاجُ ماءَ سماءٍ
غيرَ ما آجِنٍ ولا مَطْروقُ

فني وضح الصبح تزحف جمهرة العاذلين إلى فراشه توقظه ليشهد معهم الصبوح ، ثم ينهالون عليه باللوم أنه فتح قلبه لابنة

(١) الراووق : إناء لتصفية الشراب .
(٢) الأنوق العقاب .
(٣) التصفيق : تحويل الشراب من إناء إلى آخر .

عبد الله ، وسلمها زمامه ، فصرفته سكرة الحب عن مشاطرته إياهم مجالس الأنس والمرح والشراب . وينبري للدفاع عن حبه ، فيستنكر لوم اللائمين ، ويرى أن لا تثريب عليه إن هو خضع لجمال المحبوبة الآسر ، فلقد زاد من حسنها الفائق شعرغزير ملتف ، وجبين مؤتلق وضاح ، وجسم بض ممتلىء أنيق ، وأسنان عذاب مفلجات معتدلات .

ثم تنطلق الدعوة إلى الصبوح ، ترفعها جمهرة العاذلين اللائمين ، فيتحول المشهد إلى مجلس الخمر الحافل ، وإذا بقينة تتقدم ، والابريق بيمينها ، تحمل إلى الشَّرْب اللاهي خمراً صافية صفاء عين الديك ، معتقة ، صانها التاجر اليهودي حولين كاملين فوق علياء لا ترتقى ، يلغب النسر والعقاب دون بلوغها ، وقد أزكى هذا التعتيق من نشرها ، وغيَّر من طعمها ، فجاءت مزة قبل المزج فاذا ما مزجت لذَّ طعمها ، وطفا فوقها ركام مؤتلق من الفقاقيع الحمر كأنها الياقوت .

إنه مشهد صاخب ، يبدأ بايقاظه من نومه بمظاهرة جماعية من العاذلين اللائمين ، وينتهي بوصف للصبوح طويل ، يمتد فيه نفس الشاعر ، فيصف لون الخمر ، وصفاءها ، وتعتيقها ، ورائحتها ، وطعمها قبل المزج وبعده ، وفقاقيعها ، ولون هذه الفقاقيع ،

في إطار من الحب والنشوة والجمال ، يذكرنا بالأجواء اللاهية المنتشية المرحة التي يرسمها أبو نواس في خمرياته .

وقد يعرض عدي مشهد الشَّرْب في إطار من الصيد والجري والانطلاق . ونجد ذلك في صاديته المشهورة التي يقول عنها أبو العلاء [1] : « إنها بديعة من أشعار العرب » .

والظاهر أنه قالها ، وهو في السجن ، في ساعة تراءت له فيها طيوف الذكريات المحببة ، فانسابت لحناً حزيناً يصور الحنين إلى الماضي الشهي الحافل باللذات :

أَبلِغْ خليلي عبدَ هندٍ فلا
زلتَ قريباً من سَوادِ الخُصوصْ [2]
مُوازِيَ القُرَّةِ أوْ دونَها
غيرَ بعيدٍ مِنْ عُمَيْرِ اللُّصوصْ [3]
تُجْنَى لكَ الكَمْأَةُ رِبْعِيَّةً
بالخَبِّ تَنْدَى في أصولِ القَصيصْ [4]

---

(١) انظر رسالة الغفران : ٧٠ .

(٢) الخصوص : موضع في الحيرة .

(٣) القرة وعمير اللصوص : قريتان من قرى الحيرة .

(٤) الربعية : أول ما يجتنى . والخبّ : سهل بين حزنين تكون فيه الكمأة . والقصيص : جمع قصيصة ، وهي شجرة تنبت الكمأة في أصلها .

تَقنِصُكَ الخيلُ وتَصطادُكَ الطَّ
يرُ، ولا تُنكَعُ لَهوَ القَنيصْ (١)

تأكلُ ما شئتَ، وتَعتَلُّها
حمراءَ الخُصِّ كَلَونِ الفُصوصْ (٢)

غُيِّبتَ عنّي عبدُ في ساعةِ الشَّ
رِّ وجُنِّبتَ أوانَ العَويصْ (٣)

لا تَنسيَنْ ذكري على لذَّةِ الْ
كأْسِ وطَوْفٍ بالخَذوفِ النَّحوصْ (٤)

إنّكَ ذو عهدٍ وذو مَصْدَقٍ
مُخالِفٌ عهدَ الكَذوبِ اللَّموصْ (٥)

---

(١) تقنصك : تصيد لك ، وتصطادك : تصطاد لك ، وهـذا من باب الحذف والايصال ، كقولهم : رحبتك الدار ، أي رحبت بك الدار . ولا تنكع : لا تمنع .

(٢) الخصّ : جيد الخمر .

(٣) العويص : الشديد من كل شيء .

(٤) الخذوف : الأتان الوحشية السمينة . والنحوص من الأتن : التي لا ولد لها ولا ابن .

(٥) اللموص : الخدّاع .

يا عبدُ هَلْ تذكرُني ساعةً
في موكبٍ ، أوْ رائِداً للقَنيصْ
يوماً مع الرَّكبِ إذا أَوْفضوا
نرفَعُ فيهمْ مِنْ نَجاءِ القَلوصْ (١)
قد يُدرِكُ المُبْطِئ مِنْ حظّهِ
والخيرُ قد يَسْبِقُ جَهْدَ الحَريصْ
فلا يزلْ صدرُكَ في ريبةٍ
يذكرُ منّي تَلَفِي أو خُلوصْ
يا نفسُ أَبْقِي ، واتّقي شتمَ ذي الْ
أعراضِ ، إنَّ الحِلْمَ ما إنْ يَنوصْ (٢)
ياليتَ شِعْري وَانَ ذو عَجَّةٍ
متَى أرى شَرْباً حَوالَيْ أَصِيصْ (٣)
بيتِ جُلوفٍ باردٍ ظِلُّهُ
فيهِ ظِباءٌ ودَواخيلُ خُوصْ (٤)

(١) أوفضوا : أسرعوا والنجاء : السير السريع . والقلوص من الابل : الفتيّة .

(٢) ينوص : يذهب .

(٣) وَانَ ، أي وأنا ، وصل همزة القطع وحذف الالف التي بعد النون . والعجة : الحنين ، والأصيص : أسفل دن مكسور .

(٤) الجلوف : جمع جلف ، وهو الدن الفارغ.والظباء جمع ظبية ، وهي =

والرّبربُ المكفوفُ أرْدانُه
يَمْشي رُوَيْداً كمشْيِ الرَّهيصْ (١)

ينفَح من أردانه المسكُ ، والْـ
عنبرُ ، والغَلْوَى،ولُبْنَى قَفُوصْ (٢)

والمُشْرِفُ الهنديُّ تُسقَى بِهِ
أخضرَ ، مَطْموثاً بماءٍ خَرِيصْ (٣)

ذلك خيرٌ مِنْ فُيوجٍ على الْـ
باب ، وقَيْدَيْنِ ، وغُلٍّ قَروصْ (٤)

أو مُرتقَى نِيقٍ على مركَبٍ
أدفَرَ عَوْدٍ ، ذي إكافٍ قَموصْ (٥)

= هنا الأباريق الضخام . والدواخيل : جمع دوخلة ، وهي سقيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب .

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش ، وتشبه به النساء . والرهيص : المصدوع .

(٢) الغلوى : أخلاط من الطيب تغلى . ولبنى : عود طيب الرائحة . وقفوص : بلد يجلب منه هذا العود .

(٣) المشرف : إناء كانوا يشربون به . والمطموث : الممسوس وأراد به الممزوج . والخريص البارد .

(٤) الفيوج : الحراس . والغل القروص : القيد المؤلم .

(٥) النيق : أعلى موضع في الجبل . والأدفر : المنتن الرائحة . والعود : يريد به حماراً أو بغلاً مسناً . والإكاف البرذعة . والقموص : الدابة تقمص بصاحبها ، أي تثب .

إنها مشهد كبير غني لهذه الحياة العابثة اللاهية، التي يحياها الشباب المترف ، يرسمه عدي مخاطباً عبد هند بن لخم ، فاذا أنت أمام جري وراء صيد ، وطوف حول كأس مترعة ، يعتلها الشارب من الخص حمراء كلون الفصوص . وتمضي مع الشاعر فترى نفسك أمام لوحة شاخصة للشّرب قد تجمع حول باطية الخمر في بيت خمار مبني من الدنان المكسورة ، ومظلل بالخصف، والغيد الأماليد يمشين رويداً على استحياء ، كأن في أرجلهن صدوعاً ، وقد حسرن على سواعدهن البضة ، وتصاعدت روائح المسك والعنبر والغلوى والعود من أردانهن المحسورة المكفوفة .

ويدور الكأس على الشّرب السامر اللاهي مترعاً بالخمر الأخضر اللون ، وقد مزج بالماء الشبم الخريص .

وقد تخللت هذه القصيدة أبيات في الحكمة ، ولكنها كانت في معظمها صدى تشوف نفس الشاعر إلى أجواء اللهو والصيد والشراب ، يعبر عن ذلك أصدق تعبير قوله :

قد يُدرِكُ المُبْطِيءِ مِنْ حظِّهِ
والخيرُ قد يسبقُ جَهْدَ الحَريصْ
يا ليتَ شعري وَأنَ ذو عَجَّةٍ
متى أرى شَرْباً حوالَيْ أصيصْ

يا عبدُ هل تذكرُني ساعةً
في موكب أو رائداً للتَقْنيصْ
لا تنسيَنْ ذكري على لذّةِ الْ
كأْسِ وطَوْفٍ بالخَذوفِ النَّحوصْ

إنها آهات يصعدها من قلبه الكظيم المكبوت في ظلمة السجن ، تكشف ما يعتلج في نفسه من تطلع إلى هذا الجو المنعش المليء بالسعادة والمرح والانطلاق ، وليس أدل على ذلك من تلك الموسيقا الهامسة المنبعثة من حرف الروى الصاد، وكأنه تخيره لقافيته ليفضي بما تزخر به نفسه من حنين وألم .

ومن ذلك المشهد الحافل المؤنس الطروب ، الذي رسمه له خياله ، وهو يستعرض ذكريات شبابه المليئة الوضيئة ، يرتد إلى واقعه المرّ ، فيردد في انكسار وأسى :

ذلكَ خيرٌ من فُيوجٍ على البـــاب وقيدَيْنِ ،وغُلٍّ قَروصْ

ويكثر عدي من وصف نداماه ، والتحدث عن خصالهم والاشادة بمناقبهم ، فهم رجال ذوو مروءة وشهامة وإباء وشجاعة ، قربهم منه ، واصطفاهم لمجالسته ، وكان يعتل معهم الخمر في دار كلها بشر وسعادة ونعيم . فلا غرو أن يحن إلى مجالسه هذه معهم

في الحيرة حين شط به النوى في سفره مبعوثاً إلى بلاد الروم ، وأن يطلق الحنين لسانه ، وهو في دمشق ، بهذه الأبيات التي يقول أبو الفرج [(١)] : إنها أول شعر قاله :

رُبَّ دارٍ بأسفلِ الجِزْعِ من دُو
مَةَ أشهى إليَّ من جَيْرونِ [(٢)]
ونَدامى لا يفرحونَ بما نا
لوا ولا يرهَبونَ صَرْفَ المَنونِ
قد سُقيتُ الشَّمولَ في دار بِشْرٍ
قهوةً مُرَّةً بماءٍ سَخينِ

والظاهر من شعره أن نداماه كانوا فرساناً شجعاناً،يأنسون بالخمر ، ويجتمعون لمجالسها ، ولكنها ما كانت تذيب فيهم الرجولة، وتستل منهم الشهامة ، وتضيع المروءة ، بل كانوا إذا ما جد الجد، ودعوا إلى خوض المعارك ، طاروا إليها جميعاً ، ليس فيهم عاجز أو متواكل ، وما تنجلي لهم معركة إلا وقتلاهم من الأبطال مجندلون هنا وهناك ، تشخب من رؤوسهم الدماء الحارة،وتتدفق كما تتدفق المياه من الدلو الدائر :

(١) الأغاني : ٢/١٠٢ .
(٢) جيرون : من متنزهات دمشق وملاهيها في القديم .

وفتيةٍ كالسّيوفِ نادمتُهم
لا عاجزٌ فيهمُ ولا وكِلُ
لا يَتأَرَّوْنَ في المَضيقِ وإنْ
نادَى مُنادٍ كي ينزِلوا نَزَلوا (١)
لا بدَّ في كرَّةِ الفَوارسِ أنْ
يُتْرَكَ في مَعْرَكٍ لهمْ بطَلُ
مُنْتَكِتُ الرأسِ فيهِ جائفَةٌ
جيّاشةٌ لا تَردُّها الفُتُلُ (٢)
تُقَحّمُ الآنِيَ العَبيطَ كما
قحَّمَ غَرْبَ المَحالَةِ الجَمَلُ (٣)

وهذا يصور لنا نوع الندامى الذين كان يأنس إليهم عدي ، فهم ليسوا من الرجال الخوارين المائعين الماجنين ، الذين لا يعرفون إلا اللهو واحتساء الكؤوس ، وإنما هم من الرجال الأبطال الذين يعبون من اللذات بقدر ، ويقبلون على اللهو بقصد واعتدال :

---

(١) تأرى بالمكان : احتبس فيه . والمضيق : يريد به مضيق الحرب والشدة .

(٢) الجائفة : الطعنة التي تخالط الجوف .

(٣) تقحم : تدفع . والآني : الدم الحار . والعبيط : الطري . والغرب : الدلو . والمحالة : البكرة .

وقد يُقصِّرُ عنّي الليلَ ذو شَرَعٍ
معي نَدامى مخاريقٌ ذوو كَرَمِ [١]
همْ يَستَجيبونَ للدّاعي، ويكرهُهُمْ
حدُّ الخَميسِ، ويستَمْهونَ في البُهَمِ [٢]

وهم إلى شجاعتهم وحسن بلائهم، كرام أجواد، لا يبخلون عند البذل، ولا يتجهمون للضيف، بل يقبلون عليه بوجه متهلل باش، محيين مرحبين، وسرعان ما تعطف عليهم كأس ساقيهم الدائرة:

ونَدامى لاَ يبْخَلونَ بما نا
لوا ولا يُعْسِرونَ عندَ الوِساقِ [٣]
فتَى واغِلٌ ينُبُهُمْ يُحَيّو
هُ وتُعطَفْ عليهِ كأسُ السّاقي [٤]
ترَكوني لَدَى قصورٍ وأعْرا
ضِ قصورٍ، لِزَيْفِهِنّ مَراقِ

ولعل في النماذج التي تقدمت دليلاً واضحاً على براعة عدي

---

(١) شرع: وتر. ومخاريق: جمع مخراق، وهو الرجل الحسن الجسم

(٢) حد الخميس: آخر الجيش. واستمهيت الفرس: استخرجت ما عنده من الجري.

(٣) الوساق: إخراج كل واحد من الرفقة نفقة على قدر نفقة صاحبه.

(٤) الواغل: الداخل على الشرب من غير دعوة.

في وصف الخمر وسبقه فيه ، فلقد أفرد لها كريم قصيده ، وأغنى الحديث عنها ، ولوّنه ونوّع فيه ، فجاء وصفه لها يضج بالحركة ، ويعبق بالرائحة ، ويزهو بالألوان ، ويتألق بالأضواء ، فيه نكهة الخمر ، وطعمها ولونها ، وفيه حركة السقاة والندامى والغيد الحسان.

وصور عدي في خمرياته ، منها السريع الخاطف الذي يصف جزئية من الجزئيات ، ومنها اللوحة الكبيرة والمشهد الشاخص الماثل ، الذي يصور الشَّرْب ومجلسه الكامل ، وكلها تشهد بدقة عدي في الوصف وبراعته في التصوير .

وقد وفق إلى صور ، لا نكاد نجدها عند شاعر جاهلي قبله ، منها قوله :

هذا ورُبَّ مُسوّفينَ سقيتُهمْ
من خمرِ بابِلَ لَذَّةٍ للشّارِبِ
بكَروا عليّ بسُحْرَةٍ فصَبَحتُهمْ
مِن ذاتِ كوبٍ مثلِ قَعْبِ الحالِبِ [1]
بزجاجةٍ مِلْءِ اليدينِ كأنَّها
قنديلُ فِصْحٍ في كَنيسةِ راهِبِ

(١) القعب : القدح الضخم الجافي .

في تشبيهه زجاجته بقنديل فصح في كنيسة راهب صورة حضرية ، تتألق بأضواء البيئة النصرانية ، وهي صورة جميلة جديدة ، ما أحسب أن أحداً سبقه إليها .

ومن صوره المبتكرة التي جنّ بها شعراء الخمر العباسيون ، وراحوا يقلبونها على كل وجه ، وصفه للفقاقيع التي طفت على وجه الكأس عند مزج الخمر بالماء ، فبدت له كاليواقيت الحمر :

وطَفا فوقَها فقاقيعُ كاليـا   قوتِ حُمْرٌ يُثيرُها التَّصفيقُ

ويغلب على خمريات عدي الأسلوب العذب الرشيق الذي ينبض بنغمة عذبة مرحة تنبعث من الألفاظ الرقيقة الناعمة المأنوسة المتخيّرة ، والتراكيب والصيغ الجميلة الموحيـة ، ويتجلى هـذا الأسلوب في قافيته بوضوح .

وإذا كنا نجد في صاديته شيئاً من الجزالة اللفظية ، التي تخرج إلى حد التوعر في بعض الأبيات ، فمرد ذلك إلى جـو الصيد الذي ظلل القصيدة من جهة ، وإلى الجو النفسي الذي كان يحياه الشاعر حين قال الأبيات من جهة ثانية .

فالقافية تعكس نفسية عدي المرحة الضاحكة المستبشرة اللاهية

في ساعة من ساعات السعادة والصفاء . أما الصادية فتعكس نفسه المنكمشة المكتئبة المتألمة من عذاب السجن الطويل ، والتي تكاد تذوب حنيناً للماضي الحافل بالحياة الرغيدة والعيش الهنيء .

وكذلك تخشن ألفاظ عدي عندما يصف شجاعة ندماه في إطار من البطولة والعنف والاقدام فينتقي لجو الحرب والبطولة الألفاظ الفخمة التي تملأ الفم وتقرع الأذن ، ولكنه حين يصفهم في إطار من جو الشراب المؤنس الناعم ، فيتحدث عن كرمهم وترحيبهم بالضيف ينتقي لذلك الألفاظ الرقيقة المأنوسة المناسبة لجو الخمر والأنس والسمر الهادىء اللطيف .

فاسلوب عدي في خمرياته تغلب عليه رقة الحضارة ، ولكنه لا يخلو من المسحة البدوية في بعض ألفاظه وصوره . وفي رقة ألفاظه وسلاسة أسلوبه ، وتألق صوره وجدة معانيه وغزارتها وبراعة عرضها ، دليل قاطع على سبقه في هذا الفن ، وتأثيره فيمن تلاه من شعراء الخمر في الجاهلية والعصور الاسلامية ، كالأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبي نواس .

ويؤيد هذا الذي ذهبنا إليه ما يرويه أبو الفرج [١] من أن

---

(١) الأغاني ٧/٦٥ ، ٦٦ .

الوليد بن يزيد ، شاعر الخمر الأول في العصر الاسلامي ، كان على صلة بشعر عدي بن زيد من نديمه القاسم بن طويل العبادي، الذي كان ينشده شعر عدي ، ويغنيه المغنون في مجالسه ، وأن معبداً غنّى القافيـة أمامـه ذات يوم فاستحسنها وأعجب بها ، وجعل يشرب على أنغامها منشرحاً منتشياً طرباً .

والقاسم بن طويل العبادي نصراني من الحيرة ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً ، يشاطر الوليد شرابه ولهوه ، حتى إن الوليد كان لا يصبر عنه ، فلا يبعد أن يكون هو الذي وجه الوليد إلى فن عدي الخمري ليحذو حذوه ويجري على أسلوبه ، ومن ثم تسربت ألحان عدي وأنغامه وصوره وألوانه إلى الوليد ، ثم إلى من جاء بعده من شعراء الخمر .

★ ★ ★

٤

الغزل :

سبق أن قلنا : إن شخصية عدي وشمائله ، مع طبيعة الحياة الحضرية المترفة التي تقلب في أعطافها ، كانت تهيئه لأن يكون محباً للنساء محبباً إليهن ، فلقد كان ، فيما يقول أبو الفـرج[1] : « حسن الوجه ، مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المبسم ، نقي الثغر » . وقد تهيأ له ، إلى جانب الوسامة وحسن المنظر، الفراغ والجدة والنفوذ والعيش المنعم الهنيء . وحري بمن كان هذا شأنه، أن يصبو لمجالسة النساء ، ويقبل على الاستمتاع بمعاشرتهن والتغزل بجمالهن .

ولقد كان طبيعياً أن يتغنى عـدي بالمرأة ، ويقف متأملاً مفاتنها ، وهو الشاعر المرهف الذي رأيناه في ريّق شبابه يعكف على مجالس اللهو والشراب ، ويأنس للمنادمة ويطرب للسماع .

وما وصلنا من شعره في الغزل يشهد بأن عدياً لم يكن بالمحب المتيم الشغوف الذي وقف قلبه على حب واحدة ، وإنما كان طالب لذة وخدين متعة ، تستريح عيناه على كل حسناء

(١) الأغاني ٢/١٣٠ .

يصادفها ، ويثب قلبه لكل طرف فاتر ومبسم عذب نضيد .

ومن ثم بلغ عدد اللواتي شبب بهن سبعاً ، هن : أم معبد، سلمى ، لبينى ، كبشة ، ابنة عبد الله ، هند ، لميس .

ونستطيع أن نميز في غزل عدي لونين :

الأول : غزل طللي تقليدي يفتتح به قصائده ، فيقف على ديار الحبيبة يقوده الشوق إلى رسومها الدارسة ، حيث يستعرض طيوف الذكريات الغوابر ، ويسكب العبرات الغزيرة حتى تبلل ثيابه:

أتعرِفُ رسمَ الدارِ منْ أُمِّ مَعْبَدِ
نعمْ ! ورماكَ الشوقُ قبلَ التجلُّدِ
ظَلِلْتُ بها أَسْقي الغرامَ كأنّما
سقَتْني النَّدامى شَرْبةً لم تَصرَّدِ
فيالكَ مِنْ شوقٍ وطائفِ عَبْرَةٍ
كسَتْ جيبَ سِرْبالي إلى غير مُسْعِدِ

ولعدي وقفات على الديار أنطقته بأبيات من أجود ما قيل في شعر الأطلال ، فلنسمعه يقول (١) :

لِمَنِ الدارُ تعفَّتْ بِخِيَمْ أصبحَتْ غيَّرَها طولُ القِدَمْ

---

(١) القصيدة ١٢ - الديوان .

ما تَبينُ العينُ من آياتِـها غيرَ نُؤْيٍ مثلِ خَطٍّ بالْقلَمْ
وثلاثٍ كالحَماماتِ بِها بينَ مجثاهنَّ توشيمُ الحُمَمْ
أسألُ الدار ، وقد أنكرتُها ، عن حبيبٍ ، فاذا فيها صَمَمْ

فلقد تغيرت الدار على مر الأيام ، فلم تستطع العين أن تتبين من رسومها الدراسات سوى خط نؤى قديم ، وأثافي ثلاث بدت بينها آثار الوقود السوداء كالوشم .

ولكن هذه الدار التي عفت معالمها تثير في نفس عدي عديداً من الذكريات ، فيسألها عن الماضي العزيز يوم كان يعمرها الحبيب، وتملأها البهجة ، فاذا هي صمَّاء لا ترد جواباً .

أما اللون الثاني : من غزل عدي ، فهو في وصف محاسن المرأة ، ومجالس الحسان وزينتهن ، وصبوته إليهن ، واستمتاعه بمجالستهن .

لقد وقف عدي عند جمال المرأة الكاي ، فشبَّه الحسان الفاتنات بدمى العاج ، وببيض النعام :

كدُمَى العاجِ في المحاريبِ أو كالبَيْضِ في الرَّوضِ زَهْوُهُ مُسْتَنيرُ

وقال :

بناتِ كرامٍ لم يُرَبْنَ بِضُرَّةٍ دُمىً شرقاتٍ بالعبيرِ روادِعا

وكما وقف عند الجمال الكلي للمرأه ، وقف عند الجزئيات، فوصف مفاتن المرأة الجسدية وما يتصل بها من زينة أو متاع .

وقف عند شعرها وجبينها وأسنانها :

زانَها حسنُها وفَرعٌ عَميمٌ
وأثيثٌ صلتُ الجبينِ أنيقُ [١]
وثَنايا مُفلَّجاتٌ عِذابٌ
لا قِصارٌ تُرى ولا هُنَّ رُوقُ [٢]

وسحر بطرفها الفاتر وعينها الناعسة :

إن شَغْلَ المُصابياتِ من الأستارِ طَرْفٌ يُصْبي وفيهِ فُتورُ

وسباه ثغرها الأبيض الجميل المنضد ، ومقبلها العذب عذوبة التفاح الجنيّ الريّان :

إذْ هي تَسْبي الناظرينَ وتَجْلو واضحاً كالأُقْحوانِ رَتِلْ [٣]
عَذْباً كما ذقتُ الجَنِيَّ من التُّفاح يَسْقيهِ بَرْدُ الطَّلّ

واستهوته ثياب الحسان الشفيفة الناعمة ، الناضحة بالمسك :

---

(١) الفرع : الشعر . والعميم : المجتمع الكثير . والأثيث : الكثير الملتف. والصلت : الواضح .

(٢) المفلجات من الاسنان : المنفرجات . وروق : طوال .

(٣) الرتل : الحسن التنضّد الشديد البياض .

زانهنَّ الشُّفوفُ ينضَحْنَ بالمسكِ وعيشٌ مفانِقٌ وحَريرُ

وخلبت لبه زينتهن الفاتنة من خلخال وأسورة ودر :

قد آنَ أنْ تَصْحُوَ أوْ تُقْصِرْ

وقدْ أتى لما عَهدتَ عُصُرْ

عنْ مُبرِقاتٍ بالبُرينَ وتبْـ

ـدو في الأكُفّ اللامِعاتِ سُوُرْ (١)

بيضٌ عليهنَّ الدِّمَقْسُ وفي الْـ

أعْناقِ من تحتِ الأكفَّةِ دُرّْ

ولم يقف عدي في هذا اللون من غزله عند وصف محاسن المرأة ، بل تعدى ذلك إلى وصف مغامراته الليلية ، وصلاته بالنساء في السر والعلانية . وهذه أبيات نرى فيها عدياً يدب في الليل على حسناء ، فيدخل كلتها في هدأة الكون بعد أن أوى الناس إلى مضاجعهم ، ولُفَّ الكونُ برداء الليل الأسود الساتر :

وقد دخلتُ على الحسناءِ كِلَّتَها

بعدَ الهُدوِّ تُضيءُ البيتَ كالصَّنَمِ

(١) مبرقات : اسم فاعل من أبرقت المرأة إذا تزينت والبرين : جمع بُرة ، وهي الخلخال .

يَنْصُفُها نُسْتُقٌ تكادُ تُكرِمُهمْ
عنِ النَّصافَةِ كالغِزْلانِ في السَّلَمِ (١)
تَبْسِمُ عن أشنبٍ ريَّانَ مَنْصِبُهُ
حُمْرِ اللِّثاتِ لذيذٍ طعمُه شَبِمِ (٢)

ولعدي أبيات أخرى تصور لهوه بالنساء واستمتاعه بهن :

ولقدْ ألهو ببِكرٍ شادنٍ مسُّها ألينُ من مسِّ الرَّدَنْ
عينُها تسجو بطَرْفٍ فاترٍ نظَرَ الأحولِ للشّاةِ الأغَنّ

وهي أبيات بينة الدلالة على أن عدياً كان في ميعة صباه وريعان شبابه يجري وراء الحسان ، ويسعى إلى اللذة المادية وهذا ما دعا ابن قتيبة إلى القول فيه (٣) : « وهو ممن أقر على نفسه بالزنا .. » ثم يورد له هذه الأبيات :

....

وأُصْبي ظباءً في الدِّمَقْسِ خَواضِعا
بناتِ كرامٍ لم يُرَبْنَ بِضُرَّةٍ
دُمىً شَرِقاتٍ بالعَبيرِ رَوادِعا

(١) ينصفها : يخدمها . والنستق : الخدم .
(٢) الثغر الأشنب : الرقيق العذب . والشبم : البارد .
(٣) الشعر والشعراء : ١٨٤

لهوتُ لهنَّ بينَ سِرٍّ ورَشْدَةٍ
ولم آلُ عن عهدِ الأحبَّةِ خادِعا

ولقد اعترف عدي نفسه باسرافه على نفسه بالجري وراء الحسان ، فقال عندما أحس أن شمس شبابه إلى غروب :

قد آنَ أنْ تصحوَ أو تُقْصِرْ
وقد أتَى لما عهدتَ عُصُرْ
عن مُبرِقاتٍ بالبُرينَ وتَبْـ
ـدو في الأكفِّ اللاَّمعاتِ سُوُرْ
بيضٌ عليهنَّ الدِّمقسُ وفي الـ
أعناقِ من تحتِ الأكفَّةِ دُرّْ
كالبَيْضِ في الرّوضِ المنوِّرِ قدْ
أَفْضى بها إلى الكثيبِ نُهُرْ
يأرَجُ من أردانِهنَّ مع الْـ
مسْكِ الزكيِّ زَنْبَقٌ وقُطُرْ
جاريتُهنَّ في الشَّبابِ واذْ
قلبي بأحكام الحوادثِ غِرّْ

إنه اعتراف صريح أنه استجاب لنداء الجمال والشباب عندما

كان غراً لم تعجمه الحوادث ، وأنه قد آن له أن يكف عن الصبوة اليهن .

وعدي في تغزله بالمرأة لم يقتصر على الحديث عن مظاهر جمالها فحسب ، بل أشار إلى وقع هذا الجمال في نفسه أيضاً فقال:

انشَغَلَ المُصابياتِ من الأسـ   ـتارِ طَرْفٌ يُصْبي وفيه فتورُ

وقال :

هيَّجَ الداءَ في فؤادِكَ حُورٌ   ناعماتٌ بجانبِ المِلْطاطِ

ولم يشغله جمال شكلها عن جمال حديثها ، وهو الشاب المثقف ، والشاعر النديم ، فقال يصف جمال حديث الحسان اللواتي هيجوا الداء في فؤاده :

آنساتُ الحديثِ في غيرِ فُحْشٍ   رافعاتٌ جوانبَ الفُسْطاطِ

ولم ينسه جمالُ هؤلاء الحسان اللائي خلبن لبه أصلَهنَّ الرفيع، ومحتدهن الطيب ، فمضى يشيد بالجمالين ، جمال الجسد وجمال النسب فيقول :

بناتِ كرامٍ لم يُرَبْنَ بضُرَّةٍ   دُمىً شَرِقاتٍ بالعبيرِ روادِعا

وفي ذلك إشارة إلى ترف الاستمتاع الذي كان يحظى به

عدي من جهة ، وإلى أن صويحباته كنَّ من النمط الراقي الذي يليق برجل الدولة المرموق من جهة أخرى .

وغزل عدي هذا شديد اللصوق بحياته ، بل هو تعبير صريح صادق عن الحياة الطليقة الغنية التي كان يحياها شاعرنا في الفترة الهنيئة الصافية من حياته .

ومن ثم جاءت صور عدي الغزلية غنية مترفة ، تتألق بالألوان والأضواء ، مفعمة خضلة ، يشيع فيها الندى ويفوح منها العبير :

بِيضٌ عليهنَّ الدِمقسُ وفي الْـ أَعْناقِ مِن تحتِ الأكِفَّةِ دُرّْ
يأرجُ من أردانِهِنَّ معَ الْـ مِسْكِ الزكيِّ زَنْبَقٌ وقُطُرْ

ومن صوره المترفة الساحرة ، التي تضج بالفتنة والدلّ والاغراء ، قوله في وصف من أصباهن من الحسان :

يُسارِقْنَ مِ الأسْتارِ طَرْفاً مفتَّراً
ويُبرِزنَ مِنْ فَتْقِ الخدورِ الأصابِعا

إنها صورة شاخصة تعكس مشهد هذا السرب من الحسان، وهن يتسارقن النظرات الناعسة من خلال الأستار ، ويبرزن أصابعهن اللطيفة من فتق الخدور . ولعل الشاعر الغزل المترف

عمر بن أبي ربيعة نظر إلى هذه الصورة حينما قال :

وكنَّ إذا أبصَرْنني أوْ سَمِعْنَ بي
جَرَيْنَ ورقَّعْنَ الكُوى بالمَحاجِرِ

ومن صوره الرائعات مشهد دبيبه في الليل الساجي على الحسناء التي تضيء البيت بحسنها :

وقد دخلتُ على الحسناءِ كِلّتَها
بعدَ الهُدُوِّ تُضيءُ البيتَ كالصَّنَمِ
يَنْصُفُها نُسُقٌ تكادُ تُكْرِمُهُمْ
عنِ النّصافةِ كالغزلانِ في السَّلَمِ
تبسمُ عن أشنبٍ ريّانَ مَنْصِبُهُ
حُمْرِ اللِّثاتِ لذيذٍ طعمُه شَبِمِ

وهو مشهد لمغامر جريء ، اقتحم على الحسناء كلتها ، حتى إذا قضى لبانته منها وصفها ، ووصف خدمها الذين يحيطون بها كالغزلان في السلم ، ووقف عند ثغر هذه الحسناء الذي خلب لبه ، فراح يفيض في وصفه برائع القول وبديع الصفات .

وإلى جانب هذه الصورة الجريئة التي يصف فيها عدي محاسن المرأة ومغامراته معها ، نرى له صوراً طللية ، يبدو فيها

ذلك المحب الشغوف الذي تيمه الحب ولذع قلبه الغرام ، فوقف أمام ديار الحبيبة يطارحها الأشواق ، ويسألها في وله وحيرة وانكار، فاذا هي انسان فيه صمم ، لا يسمع ولا يجيب :

لِمَنِ الدّارُ تعفَّتْ بِخِيَمْ أصبحتْ غيَّرها طولُ القِدَمْ
ما تبينُ العينُ مِنْ آياتِها غيرَ نُؤْيٍ مثلِ خطٍّ بالقَلَمْ
وثلاثٍ كالحَماماتِ بِها بين مَجْثاهُنَّ توشيمُ الحُمَمْ
أسألُ الدَّارَ ، وقد أنكرتُها ، عن حبيبٍ ، فاذا فيها صَمَمْ

ويترك للقارىء تصور وقع هذا السكون الشامل والهدوء المطبق في نفس الشاعر المتطلعة إلى دار كانت تضج بصخب الأحباب ، فاذا هي خالية يباب .

وتلمح إلى جانب تلك الاستعارة الرائعة : فاذا فيها صمم ، هذا التشبيه الجميل للأثافي القابعات في أمكنتهن كالحمامات الوادعات، وقبله تشبيه آخر للنؤى الدارس الذي لم يبق منه إلا خط ضئيل كخط القلم ، وهو تشبيه دقيق طريف ، وبذلك تتم اللوحة الشاخصة الصامتة لوقوف الشاعر المولّه على الأطلال الدراسات .

ونراه في وقفة أخرى يشكو قلبه الدنف الذي عصى كل ناصح ، وقاده إلى دار سلمى التي نأته ، وأنه لن يسمع فيها القول أحد:

مَنْ لقلبٍ دَنِفٍ أو مُعْتَمَدْ قد عَصَى كلَّ نصوحٍ ومُفَدْ
لستُ إنْ سَلْمى نأتني دارُها سامِعاً فيها إلى قولِ أَحَدْ

ويصف في مطلع آخر حبه المشهور لهند بنت النعمان بأنه مستسر في حنايا الضلوع وأنه سبب له البلاء والداء والأرق :

علِقَ الأحشاءَ من هِنْدٍ علَقْ مُسْتَسِرٌّ فيه نَصْبٌ وأَرَقْ

وفيها يقول أيضاً :

يا خليليَّ يَسِّرا التَّعْسيرا ثم روحا فَهَجِّرا تَهْجيرا
عرِّجا بي على ديارٍ لِهِنْدٍ ليس أنْ عُجْتُما المَطِيَّ كَبيرا

وهو في مثل هذه الأبيات يوهم بأنه محب اكتوى بنار الحب وذاق لذة العشق . وأغلب الظن أنه لم يعان في حياته ما كان يعانيه المحبون المتيمون عادة من سهد ونصب وحرمان ، بل كان يصل إلى ما يريد دون أن يجد في ذلك مشقة أو عسراً . وإذا صح أنه وقع في شباك هند ، فقد تم زواجه منها دون أن تقوم في وجهه عقبات . ثم إن أغلب غزله يصوره الشاب اللاهي المستمتع الذي ما كان يصبر على طعام واحد ، ولا يقف عند امرأة واحدة . ووصفه الحسي لمحاسن المرأة وصفاً يبرز جمالها ومفاتن جسمها يدل دلالة واضحة على أنه كان الرجل المتلذذ العابث ، لا المحب العاشق .

ويكثر عدي في وصفه للمرأة من التشابيه ، فالحسان بيض النعام ، ودمى العاج . وحسناؤه ظبي وشادن وصنم . ومسها ألين من مس الردن . ووجهها كالدينار . ونظرتها نظرة الأحول للشاة الأغن .

ومن تشبيهاته الحسية البديعة التي ذهب فيها إلى ما يسميه البلاغيون بالايغال قوله في وصف ثغر الحبيبة العذب طعمه ، الحلو مبسمه :

إذْ هيَ تَسْبي الناظرينَ وتَجْ لو واضحاً كالأُقحوانِ رَتِلْ
عَذْباً كما ذقتُ الجَنِيَّ من التُّفاحِ يَسْقِيهِ بردُ الطَّلْ

وهو تشبيه حضاري يشيع فيه عدى نداوة الطل ، ونضارة التفاح الجني وأرجه وعذوبة طعمه .

وأسلوب غزل عدي بألفاظه الموحية ، وتراكيبه الرشيقة ، وصوره المتألقة ، تشيع فيه الرقة والسلاسة والنغم العذب . وأثر الحضارة واضح في صوره وتراكيبه ، نلمحه في التماع الحلي وتألق الدر في أكف الحسان وأعناقهن وأطراف ثيابهن ، ونحسه بالأرج ينبعث من الأردان ، ونلمسه بنعومة بشرة الحسناء التي مسها ألين من مس الردن . على أنه لم يخل من الأثر البدوي أيضاً ، فالمشاعر حضرية ، والبيئة حضرية ، واللهو حضري ، ولكن عندما يجيء

دور التعبير عن هذه المشاعر تقفز إلى ذهن الشاعر ترسبات الثقافة العربية ، ومعطيات البيئة العربيةالبعيدةمن سماع ومشاهدات لا ينفك عنها سكان الحاضرة ، وبخاصة شاعرنا الذي كان يبدو في فصلي السنة فيقيم في جفير بنجد ، ويضرب في أحياء بني تميم ، ويشتو في الحيرة والمدائن .

ومن ثم كانت صوره تجمع اللونين ، الحضارة الغضة الطرية المترفة ، والأثر البدوي الجاف ، فتجد فيها الحرير اللين ، والدمقس الناعم ، والتفاح الجني ، إلى جانب الشاة الأغن ، والخيام المنصوبة ، والأطلال الدارسة . ولا انفلات نهائياً من أثر البيئة الجاهلية مهما تقلب الشاعر في أعطاف النعيم ، وعاش في أجواء الحضارة .

★ ★ ★

٥

الوصف :

كان للحياة الرفهة التي نعم بها عدي في نشأته أثرها الكبير في تنمية فن الوصف عنده من جهة ، وتوجيهه الوجهة التي تتفق ومسلك عدي في الحياة من جهة أخرى .

أما نمو هذا الفن عند عدي فقد تجلى في وصفه للخمر ومجالسها وأدواتها ، وفي تغنيه بالمرأة ووصفه لمفاتنها ، وفي وصفه للطبيعة المتحركة والساكنة . وأما اتجاه فن الوصف عند عدي ، فقد سار في خط منسجم مع الحياة الحضرية الغنية المترفة التي كان يحياها الشاعر .

ومن ثم لم يتناول في وصفه إلا الموضوعات التي كان يحسها ويحياها في واقع حياته الناعمة الغضة .

وصف الخمر ومجالسها ، وتغزل بالمرأة ومحاسنها ، وكلها موضوعات لصيقة بحياته . ولما التفت إلى الطبيعة المتحركة لم تستهوه الناقة وقطعها المفاوز السحيقة بارقالها السريع ووخدها الدائب ، ولا ما تعانيه في طريقها من لأواء السير وحزونة الطريق ، وإنما الذي استهواه وشغل عليه حسه كله الفرس .

وسنعرض فيما يلي لفن عـدي في وصف الفرس ، فنتبين الخطوط التي رسم منها صورة جواده ، وننتقل بعد ذلك إلى وصفه للحيوان المستوحش المنتشر في رياض الأرض وفيافيها ، ثم لوصفه للسحاب . ونبدأ بالفرس :

آ - وصف الفرس

والفرس صديق العربي في جده وهزله ، وصاحبـه الوفي في السراء والضراء وحين البأس . والخيل الجياد عـدة العـربي في الصيد واللهو والحرب والقتال ، وركوبها متعته المفضلة ، وزينته البهية . وإذا كانت الناقة ضرورة معاشية لـكل من درج على رمال الصحراء ، من فقير وغني ، وفارس وغير فارس ، وجاد ولاه ، فان الفرس أداة زينة ولهو وفروسية لـكل فارس مترف، اتسعت أمامه سبل العيش ، وتعددت لديه آفاق اللهو والاستمتاع.

فلا غرو أن ينصرف عدي عن الناقة ووصفها ، ويشغف بحب الخيل ، وهو الشاب الغني المترف المنصرف إلى اللهو والفروسية والصيد ، فيقبل على تربية الخيل والعناية بها ، وبالتالي يعنى بوصفها عناية ما أحسب أن شاعراً جاهلياً سبقه إليها

لقد وقف عدي عند كل جزء من أجـزاء جسم فرسه ، كما يقف الرسام الفنان يرسم لوحة لجواد أصيل ، فلم يكد يغادر

عضواً من أعضائه إلا رسمه ، ونحن إذا جمعنا هذه الأجزاء التي رسمها عدي إلى بعضها ، وأضفنا إليها الألوان والشيات والخصائص التي أسبغها عليه ، تمت لدينا اللوحة الشاخصة لجواد عدي المطهم الجميل .

ومن قطعه الجامعة لأوصاف فرسه الضخم النشيط ميميته التي يقول فيها :

له قُصَّةٌ فشغَتْ حاجبَيْهِ والعينُ تبصرُ مافي الظُّلَمْ
له كتِفانِ عَلاويتانِ كصَفْحٍ أو أَلْيَةٍ من إرَمْ
له عنُقٌ مثلُ جذعِ السَّحوقِ وأذنٌ مُصَعَّنَةٌ كالقَلَمْ
سليمُ النُّسور إلى حافِرٍ وأرساغُه لم تُرمَّلْ بِدَمْ
له ذنبٌ مثلُ ذيلِ العَروسِ على سَبَّةٍ مثلِ جُحْرِ اللُّجَمْ

في القطعة خطوط واضحات من صورة فرسه الجميل القوي ، فشعر ناصيته قد غطى حاجبيه ، وعيناه متقدتان تبصر ما في الظلم ، وكتفاه عاليان كصفح الجبل . أما عنقه فممتد طويل شامخ مثل جذع النخلة السامقة ، وفي آخره أذنان دقيقتان منتصبتان كالقلم ، وحافره سليم لا علة فيه ، وذنبه ممتد كثيف كذيل العروس ، قد أسبل على إست مثل جحر دويبة اللجم .

ومن مجموع هذه الصفات نتصور جواد عدي ، فنراه ضخماً كثيف الشعر ، متقد العينين من الحيوية والنشاط، مشرف العنق ، مستوفزاً ، نظيفاً ، يختال بذنب سابغ أثيل كذيل العروس ، مستقيم الخلق ، مستوي الأعضاء

ويكمل هذه الميمية في اعطاء الصورة الجلية الواضحة لجواد عدي هذه الأبيات :

ولقد أغدو بطِرْفٍ زانَهُ
وجهٌ منزوفٍ ، وخدٌّ كالمِسَنْ
ذي تليلٍ مُشْنِقٍ قائدَهُ
يَسَرٌ في الكفِّ،نَهْدٌ، ذي غُسَنْ (١)
مُدْمَجٍ كالقِدْحِ لا عيبَ بهِ
فيُرى فيهِ ، ولا صَدْعَ أُبَنْ (٢)
رمَّهُ الباري فسوَّى دَرْأَهُ
غَمْزُ كفَّيهِ وتخليقُ السَّفَنْ (٣)
أيْ ثغرٍ ما يُخَفْ يُنْدَبْ لهُ
ومتى يُخْلَ مِنَ القَوْدِ يُصَنْ

(١) التليل : العنق ومشنق قائده : رافع رأسه .
(٢) الأُبَن : جمع أُبْنَة ، وهي العيب .
(٣) التخليق : التمليس . والسَّفَن : ما ينحت به الشيء .

كربيبِ البيتِ يَفْري جُلَّهُ
طاعةُ العُضِّ وتسحيرُ اللَّبَنْ (١)

فبلَغْنا صَنْعَهُ حتّى شتا
ناعمَ البالِ لَجوجاً في السَّنَنْ (٢)

فاذا جالَ حِمارٌ مُوحِشٌ
ونَعامٌ نافِرٌ بعدَ عَنَنْ

شاءَنا ذو مَيْعَةٍ يُبْطِرُنا
خمَرَ الأرضِ وتقديمَ الجُنَنْ (٣)

يرأبُ الشَّدَّ بسَحٍّ مُرْسَلٍ
كاحتفالِ الغيثِ بالمُزْنِ اليَفَنْ (٤)

أنسلَ الذِّرْعانَ غَرْبٌ خَذِمٌ
وعلا الرَّبربَ أزْمٌ لمْ يُدَنْ (٥)

---

(١) طاعة العضّ : وفرة العلف . وسحّره : أطعمه وعلله .

(٢) صنعه : حسن القيام عليه والسنن : نشاطه .

(٣) شاءنا : سرنا وأعجبنا . ذو ميعة : ذو نشاط . ويبطرنا يعجلنا . والجُنن : جمع جُنّة ، وهي كل ما وقى .

(٤) الشدّ . العدو . والسح : الصب الغزير المتتابع والمزن اليفن : السحاب المتكاثف القطر .

(٥) الذرعان : أولاد البقرة الوحشية : والغرب : النشاط . والخذم : السريع . والأزم : العضّ . لم يدنّ : لم يضعف .

فالذي يُمسِكهُ يَحْمَدُهُ
تَئِقٌ كالسِّيدِ ، ممتدٌّ الرَّسَنْ [١]
وإذا نحنُ لدينا أربعٌ
يَهْتدي السائلُ عنّا بالدَّخَنْ

في هذه الأبيات يغدو عدي بطرفه ، أي بفرسه الكريم ، فيشعرنا منذ اللحظة الأولى أنه جواد أصيل جميل ، ثم ينطلق في وصف جزئيات هذا الجمال : فلون وجهه كلون وجه المنزوف، وهو مما يستحسن من الألوان ، وخده صقيل أملس كحجر المسن طويل العنق ، رافع الرأس ، ذلول ميسر ، نهد جميل المنظر ، تزينه خصلات من الشعر ، ملفوف الخلق ، مدمج كالسهم الذي أصلحه الباري وسوّاه من كل عوج وأجاد تمليسه فلا عيب فيه.

وإلى جانب هذا الجمال الجسمي لم تعرف له كبوة أو عثرة، ولذلك فهو يندب ويركب عند الشدائد والأزَمات ، وقد أحسن القيام عليه وتعهده كما يتعهد ربيب البيت ، فقدم له العلف الوافر ، وعلله باللبن السائغ ، حتى غدا يمزق جُلَّهُ عن سَراته من شدة البطر والرفاهية ، لجوجاً في نشاطه ، منعماً في مظهره وخطراته ؛ ثم يصف سرعته الفائقة ، فيرسم لذلك مشهداً للطراد : فاذا جال أمامه

(١) تئق : ممتلىء نشاطاً . والسِّيد : الأسد .

حمار من الوحش ، أو عنَّ أمام ناظريه نعام نافر ، انطلق في أثره بعدو يشبه سح المطر الغزير المتتابع المنهل من سحاب متكاثف القطر . وما اعتلى صهوته فارس أو أمسك بزمامه إلا أثنى عليه . إنه جواد تئق ممتلىء قوة ونشاطاً واندفاعاً ، كالأسد لا يرى رسنه إلا ممدوداً من شدة جريه .

وتستبد سرعة الفرس بالشاعر ، فتصرفه عن مشهد الصيد ، فلا يجعل له من نصيب سوى البيت الأخير ، الذي يبدأ باذا الفجائية ، يطوي بها مشهد الاقتناص ، كأن سرعة الفرس الفائقة مكنت الفارس من أن يطبق على الصيد ، فاذا هو يقتنص أربعاً من بقر الوحش في لمحة عين .

ويكثر عدي من ذكر تعهده لفرسه ، وحسن القيام على تربيته ، والعناية بطعامه وشرابه وتضميره وركوبه في فترات معينة ، حتى أضحى نشيطاً فارهاً حسن المنظر ، نهداً شامخاً يبذ الجياد الأصيلة إذا ضمه معها ميدان سباق :

تَربَّبْتُهُ لم آلُ في سَغَباتِهِ
فتُبصِرَهُ عينٌ إذا شِيرَ ضائِعا (١)

---

(١) شير : عرض .

فذلَّقتُه حتَّى ترفَّعَ لحمُه
أُداوِيه مكنونًا وأركبُ وادِعا (١)
فصافَ يُفرّي جُلَّهُ عنْ سَراتِه
يَبُذُّ الجيادَ فارِهًا مُتتابِعا (٢)
فآضَ كصدرِ الرُّمحِ نَهْداً مُصدَّراً
يُكفكِفُ منهُ خُنزُوانًا مُنازِعا (٣)

وكم كان يحلو لعدي أن يصف ركوبه جواده ، متغنياً بجماله وقوته ونشاطه وسرعته :

قد تبطَّنْتُه ، بكفَّيَّ خَرّا
جَ من الخيلِ ، فاضلٌ في السِّباقِ
يَسَرٌ في القيادِ نَهْدٌ ذفيفُ ال
عَدْوِ ، عَبلُ الشَّوى أمينُ العُراقِ (٤)

(١) ذلقته : ضمَّرته .
(٢) صاف : مال . يفرّي : يمزق . والجلّ : ما تلبسه الدابة لصيانتها . وسراة الفرس : ظهره .
(٣) الخنزوان : الكبر .
(٤) الذفيف : السريع الخفيف وعبل الشوى : ضخم الأطراف. وأمين العراق : قوي العظم .

لم يُقيَّلْ حرَّ المَقيظِ ولمْ يُلْ
جَمْ لِطَوْفٍ ولا فَسادِ نِزاقِ
غير تيسيرِه لِرَغْباءَ إنْ كا
نَتْ،وحربٍ إنْ قَلَصَتْ عن ساقِ
وله النّعجةُ المَرِيُّ تُجاه الرَّ
كبِ، عِدْلاً بالنَّابِيء المِخْراقِ
والخِدَبُّ العاري الزَّوائِدِ م الحَفَّا
نِ داني الدِّماغ لِلآماقِ (١)

وفي هذه الأبيات يصف جواده بألفاظ تلقي ظلال القوة والنشاط والضخامة والجمال على فرسه، فهو يسر في قياده، نهد لحيم مشرف، ضخم الأطراف، قوي العظم، دُرِّبَ على المجالدة والنضال، لم يلجم للعب أو مشاحنة، وإنما يدخر فلا يلجم إلا لأداء حق، أو دفع ضيم، أورد غارة، سريع العدو فما تنجو منه نعجة أو ثور أو نعام.

وجواد عدي أحمر اللون إلى سواد، فلونه كلون الأديم العكاظي المشهور وقد فضل الجياد الأصيلة بعرقه الكريم وسلالته

(١) الخدب : العظيم الضخم من النعام وغيره . والحفّان : ولد النعام . والآماق : مجاري الدمع من العين .

العريقة ، منتصب كالتمثال الضخم ، متحفز دوماً للحركة والانقضاض يصهل فيسمع له صوت كهزمة الرعد :

ولقدْ أَغْدو ويَغْدو صُحْبَتي بكُمَيْتٍ كعُكاظِيِّ الأُدُمْ
فضَلَ الخيلَ بعِرْقٍ صالِحٍ بيْنَ يَعْبوبٍ ومن آلِ سُحَمْ
فتنامَتْ أفحلٌ نُجْبٌ بهِ فهو كالتِمثالِ جيَّاشٌ هَزِمْ

ويرسم عدي طباع جواده في حالتي الركوب والراحة ، فمن طباعه حين الركوب أنك إذا هيجته هاج وثار ، واندفع يموج في عدوه في ثورة واضطراب . وفي حالة راحته تراه في الضحى يرزم بصهيله الصخب ارزام الرعد . وقد نفش شعره الذي استرسل على عنقه كحبل من مسد :

هَيِّجُ البُوعِ إذا هيَّجْتَهُ
يخلطُ المَعْجَ بتَقْريبٍ وشَدّْ
صَخِبُ التَّعْشيرِ مِرْزامُ الضُّحى
ناسِلٌ عِقَّتُهُ مثلَ المَسَدْ

وهكذا لم يدع عدي شيئاً في فرسه إلا وقف عنده وصوره . وأعتقدُ أن فيما اجتزأت من نصوص دليلاً بيناً على مدى استقصائه لأوصاف فرسه ، فلقد وصف ناصيته ورأسه وشعره وعينه وأذنيه

وخده ووجهه وعنقه وكتفيه وذنبه وحافره ، وتحدث عن جماله ولونه وشكله وهيئته وقوته وبطره ونشاطه وطباعه وصوته وسرعته وعرقه وحسن القيام عليه . . وهذا لعمري استقصاء لوصف الفرس قلّ أن بلغه شاعر جاهلي .

وإذا دلّ هذا الاستقصاء والتفصيل على شيء ، فانما يدل على هواية عدي للخيل وشغفه بركوبها والتمتع بجمال منظرها . ولقد بلغ من عنايته بجواده أن شبهه بربيب البيت ، وكرس الكثير من وقته لخدمته والسهر على تربيته ، كما بلغ من اعجابه به أن شبه ذنبه بذيل العروس الأنيق .

وكثيراً ماكان يتوصل عدي إلى وصف فرسه وسرعته بعد أن يتخلص من وصفه للرياض وما فيها من حيوانات برية ، وسرعان ما ينتقل المشهد ويحتدم الطراد بين جواده المطهم الجميل وبين بقر الوحش أو حمرها ، وينجلي الغبار فاذا الجواد قد أدرك المطرود بلمحة عين . وفي ذلك تصوير لحياة الصيد واللهو والانطلاق التي كان يحياها عدي ولا يبغي بها بديلاً .

وقد توصل عدي إلى إعطاء صورة واضحة عن فرسه تارة بالألفاظ الغابرة المتخيّرة التي تحمل الأوصاف السريعة المركزة ، وتارة بالتشابيه المحكمة الطريفة .

ومن الألفاظ المصورة السريعة قوله :

يَسَرٌ في القِياد ، نَهْدٌ ،ذفيفُ العَدْوِ ،عَبلُ الشَّوي،أمينُ العُراقِ

فكل لفظ أو عبارة رسمت خطاً من خطوط الصورة الكبيرة لهذا الفرس ، وقد اجتمع في هذا البيت من صفات الفرس : سهولة القياد ، وجمال المنظر ، وسرعة العدو ، وضخامة الأطراف ، وقوة العظم .

ومن تشابيهه الرائعة في وصف سرعة فرسه قوله :

يَرْأَبُ الشَّدَّ بسَحٍّ مُرْسَلٍ
كَاحتِفالِ الغيثِ بالمُزْنِ اليَفَنْ

فعدوه يشبه انسكاب المطر الغزير المتتابع من سحاب متكاثف القطر ، وهي صورة جديدة دقيقة في تركيبها ، ولعلها من مبتكرات عدي الرائعة في وصف سرعة فرسه وادراكه الطريدة .

ونحوها قوله :

كأنَّ ريِّقَه شُؤْبوبُ غادِيَةٍ لمَّا تقفَّى رقيبَ النَّقْعِ مُسْطارا

وتشبيهات عدي تأتي سريعة عندما يصف جزءاً من صورة الفرس ، فكتفاه كصفح الجبل ، وعنقه مثل جذع النخلة، وأذناه

منتصبتان كالقلم ، وذنبه كذيل العروس .

وقد يطيل ، على غير عادته ، في التشبيه فيلتفت إلى تفصيل المشبه به في بيتين ، وذلك عندما يرمي من التشبيه إلى اعطاء صورة كلية لهيئة الفرس العامة ، ومن ذلك قوله :

مُدْمَجٍ كالقِدْحِ لاعيبَ بهِ فيُرى فيه، ولا صَدْعَ أُبَنْ
رمَّهُ الباري فسَوَّى دَرْأَهُ غَمْزُ كفَّيهِ وتخليقُ السَّفَنْ

وتشبيهاته حسية منتزعة من البيئة التي يجري فيها الطراد والسباق والصيد . أما ألفاظه في وصف الفرس فخشنة وعرة ، يكثر فيها الغريب ، وكأنه احتطبها من جو البادية وميادين السباق :

ومكانٍ زَعِلٍ ظِلْمانُهُ
كرجالِ الحُبْشِ تمْشي بالعَمَدْ (١)
قد تبطَّنْتُ وتحتي جُرْشُعٌ
أيِّدٌ أسفلُهُ ضخمُ الكَتَدْ (٢)
هيِّجُ البُوعِ إذا هيَّجتَهُ
يخلِطُ المَعْجَ بتقريبٍ وشَدّ (٣)

(١) الزعل : النشيط .
(٢) الجرشع العظيم الصدر من الابل والخيل . والكتد : مجتمع كتفي الفرس .
(٣) البوع : الباع . وهيج البوع : ثائره . والمعج : الاضطراب . والتقريب والشد : ضربان من العدو .

يُغْرِقُ المطرودَ منه وابِلٌ
ضابِطُ الوَعْثِ ضَبوعٌ في الجَدَدْ (١)

وجماع القول أن عدياً أفلح في رسم صورة كاملة لفرسه الجميل ، القوي ، الضخم ، الصخّاب ، الكثيف الشعر ، السريع الجري ، بأسلوب رصين جزل العبارة محكم الصياغة ، تغلب عليه مسحة البداوة ، وقسوة البادية ، وعنف الصيد والطراد .

ب - وصف الأوابد :

إذا كان الشعراء الجاهليون كامرىء القيس ولبيد والنابغة قد اتخذوا من وصف الأوابد وسيلة لابراز قوة ناقتهم وصبرها وسرعتها ، فان عدياً ، الشاعر الحضري الذي لم يعن بوصف الناقة ، قد اتخذ من وصفه للأوابد سبيلاً إلى وصف فرسه الجميل وسرعته الفائقة في رحلاته البطرة للصيد واللهو وتزجية أوقات الفراغ .

وفي وصفه للأوابد تتداخل الطبيعة الساكنة بالطبيعة المتحركة ، ذلك أن عدياً ، على ما يظهر ، كان يعتلي صهوة جواده ويغشى الرياض والسهول الفسيحة التي يقضي فيها أويقات فراغه ولهوه ، فيدفعه شغفه بالخيل إلى وصف جواده وتصوير سرعته

---

(١) الوعث : الطريق العسر . وضبوع : شـــديد الجري . والجدد : الارض الغليظة المستوية .

ومطاردته للوحوش النافرة أمامه ، وعندما يمر بتلك الرياض المزهرة والسهول الممتدة يصف ما تقع عليه عينه من روض مخضوضر بهيج ، وحيوان نافر جميل ، ومشهد للصيد دام عنيف. وكل ذلك لابراز غرضه الأصيل ، وهو وصف فرسه وسرعته.

ولعدي في ذلك لوحات ومشاهد شاخصات تنطق بقدرته على رسم اللوحات الغنية باللون والحركة والتشخيص .

ولعل من أجمل قطعه وأكثرها دلالة على فنه التصويري قافيته في وصف الروض الخصيب الذي انتشر فيه بيض النعام ، وامتلأ بالنعاج المطفلات :

ومَجودٍ قدِ اسْجَهَرَّ تَناوِيـ
ـرَ كلَوْنِ العُهون في الأَعلاقِ [1]
في خريفٍ سقاهُ نَوْءٌ منَ الدَّلْـ
ـوِ تَدَلَّى ولمْ تَوارَ العَراقي [2]

---

(١) المجود : الروض جاده المطر الغزير . واسجهرّ : نوّر وتوقد حسناً بألوان الزهر . والاعلاق : جمع علق ، وهو النفيس من كل شيء .

(٢) النوء : المطر . والدلو برج في السماء . والعراقي : جمع عرقوة ، ويطلق على الكواكب في هذا البرج .

لم يعِبْهُ إلاّ الأَداحي فقد وبَّ
رَ بعضُ الرِّئالِ في الأَفْلاقِ (١)

وإِرانُ الثّيرانِ حولَ نِعاجٍ
مُطْفلاتٍ يَحْمينَ بِالأَرْواقِ (٢)

وتراهُنّ كالأَعِزَّةِ في المَحْـ
ـفِلِ ، أو حينَ نَعْمَةٍ وارْتِفاقِ

قد تَبطَّنْتُهُ ، بكَفّيَّ خَرّا
جٌ من الخيلِ ، فاضِلٌ في السِّباقِ

إنه روض مجود ، جاده المزن الهتون ، فاهتزت أرضه وربت ، وأنبتت من كل زوج من الزهر بهيج . وفي هذا الاطار الطبيعي الجميل يرسم عدي لوحة شاخصة للحيوانات التي تعيش في هذا الروض ، ويبدأها بأسلوب المدح بما يشبه الذم : لم يعبه إلا انتشار الأداحي ، ففي جنباته تبيض النعام ، وفي كل أدحية ترى رألاً أزغب من رئال النعام ، قد شق البيضة وراح يتطلع إلى الحياة في غرارة ، وينعم بهذا الوجود الشائق البهيج . ونمضي خطوة أخرى في هذا المشهد الشاخص ، فنرى الثيران النشيطة المتوثبة

(١) الأداحي : جمع أدحيّة ، وهي مبيض النعام في الرمل . والرئال : جمع رأل ، وهو ولد النعام . والافلاق : ما تفلق من البيض .
(٢) الإران : النشاط . والارواق : القرون .

حول النعاج المطفلات ، وهؤلاء يدفعن عن أنفسهن بقرونهن الحادة ، وتتلفت في زاوية أخرى من المشهد الكبير فتجد نعاجاً أُخر قد أخذت أماكنها في جنبات الروض ، متكئة مطمئنة ، كما يجلس السادة الأعزة في المجتمع الحافل متكئين مطمئنين ، تعلوهم السكينة والوقار .

إنها لوحة شاخصة لهذا الوادي الجميل الذي هبطه عدي ممتطياً صهوة جواده الأصيل ، وقد وفق الشاعر في رسمها حين وفر لها عناصر الوصف الحي من لون وحركة وتشخيص .

وقد يرسم عدي مشهداً كبيراً لمعركة الجري والطراد التي تجري بين فرسه وبين بقر الوحش ، وتنتهي بلحاق الطريدة ، وفي ذلك برهان وأي برهان على سرعة فرسه وجلده وحسن تدريبه . يقول :

وعونٍ يُباكِرْنَ النَّظيمةَ مَرْبَعاً
جَزأْنَ فلا يَشْرَبْنَ إلا النَّقائِعا
ويأكُلْنَ ما أَعْنَى الوليُّ فلمْ يُلِثْ
كأنَّ بحافاتِ النِّهاءِ المَزارِعا
تَضَيَّفْنَهُ حتَّى جهَدْنَ يَبيسَهُ
وآضَ الفُراتُ قائِظاً ليسَ جامِعا

فصادَفَنا في الصبحِ عِلْجٌ مُصَرَّدٌ
إذا ما غدا يَخالُه الغِرُّ ظالِعا
مُضَمَّمُ أطرافِ العِظام مُحَنَّباً
يُهَزْهِزُ غُصْناً ذا ذَوائبَ مائِعا
يُطيفُ بستٍّ كالقِسيِّ قَوارِبٍ
فأيْأَسَ ، إذ أدْبَرْن ، مَنْ كانَ طامِعا
أحالَ عليهِ بالقَناةِ غلامُنا
فأَذْرِعْ بهِ لِخَلَّةِ الشاةِ راقِعا
متَى يهبِطا سَهْباً فليسَ حمارُه ،
وإنْ كانَ علجاً مُضْمَرَ الكَشْحِ ،طالِعا
تردَّيْنَ ثوباً واستَغاثَ بمُغْوِلٍ
يُضيفُ ويُعْطي الغَرْبَ غَرْباً مُنازِعا
فلما استدارَ واستدَرْنَ بريِّقٍ
يُخَلْنَ بهِ دونَ الغُبارِ شوافِعا

وهو مشهد للطراد طويل يذكرنا بمشاهد زهير والنابغة ، يصف فيه جماعة من الوحش باكرن النظيمة ، وهي شعب فيه غدر متواصلة ، جزأن سيرهن ، ووقفن يشربن عند كل نقيعة ، ويأكلن ما أنبت المطر من زرع حتى أتين عليه . ومع انبلاج

الصباح صادف الركب حمار سمين عطشان يظلع في مشيته ، متوجس منكمش على نفسه ، يتحرك فتهتز ذوائب ناصيته المائعات، وكان يطيف بست من الأتن العطاش ، أسرع خلفهن فأيأس من كان طامعا بصيدهن . وهنا كان لا بد من القضاء عليه أولاً ، فأقبل الغلام بفرسه ، وما أسرعه من فرس ما تكاد تكون بينه وبين طريدته فرجة ، وما أفلت منه حمار قط ، مهما كان مضمر الكشح سريع العدو . وتتسع رقعة الصورة ، وتتعدد خطوطها وتتكاثف ظلالها ، فيثور الغبار حتى يستر الأتن ، فكأنهن تردين ثوباً من الغبار بسبب سرعتهن . ويستغيث الغلام بفرسه، فيستجيب الفرس ويبدي نشاطاً ينازع به نشاط الأتن ويزيد عليه . ويخيل للمشاهدين هذا السباق أن الفرس لسرعته قد حاذى الأتن، وهو دون غبارهن قد أوشك على اللحاق بهن .

وقد يختصر عدي تفاصيل مشهد الصيد ، ويفجأك رأساً بالنتيجة النهائية للطراد الذي جرى وكلل بصيد ثمين ، طاوياً عنك كل معاركه الدامية وأجوائه المغبرّة :

وإذا نحنُ لدينا أربَعٌ يَهْتدي السائلُ عنّا بالدَّخَنْ

لكأن سرعة الفرس أعقبها مباشرة صيد أربع من بقر الوحش، وسرعان ما انتشرت ريح شوائها في البراري ، فجلبت إليهم السائلين.

وبذلك يطوى عنك أيضاً تهيئة الصيد للشواء ، وشعل النيران ، ورفع اللحم عليها بكلمات قصار ، ويعبر عن ذلك كله بلمسات توحي بكل هذه الأعمال .

ومن صوره الجميلة هذه الصورة الفزعة لقطيع حمر الوحش المطارد :

فحمَلْنا فارساً في كفّهِ راعِبِيٌّ في رُدَيْنِيٍّ أَصَمّْ
صالِحاً قد لفّهافاسْتَوْسَقَتْ لفَّ بازيٍّ حَماماً في سَلَمْ

وهي صورة نفسية وحسية في آن ، تمثل الحمر وقد تجمعت إلى بعضها من الرعب كما يلفّ البازي الحمام إلى بعضه ، فينساق من رعبه إلى شجر السلم يختبىء بين أغصانه .

لقد صور عدي الأوابد التي صادفها وبيئاتها التي غشيها ، فرسمها تارة في لوحات طويلة ، وتارة في لمسات سريعة ، كلمات معدودات . واستطاع أن يعكس في عرضه لهذه المشاهدواللوحات صورة حية لحياة اللهو والصيد التي كان يحياها ، فيها الحركة والانطلاق والانقضاض والتوثب ، فدل بذلك على دقته وصدقه في رسم المشاهد ، وبراعته في تلوين الصور وتنويعها .

م - وصف السحاب :

وصف عدي السحاب في مطالع قصائده ، فبث في هذا

الوصف همه الدفين وشكا أرقه الموجع ، وعبر عما في نفسه من آلام.

وكأن اختياره السحاب كمقدمة وصفية لغرضه الأصلي ، الاعتذار أو الموعظة ، انعكاس لنفسه المكلومة التي أثقلتها الهموم وأضنتها الأحزان . والهموم إذا تراكمت على الصدر أشبهت السحب المتراكبة ، كظلمات بعضها فوق بعض . فهل على الشاعر المتألم من جناح إن هو أرق لمشهد السحاب المكفهر المبرق ، ورأى في تراكم طبقاته شبيهاً لتراكم همومه وأشجانه ؟ :

أرِقتُ لمُكْفَهِرٍّ باتَ فيهِ
بوارقُ يرتَقِينَ رؤوسَ شِيبِ (١)
تلوحُ المشرَفِيَّةُ في ذُراهُ
ويجْلو صفْحَ دَخْدارٍ قَشيبِ (٢)
كأنَّ مآتماً باتتْ عليهِ
خضَبْنَ مآلِياً بدمٍ صَبيبِ (٣)
سقَى بطنَ العقيقِ إلى أُفاقٍ
ففاثورٍ إلى لَبَبِ الكَثيبِ

(١) الشيب : يريد بها الجبال المبيضة من الثلج .
(٢) الدخدار : الثوب الأبيض المصون ، أعجمي معرب .
(٣) المآلي : جمع مئلاة ، وهي خرقة تمسكها المرأة عند النوح ، وقد تتخضب بالدم من شدة الضرب واللطم .

فروَّى قُلَّةَ الأدْحالِ وَبْلاً
ففَلْجاً فالنَّبِيَّ فذا كَرِيبِ
سعَى الأعداءُ لا يألونَ شَرّاً
عليَّ وربِّ مكَّةَ والصَّليبِ

وهو وصف للسحاب المتراكب المتوالي ، تلتمع فيه البوارق من السحب الحفّل ، ويسير هذا السحاب ماراً بعديد من الأماكن فيرويها . ويعدد عدي هذه الأماكن التي انهلت عليها سكائب الغيث ، ويحددها بدقة ووضوح .

وقد جاءت تشبيهات الشاعر واستعاراته مغموسة بحوض نفسه القلقة الأرقة المعتمة ، فمن ذرى السحاب المظلم يومض البرق، وحمرته كالخرق المخضبة بدم المآتم .

وهكذا نرى عدياً يسلي أرقه بمشهد السحاب ، فيتتبع سيره الواني الثقيل ، جاعلاً من هذا الوصف سبيلاً يلج منه إلى غرضه الأصلي ، وإطاراً مناسباً للمضمون . يقول :

وحَبِيٍّ بعدَ المنامِ تُزَجِّيـ
ـهِ شَمالٌ كما يُزجَّى الكَسيرُ
وسْطُه كاليَراع أو سُرُجِ المِجْـ
ـدَلِ حِيناً يَخْبو وحيناً يُنيرُ

مثلَ نارِ الحَرّاضِ يجلو ذُرى المُزْ
نِ لِمَنْ شامَهُ إذا يَستطيرُ
زَجَلٌ عَجْزُهُ يُجاوِبُه دُفٌّ
لِخونٍ مأْدوبَةٍ وزَميرُ
فتأَيّا بالرِّيِّ نِقْدَةَ فالْخَبْ
تَيْنِ حَطَّتْ منه هُنالِكَ عِيرُ
هَزِجٌ وَبْلُه يسُحُّ سُيُوبَ الْ
ماءِ سَحّاً كأنَّهُ مَنْحورُ
فسقَى البَضَّ فالبَسيطةَ فالجَرْ
فَيْنِ يَهْدي لِصَوْبِه ويَحورُ
فاستدارَتْ بهِ الجَنوبُ على الحَزْ
نَةِ فالحِنْوِ سَيْرُهُ مَقْصورُ
لم أُغمِّضْ لهُ ، وشَأْني بهِ : ما
ذاكَ أنّي بصَوْبِه مَسْرورُ
بَلْ عَناني قولُ امرِئٍ لم يكنْ فيـ
ـهِ صَوابٌ بَدْءاً ولا تَعذيرُ

وهو في هذه الأبيات يصف السحاب المجتمع المتداني ، تدفعه الرياح فيسير بطيئاً كالكسير يزجي أحمالاً ثقيلة ، فيحطها

في أماكن كثيرة يعددها ، وينبعث من هذه السحب المتكاثفة صوت رعد كأنه قرع دف وصوت زمر ينبعثان من وليمة عرس، وتتألق في قلب هذه السحب ومضات من البرق تظهر وتخبو . وفي ذلك تصوير للسحاب وسيره وبرقه ورعده باللون والحركة والايقاع ، يشترك في التصوير جرس الكلمات ونغم العبارات ، والتشابيه ، وموسيقا السياق والقافية ، فاذا هو مشهد للسحاب شاخص تتملاه العين والأذن والحس والخيال .

على أن هذا المشهد كله لم يكن سبباً في أرق عدي ، بل أرقته الوشايات الموجعات . ومن ثم كان وصف السحاب يومىء إلى قلق عدي النفسي ، ويشير إلى أن الهموم تراكمت على صدره تراكم هذه السحب الكثيفة المظلمة .

* * *

٦

أغراض أخرى :

هناك أغراض مختلفة نظم فيها عدي ، ولكنه لم يكثر منها ، لأن معظم هذه الأغراض لم تكن لتشغل تفكيره . إلا أن الملابسات القاسية التي رافقت حياته دفعته إلى الخوض في هذه الموضوعات التي لم تعد أن تكون صدى لما حز في نفسه من ألم .

وهذه الأغراض هي :

آ ـ الفخر :

ليس غريباً على مثل عدي أن ينظم في الفخر ، فلقد كان له من منزلة أسرته الرفيعة وما وصل إليه من مكانة سامية ونفوذ عريض في البلاطين العربي والفارسي ما يدفعه إلى الزهو والاعتداد والفخر .

وعلى كثرة ما توفر لعدي من بواعث الفخر فان طبيعة حياته الحضارية والرسمية لم تدفعه إلى الاكثار منه ، فنحن لا نكاد نجد له إلا أبياتاً مبثوثة في اعتذاراته للنعمان ، ساقها في الرد على أباطيل خصومه واتهاماتهم له بالخيانة والغدر ، وليثبت للنعمان

كرمه ووفاءه وحسن بلائه . ومن ثم كانت معظم هذه الأبيات تدور حول الاشادة بسجاياه وخلائقه ، وتعدد صفاته وشمائله .

فهو الفتى الجلد الصبور المتزن ، ليس بالضعيف العثور أمام الأيام :

إنْ يُصبِنْي بعضُ الأَذاةِ فلاوا
نٍ ضَعيفٌ ولا أَكَبُّ عَثورُ
غيرَ أنَّ الأيّامَ يخضَعْنَ بالمَرْ
ءِ وفيها المَيْصاءُ والمَيْسورُ

وهو الناصر الذابّ عن حياض شرفه وقومه يوم الشدة والضيق الذي لا يثبت فيه إلا الشجاع النحرير :

وأَنا النّاصرُ الحقيقةَ إنْ أظْ لَمَ يومٌ تَضيقُ فيهِ الصُّدورُ
يومَ لا ينفَعُ الرَّواغُ ولايَنْ صَعُ إلاّ المشيَّعُ النِّحْريرُ

وهو الكريم الجواد الوفي ، الذي لم يعرف عنه خنعة الأخلاء ولا بخلة الأشحاء ، يقول :

وما بدأتُ خليلاً أو أخا ثِقَةٍ
بخَنْعَةٍ ، لا وربِّ الحِلِّ والحَرَمِ

يأبى ليَ اللهُ خونَ الأصفياء وإنْ
خانوا ودادي ، لأنّي حاجزي كرَمي
ولا بخلتُ بمالي عنْ مذاهبِه
في حاجةِ الرُّزْء ، إنْ كانتْ ولا الذِمَم

وهو المتواضع الموطأ الكنف لأصدقائه ، العفو المتسامح مع الناس رغم قدرته على الاستعلاء عليهم والنيل منهم :

ألا يا رُبّما عزّ خليلي فتهاوَنْتُ
ولو شئتُ على مقدُ رَةٍ منّي لعاقَبْتُ
ولكنْ سرَّني أن يعْلموا قدري فأقلَعْتُ

وكأنه كان يحلو له أن يوصل لهذه المزايا بطيب محتده وشرف أرومته فيقول :

وإنّي لابنُ ساداتٍ كرامٍ عنهمُ سُدْتُ
وإنّي لابنُ قاماتٍ كرامٍ عنهمُ قُمْتُ
ألا لا فاسألوا الفِتْيَةَ ما قالوا وقدْ قُمْتُ

وباستعراض هذه النماذج التي قدمناها من فخر عدي، يتضح لنا أن فخره ذاتي شخصي ، لا يكاد يتمدى التنويه والاشادة بأخلاقه وسجاياه ، ونحن إذا ما تجاوزنا هذه الايماءات إلى نسبه

وشرف آبائه ، لا نكاد نعثر على أي أثر للاعتزاز بقومه أوقبيلته، إذ لم يعد للعصبية القبلية أية قيمة في نفس عدي وتوجيه حياته الشعورية ، فلقد أتت نشأته الحضارية في ظلال أسرته العريقة المتنفذة على الشعور القبلي عنده ، وجعلته لا يعبأ إلا بما حققت أسرته وحقق هو من أمجاد ، وما قدموا للبيت العربي المالك في الحيرة من خدمات ، وما عرف عنهم له من وفاء ونصح واخلاص .

ولقد عز عليه أن يطعن هذا الاخلاص المتوارث ، وأن يتهم في أعز ما يملك من إرث ، وهو الوفاء لهذا البيت ، فراح يدفع عن نفسه تهمة الخيانة التي ألصقها به الأعداء ، فينساق في حُميّا دفاعه عن نفسه إلى الاشادة بخصاله وأخلاقه ، ومن ثم كان فخره شخصياً لم يتعدّ هذا النطاق الفردي الذاتي .

ويحمل فخر عدي وهج شعور متقد متدفق ، فيه الألم على الماضي العزيز الحافل بالأمجاد والمسرات ، وفيه اللوعة من تآمر الأعداء وتنكر الأصدقاء ، وفيه نغمة الاستعلاء والعزة والاعتداد ، تتصاعد من اللفظ الكريم المتخيّر والسبك المتين الأخاذ .

ب - الهجاء :

والهجاء هو الصفحة المقابلة لصفحة الفخر عند عدي ،وهو

الصورة الغضبى التي تعكس الانفعال النفسي العرم الذي كان يستبد بعدي عندما يرى مواقف حساده وشانئيه المليئة بالغدر والكيد والتآمر .

فهو إذاً نفثات حارة يفثأ بها الشاعر من حدة غضبه ، ووسيلة يفضح بها كيدهم له وتآمرهم عليه ، ويكشف عما اتصفوا به من خسة في الطبع ودناءة في الخلق ، في مقابل ما اتصف به هو من شجاعة ونبل ووفاء وكرم .

وما كان لعدي ، وقد عرفنا نشأته وحياته الخاصة والعامة أن يركن لقول الهجاء ، فهو لم يعش حياة القبيلة وما فيها من عصبية وتحزب ، ولم ينفس على الشعراء تكسبهم من الملوك والأمراء ، ولم يمد يده قط مادحاً مستجدياً ، بل كان من علية القوم في عصره الذين لهم اليد الطولى في توجيه سياسة الملك وقيادة الجماهير .

ومن ثم كان طبيعياً أن ينصرف عدي عن الأغراض التقليدية الأخرى كالمديح والهجاء وغيرهما إلى الأغراض التي تلبي حاجة عقله ، وتلبي نداء قلبه وعواطفه ، وتنسجم مع طبيعة حياته الخاصة والعامة ، وألا نجد له في الهجاء سوى أبيات معدودات يتهجم فيها على أعدائه المتربصين به ، الكائدين له في الخفاء ،

فيصورهم تصويراً فيه التحقير ، وفيه السخرية ، وفيه الايلام :

ذَريني إِنَّ أمرَكِ لن يُطاعا
وما ألفيتِني حِلْمي مُضاعا
ألا تلكَ الثعالبُ قد توالَتْ
عليَّ وحالفَتْ عُرْجاً ضِباعا
لتأكلَني فَمرَّ لهنَّ لحمي
وأفرَقَ من حِذاري أو أتاعا
فان لم تَنْدموا فثكِلْتُ عَمْراً
وهاجرتُ المُروَّقَ والسَّماعا
ولا وضعَتْ إليَّ على فراشٍ
حَصانٌ يوم خَلْوَتِها قِناعا
ولا ملكَتْ يدايَ عنانَ طِرْفٍ
ولا أبصَرتُ من شَمْسٍ شُعاعا
وخُطَّةَ ماجِدٍ كلّفتُ نَفْسي
إذا ضاقوا رَحُبْتُ بِها ذِراعا

ينفلت عدي من عذوله اللائمة التي تحاول دوماًأن تكفكف من حدة انفعاله ، وينطلق مصوراً أعداءه ثعالب ماكرين ، وحلفاءهم ضباعاً عرجاً ، همهم أن ينالوا من كرامته ، ويسودوا

صفحته ، ويسيئوا إلى سمعته بين الناس . ولكن سرعان ما انكشفت لهم خطورة المعركة ، فأفرقوا خوفاً من مواجهته وأتاعوا . وبعد أن سخر منهم وأزرى بهم راح يتوعدهم ، فآلى على نفسه أن يهجر الراح والسماع ، وألا يخلو بحسناء ، وألا يعتلي صهوة جواد ، ودعا أن يطفىء الله نور عينيه ، وأن يفجعه الله بابنه ، إن لم يجعلهم يتجرعون كؤوس الندامة المرة . ويختم هجومه بتبيان الخطة المجيدة التي سمت إليها نفسه الكبيرة الطموح ، وقعدت عنها نفوس أعدائه الصغيرة الحاقدة .

إنها معان تنبع من نفس متأججة بالغضب ، فوارة بالحقد على الأعداء المتآمرين الماكرين ، ومن ثم جاءت عنيفة هادرة . وقد عرضها عدي عرضاً حياً قوياً ، إذ كساها تلك الصور الشاخصة المعبرة ، فالأعداء ثعالب ، وحلفاؤهم ضباع ، وليسوا ضباعاً فحسب ، بل ضباع عرج ، وفي استعارته للأعداء صورة الثعالب تصوير لمكرهم وخداعهم وسوء طويتهم ، وفي تشبيه حلفائهم بالضباع العرج على سبيل الاستعارة أيضاً تحقير واستهزاء بالحليفين .

ويعرض بعد ذلك محاولتهم النيل منه ، وهلعهم من مواجهته ، في صورة طريفة مضحكة . لقد حاولوا أكل لحمه فوجدوه مراً ،

ولم يؤوبوا بهذه المرارة فحسب . بل يبلغ بهم الشاعر إلى نهاية الصورة ، فاذا هم سلحوا وقاءوا خوفاً منه فيا للمفارقة المضحكة في أول البيت جاءوا مستأسدين ليأكلوا لحمه ، فما ينتهي البيت حتى نراهم في أشد وأبشع صورة من صورة الخوف ، صورة السلح والقيء المزرية المضحكة في آن .

ثم يكر عليهم بتهديداته التي صاغها بكنايات لطيفة بليغة ، ينذرهم فيها بالعاقبة الوخيمة التي تنتظرهم .

وعدي في هجومه على أعدائه وإزرائه بهم يقد الألفاظ قداً، ويقتطعها حرة جزلة فخمة ، تناسب الازراء والاساءة والخصام ، فلنسمعه يهاجم عدواً له فيقول :

أُطَحْطِحُه حتى أُضِلَّ جَخيفَهُ
ويُسرعُ فيه النافذاتُ البَواضِعا (١)
فكيفَ ترونَ السَّعْيَ أُسأَرَ قيلُه
على نُقَّبِ الوجوهِ سُوداً بَراقِعا

ويبدو مستعلياً على أعدائه ، وقد خضد من شوكة كبريائهم، وأذلهم بعد عزة ، وأسكتهم بعد ضجيج وصخب :

(١) أطحطه : أكسره . وأضل : أضيع . والجخيف : الكبر والعظمة .

أراهمُ بحَمْدِ اللهِ بعدَ جَخيفِهِمْ
غرابَهمُ إذْ مسَّهُ الفَتْرُ واقِما [1]

إنه الانفعال الحار الصادق الذي يبدع الصورة الحية،ويختار اللفظ الكريم الفخم ، ويرتبه في نسق متين محكم ، يتيح له أن يشع ما فيه من شحنات العاطفة الهائجة وحرارة الشعور العرم .

م - الاستنجاد والتحريض :

ومما يتصل بالموضوعات التي طرقها عدي،وهو يعاني عذاب السجن ، الاستنجاد والتحريض ، فلقد اعتذر للنعمان واستعطفه ، وشكا له ما يلاقي من عذاب ، فلم تتحرك الرحمة في قلبه ، وذهبت صيحاته الشاكية المستعطفة أدراج الرياح .

ولما طال به السجن ، وأيقن أو هداه حدسه إلى أنه ميت فيه لا محالة ، كبر عليه ذلك ، وراح يتلمس منفذاً جديداً للنجاة بتحريض أهله على فكاكه عنوة . ومن ثم راح يوجه صيحات الاستغاثة لهم ، بعد أن أعيته صيحاته الضارعة إلى النعمان .

ففي قافيته يصف زيارة أمه له ، ووقع تلك الزيارة في نفسه، فهي متلهفة لرؤيته مشتاقة ، فما يكاد يقع بصرها عليه ، وهو مغلول

(١) فترغراب الرجل : عاد هادئاً بعد صخب .

اليدين إلى العنق ، حتى يعرف في وجهها السوء ، وترتسم على على محياها أمارات الأسى والألم . ثم يناديها بالتصغير متحبباً إليها مخففاً عنها ما رأت ، مبيناً أنه لا يستطيع عناقها ، وهو مشدود الوثاق ، وأن الله قد يفرج ما هو فيه من كرب ، أو يأخذه إليه ، وهذه سنة الحياة ، وما دفعت الرواقي يوماً عن أحدحتفه، أو أخرت أجله :

ولقد ساءَني زيارةُ ذي قُرْ
بى حبيبٍ لِوُدِّنا مُشْتاقِ
ساءَهُ ما بِنا تَبيَّنَ في الأَيْ
دي وإشناقُها إلى الأَعْناقِ
فَاذْهبي يا أميمَ غيرَ بعيدٍ
لا يُؤاتي العِناقُ مَنْ في الوَثاقِ
وَاذْهَبي يا أميمَ إنْ يشأِ اللّ
هُ ينفِّسْ مِنْ أَزْمِ هذا الخِناقِ
أو تكنْ وِجْهَةٌ فتلكَ سبيلُ النا
سِ لا تمنعُ الحُتوفَ الرَّواقي

وتعاوده صحوة الحياة ، فتتطلع نفسه إلى ضوء الشمس يتسرب من كوة السجن المظلم العميق ، فتتوفز نفسه وتهفو للحياة ،

وينطلق صوته محرضاً أهله على إنقاذه ، مصوراً لهم حالته تصويراً مؤلماً مثيراً ، فهو موثق مكبل بالحديد المضاعف يغله في عنقه ، يرقبه الحارس ، وهو في ثياب مبللات أكلتها رطوبة السجن القاتلة ، فهي أخلاق مهترئة ، ثم يهيب بهم أن اركبوا فكوا أخاكم ، فان عيراً كثيرة مجهزة ترتقب صيحتكم لتزحف على السجن، وتنقذ السجين المعذب المظلوم :

وتقولُ العُداةُ أَوْدَى عديٌّ
وبَنوهُ قد أَيْقَنوا بِغَلاقِ
يا أبا مُسْهِرٍ فأَبْلِغْ رَسولاً
إخوتي إِنْ أتيتَ صحْنَ العِراقِ
أبلغَنْ عامِراً وأبلِغْ أخاهُ
أنّني موثَقٌ شديدٌ وَثاقي
في حديدِ القِسْطاسِ يرقبُني الحا
رسُ والمرءُ كلَّ شيءٍ يُلاقي
في حديدٍ مضاعَفٍ وغُلولٍ
وثيابٍ مُنَضَّحاتٍ خِلاقِ
فاركَبوا في الحَرامِ فُكّوا أَخاكُمْ
إنَّ عِيراً قد جُهِّزَتْ لانطِلاقِ

ولما ضاعت صيحته المستغيثة لأهله ، راح يستغيث بابنه في لاميته :

لِمَنْ ليلٌ بذي حبسٍ طويلُ
عظيمٌ ، شفَّهُ حزَنٌ دَخيلُ
وما ظُلْمُ امرِئٍ في الجيدِ غُلٌّ
وفي الساقيْنِ ذو حلَقٍ طويلُ
ألاهَبِلَتْكَ أمُّكَ عمْروُ بعْدي
أتقعُدُ ، لا أُفكّ ولا تَصولُ ؟
ألمْ يُحْزِنْكَ أنَّ أباكَ عانٍ
وأنتَ مغيَّبٌ ، غالَتْكَ غُولُ ؟
تُغنّيكَ ابنةُ القينِ بجَسْرٍ
وفي كَلْبٍ ، فيصحبُكَ الشَّمولُ
فلو كنتَ الأسيرَ ولا تكُنْهُ
إذاً علمتْ معَدٌّ ما أقولُ
وإنْ أهلِكْ فقدْ أبليْتُ قومي
بلاءً ، كلُّه حسَنٌ جَميلُ
وما قصَّرْتُ في طلَبِ المَعالي
فتقصُرُ بي المَنيَّةُ أوْ تَطولُ

يستهل هذه الأبيات بأنة باكية من السجن المعذب، يفجرها هذا الاستفهام الهادىء : لمن ليل بذي حبس طويل ؟ يشكو بها طول الليل في السجن المظلم ، ويتململ من الهم والحزن والكرب الذي هد كيانه ، وصدع قلبه ، فتتلوها زفرة أخرى مكروبة تحمل الحسرة والألم في صيغة سؤال : وما ظلم امرىء ؟.. في جيده طوق من حديد ، وفي ساقيه قيد ثقيل . وكأنه نفس بهذين الاستفهامين عن نفسه كربة ثقيلة ، فالتفت بعدهما إلى ابنه مثيراً فيه عاطفة البنوة ، مخاطباً إياه بهذا الاعلان والتنبيه، مستنكراً بروده ولا مبالاته بأبيه : ألا ثكلتك أمك يا عمرو أتقعد عن فكاكي لا تفعل شيئاً ؟ ويتبع استنكاره الأول باستنكار ثانٍ : ألم يحزنك أن أباك يتجرع كؤوس المذلة والهوان ، وأنت لاه عابث مخمور ضائع بين كأس وقينة ؟ ولو كنت أنت الأسير لشهد الناس دفاعي عنك . وينهي الأبيات مفتخراً بما قدم في حياته في سبيل قومه ، وبسعيه الحثيث في طلب المعالي ، وإذاً لا تثريب عليه طالت به المنية أم قصرت ، فالأمر عنده سيان .

إنها قطعة تعبر عن انفعال الشاعر انفعالاً شديداً ، ومبعث هذا الانفعال ألمه من السجن ، ومن ابنه العاق المتكاسل اللاهي عن فكاك أبيه والعمل من أجله . ونلاحظ أنه قابل عقوق ابنه

بحب واشفاق فقال : فلو كنت الأسير ولا تكنه . .

وتتجلى عاطفة الشاعر بهذه الصيغ الانشائية التي حفلت بها الأبيات . وقد كان الانفعال في عنفوانه في مطلع الأبيات ، ثم تخف حدته شيئاً فشيئاً حتى نهايتها ، كأن الشاعر بعد أن صب جام غضبه ، وأفرغ شحنته النفسية ، أدركه التعب ، وبلغ منه الجهد مبلغه ، فخارت قواه ، وتهدج صوته ، وتقطعت أنفاسه ، فراح يهدىء من روعه ، ويسترد أنفاسه اللاهثة المتعبة .

ويظهر أن الشاعر يئس من طريق العنف أيضاً بعد أن يئس من طريق الاعتذار والاستعطاف ، إذ لم تجده صرخاته المستغيثة المستنجدة بأهله وابنه شيئاً ، فلجأ إلى وساطة أخيه أُبيّ لدى كسرى ، فبعث إليه بقصيدة يبثه فيها شكواه مما هو فيه من عذاب ، ويطلب منه العمل على انقاذه من ظلام سجنه الرهيب .

غير أنه لا يحرضه فيها على تخليصه بالعنف كما رأينا في القطعتين السابقتين ، بل يوصيه ألا يغادر أرضه ويتورط بالمجيء إليه ، إنه إن فعل نام معه نومة ليس فيها حلم يقول :

أَبلِغْ أُبيّاً على نَأْيِهِ ... وهلْ ينفعُ المرءَ ما قدْ عَلِمْ
بأنَّ أخاكَ شقيقَ الفُؤا ... دِ كنتَ بهِ واثِقاً ما سَلِمْ
لدَى مَلِكٍ موثَقٌ بالحَدِيـ ... ـدِ ، إمّا بحَقٍّ وإِمّا ظُلِمْ

فلا تُلْفَينَّ كأُمِّ الغُلا ... م إلاَّ تجِدْ عارِماً تَعْتَرِمْ[1]
فأرضَكَ أرضَكَ إنْ تأتِنا ... تنَمْ نَوْمةً ليسَ فيها حُلُمْ

وواضح أن أسلوب عدي في هذه الأبيات يختلف عن أسلوبه في الأبيات التي تحرض على فكاكه بالعنف . فنفسيته هنا هادئة تبث الشكوى بهمسات حزينة متئدة . وباختفاء حرارة الانفعال اختفت الجزالة اللفظية وايقاع الغضب العنيف .

* * *

(١) العارم : الرضيع . وتعترم : تبتغي من يرضعها . ويقال هذا للمتكلف ما ليس من شأنه .

الفصل الثالث

شاعريته وفنه

١

الخصائص الفنية العامة لشعره :

في دراستنا لأغراض عدي ، وقفنا عند كل غرض وقفة طويلة ، استقرأنا فيها مذهب الشاعر ، وحللنا صنيعه الفني ، وكشفنا عن القيم الفنية التي بثها في تضاعيف شعره ، معناه ومبناه ، وحاولنا أن نستشف نفسية الشاعر من خلال ألفاظه وتعابيره وقوافيه ، وكنا ننتهي من دراسة الغرض ، وقد حددنا ملامحه الفنية العامة في الشكل والمضمون ، وأبنّا عن خصائص الشاعر الفنية فيه .

والآن ، بعد أن استكملنا دراسة أغراضه ، نقف لنلقي نظرة عامة على شعر عدي ، نحاول فيها أن نحدد الطوابع العامة التي تطبع شعره ، ونشير إلى السمات الكبرى التي اتسم بها فنه ،

والخصائص التي تميز بها عدي وتفرد .

وأهمها الخصائص الآتية :

١ - الابتكار والسبق :

لعل من أهم السمات البارزة في شعر عدي الابتكار والسبق، وهو ابتكار لم يقتصر على ناحية جزئية من نواحي القصيدة، بل تناول الأغراض والمعاني والصور واسلوب الأداء وشكل القصيدة ونهجها التقليدي العتيد .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إنه تجديد سابق لخطوات عصره ، ظهر على يد عدي في الشكل والمضمون ، وتناول الاطار والصورة ، وكان للمعنى والمبنى منه نصيب .

وسنكشف عن جوانب هذا السبق في التجديد ، فنتناول الأغراض التي سبق إليها عدي ، ثم نعرض لصنيعه الفني في كل من الشكل والمضمون .

آ - الأغراض :

مر بنا أن عدياً سبق إلى عدد من الأغراض ، ففتح أبوابها للشعراء ، ومهد لهم سبل الخوض فيها .

والغرض الأول الذي أصّل له عدي ، وأرسى دعائمه ،

وجعل منه موضوعاً بارزاً متميزاً في الشعر الجاهلي هو المواعظ .

لقد أسمعنا عدي بمواعظه لحناً جديداً واضحاً ، ما كان يصل إلى سمعنا منه إلا نغمات متفرقات من حكمة الشعراء الجاهليين وتأملاتهم أمثال زهير ولبيد وطرفة ، ولا تلبث هذه النغمات أن تتلاشى أمام ضجيج النغمات الأخرى التي حفلت بها القصيدة الجاهلية . وبعد أن كنا لا نعثر على الحكمة أو التأملات إلا في ثنايا الأغراض الأخرى ، أصبحنا ازاء قصائد أفردت لها ، واتسعت لآفاقها الفساح ، وضمت معانيها الغرّ الخرّد الحسان .

لقد ملك الوعظ على عدي نفسه،وشغل أحاسيسه ومشاعره، فوقف له كريم قريضه ، وأودعه عصارة تفكيره وثقافته،وواسع تجاربه ومشاهداته ، فارتاد بنا حقب التاريخ في عصوره المختلفات ، وعرض لنا مواكب الأمم والشعوب من كل جنس ولون ، وحدثنا عن الممالك الواسعة والقلاع الحصينة والمدن المزدهرة ، والحضارات الباذخة ، وكيف أن الموت والفناء عصف بالممالك والعروش ، وأتى على المدن والقلاع ، وأفنى الأمم والشعوب وبذلك قدم لديوان العرب غرضاً جديداً ، لم يسبقه إليه أحد من الشعراء الجاهليين .

ومن الأغراض التي سبق إليها عدي بدافع الوعظ القصص

الشعري ، الديني والتاريخي ، وهو قصص قائم على الثقافة والاطلاع، والمشاهدة والتأمل . وقد تحدث عدي في قصصه الديني عن منشأ الخلق ، وقصة هبوط آدم وحواء من الجنة ، مستمداً هذه المعلومات من قراءاته في الكتب الدينية اليهودية والنصرانية أما قصصه التاريخي فقد كان مدار تأملاته الواسعة عبر الأزمان الغابرة، تناول فيه الملوك والأمم والشعوب والممالك والمدن والقلاع ، فدل بذلك على ثقافة تاريخية ودينية ما عرف بها شاعر جاهلي في زمنه .

وقد مر بنا ، عند حديثنا على شعره القصصي ، ما ألمع إليه الجاحظ من سبق عدي إلى هذا الباب ، وأن النابغة قد ذهب مذهبه فيه (١) .

ومن الأغراض الهامة التي سبق إليها عدي الاعتذار والاستعطاف ، والمعروف الشائع أن النابغة الذبياني هو أول شاعر طرق باب الاعتذار ، وفتح لمن جاء بعده طريقه ، وحدد معالمه.

ولكن دراسة اعتذارات عدي مقارنة باعتذارات النابغة تكشف للباحث عن جوانب السبق في اعتذارات عدي ، وتحمله على الاعتقاد أن عدياً قد سبق النابغة إلى هذا الفن ، فكان بذلك رائد الاعتذار الأول في الشعر العربي (٢)

---

(١) انظر الشعر القصصي ص ١٦٧ . (٢) انظر اعتذارات عدي ص ١٣٠

وننتقل إلى وصف الخمر فنجد عـدياً من رواده الكبار وآبائه الأول ، فلقد وسع دائرة الحديث عن الخمر ، وأغنى وصفه لها مستقصياً ما يتصل بها وبمجالسها من قريب أو بعيد في قصيدة خمرية خاصة بها تقريباً ، فكانت خمرياته المثال الذي نهج نهجه من تلاه من شعراء الخمر كالأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبي نواس . وحسبنا تنويهاً بسبق عدي في الخمريات ما أبداه أبو العلاء في رسالة الغفران من اعجاب بصاديته الخمرية ، إذ جعل ابن القارح يستنشدها عدياً قائلاً : « يا أبا سوادة : ألا تنشدني الصادية ، فانها بديعة من أشعار العرب ، فينبعث منشداً :

أبلِـغْ خليلي عبدَ هندٍ فلا زلتَ قريباً من سَوادِ الخُصوصْ

فيقول الشيخ : أحسنت . والله أحسنت ، لو كنت الماء الراكد لما أسنت . وقد عمل أديب من أدباء الاسلام قصيدة على هذا الوزن وهو المعروف بأبي بكر بن دريد ، قال :

يَسْعَدُ ذو الجَدِّ ويَشْقى الحَريصْ
ليسَ لِخَلْقٍ عن قَضاءٍ مَحيصْ

إلا أنك يا أبا سوادة أحرزت فضيلة السبق [1] » .

---

(١) رسالة الغفران : ٧٠ وما بعدها .

وفي الوصف لم يلتفت عدي إلى وصف الناقة الذي كان من أبرز أغراض الشعر الجاهلي ، بل عني بوصف الفرس ، مطية الفارس المتحضر المترف ، عناية ما أحسب أن غيره من الشعراء الجاهليين بلغ مبلغها .

وبالجملة تلاشت الأغراض التقليدية البدوية من شعر عدي ، فلم يبق منها إلاّ ظلال شاحبة ، وحل محلها أغراض حضرية ، تشهد على تطلع عدي إلى التجديد والابتكار ، منسجماً بذلك مع بيئته وثقافته وطبيعته .

ب - **الشكل** :

لعل من أبرز مظاهر الابتكار في شعر عدي الشكل الجديد الذي ارتضاه لمعظم قصائده ومقطعاته .

كان الشاعر الجاهلي يلتزم في الغالب نهجاً معيناً للقصيدة العربية ، يقتضيه أن يقف على أطلال الحبيبة ، يبثها آلامه وأشجانه ، ويفضي إليها بحرقته وجواه ، ثم يصف ناقته وقوتها وصبرها على لأواء السير وحزونة الطريق ، وقد يستطرد إلى وصف مشاهد الصيد وما يضطرب فيها من طراد وعراك وتوثب وانقضاض . حتى إذا جاز ذلك كله تخلص منه إلى غرضه .

وقد نقع أحياناً على بعض المقطعات التي لم تخضع لهذا النهج التقليدي الراسخ ، إلا أن هذا النهج يبقى الهيكل السائد للقصيدة العربية الجاهلية ، والطابع المميز لها .

ولسنا نزعم أن عدياً تخلص نهائياً من هذا النهج التقليدي للقصيدة ، فقد وصلنا كثير من شعره الذي وقف فيه على الأطلال وناجى الديار سائلاً عن الأحبة الراحلين ، مستعرضاً جميل ذكرياته ، ساكباً غزير عبراته . بيد أنها وقفات قصار لا تشغل من هيكل قصيدته سوى أبيات معدودات ، وهي كل ما بقي لقصيدة عدي من الشكل التقليدي القديم ونهجها الملتزم .

وقد حل محل هذه المطالع التقليدية في شعر عدي بدايات تعكس الجو النفسي الذي يحياه الشاعر ، وتمهد للموضوع الذي يقدّم له ويتأهب لمعالجته ، يقول :

أروَاحٌ مودِّعٌ أم بُكورُ
لكَ فاعمدْ لأيِّ حالٍ تَصيرُ
إنَّ شَغْلَ المُصابياتِ من الأسـ
ـتارِ طرفٌ يُصْبي وفيهِ فُتورُ
زانهنَّ الشُّفوفُ ينضَحْنَ بالْـ
ـمِسكِ وعيشٌ مفانِقٌ وحَريرُ

كدُمى العاجِ في المَحاريبِ أو كا
بَيْضِ في الرَّوْضِ زَهْوُهُ مُستنيرُ
لا تُؤاتيكَ إذ صحوتَ وإذْ أجْـ
هَدَ في العارِضَيْنِ منكَ القتيرُ (١)
وابيضاضُ السَّوادِ من نُذُرِ المو
تِ وهلْ بعدَهُ لِحيٍّ نَذيرُ

على أن الغالب على شعر عدي القصائد والمقطعات التي تعالج موضوعاً واحداً يلف القصيدة أو المقطعة بجوه منذ البدء حتى الختام ، لا يشركه إلا ما يتصل به بسبب وثيق ، وأكثر ما توجد هذه الوحدة الموضوعية في اعتذاراته ومواعظه وحكمته وخمرياته وشعره القصصي ووصفه للشيب والشباب ، وهي الأغراض التي تتصل اتصالاً وثيقاً بنفسيته ، وتعبر عن أحاسيسه ومشاعره في ساعات جده ولهوه ، ونعيمه وعذابه ، واستمتاعه وتساميه .

وإنه لسبق كبير لعدي أن ينصرف عن الأطلال في كثير من قصائده ، وأن يستبدل بالبدايات الوصفية التقليدية بدايات يصوغها على عينه ، ومن معين تفكيره ، وأن ينقل الوحدة الموضوعية من البيت الواحد إلى القصيدة بأكملها ، مستجيباً

(١) القتير : الشيب .

في ذلك لما يدور في فكره ويعتلج في نفسه وينسجم مع طبيعة حياته الفكرية والاجتماعية والفنية ، وهو في ذلك كله يكسر من طوق التقليدية والتبعية في وقت مبكر شديد التبكير .

وحين ننظر إلى صنيع عدي في إطاره الزمني ، نراه قفزة ضخمة مبكرة في تطوير الشعر العربي ، شكله ومضمونه ، أحدثت صداها الواضح عند كثير من شعراء الجاهلية والعصور الاسلامية كالأعشى وعمر بن أبي ربيعة والوليد بن يزيد وأبي نواس وأبي العتاهية .

ﺟ - المضمون :

لقد كان لوحدة الموضوع التي ظهرت معالمها بوضوح في قصيدة عدي أثرها في غزارة معانيه وجدتها : فلقد دعاه الموضوع الواحد الذي ألح على نفسه ، واستأثر بمعظم هيكل قصيدته ، إن لم نقل تفرد بها واختص ، إلى تلوين وجوه القول ، والتفنن في تصريف المعاني وعرض الصور ، حتى غدت هذه الموضوعات المنسابة من قرارة نفسه ، النابعة من تفكيره الخصب ، ووجدانه المتوفز ، عنواناً على غزارة معانيه وغناها ، ودليلاً على سبقه في كثير منها إلى الأبكار الخرّد التي لم يفترعها قبله شاعر .

ولقد وقف القدماء عند كثير من معانيه التي سبق إليها، وأخذها عنه الشعراء المتأخرون فأقروا بذلك له بفضيلة السبق والابتكار وقوة الشاعرية .

ذكر ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء أن مما سبق إليه عدي فأخذ منه قوله لأخيه يحذره أن يدخل أرض النعمان :

فلا تُلْفَيَنَّ كأمِّ الغُلا م إلاَّ تَجِدْ عارِماً تَعْتَرِمْ[١]

أخذه ابن مقبل فقال :

لا أُلفيَنَّ وإياكُمْ كَعارِمَةٍ
إلاَّ تَجِدْ عارِماً في الناس تَعْتَرِمْ

ويروي له أيضاً بيتاً من صاديته التي يقول فيها :

بيتِ جُلوفٍ باردٍ ظِلُّهُ
فيه ظِباءٌ ودواخِيلُ خُوصْ[٢]

ثم يشير إلى أن هذه الصورة أخذها من جاء بعده - وهو علقمة - فقال :

كأنَّ إبريقَهمْ ظَبْيٌ على شَرَفٍ[٣]

(١) العارم : الرضيع . وتعترم : تبتغي من يرضعها .
(٢) الظباء هنا : الأباريق الضخام
(٣) انظر الشعر والشعراء : ١٨٢ ، ١٨٤

ويذكر مهلهل بن يموت [١] بيت عدي في الأثافي :

وثَلاثٍ كالحَمامات ِبها بينَ مَجْثاهُنَّ توشيمُ الحُمَمْ

ويقول : فسرقه أبو نواس فقال :

لِمَنْ طَلَلٌ عافي المَحلِّ دَفينُ عَفا آيُه إلاَّ خوالِدُ جُونُ

وفي الموشح للمرزباني [٢] أن محموداً الوراق وعلي بن الجهم اشتركا في معنى ، فقال علي :

كَمْ مِنْ عَليلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى
فنَجا وماتَ طبيبُهُ والعُوَّدُ

وقال محمود [٣] :

وكمْ مِنْ مريضٍ نعاهُ الطبيبُ
إلى نفسهِ وتَولَّى كَئيبا
فماتَ الطبيبُ وعاشَ المريضُ
فأضْحى إلى الناسِ يَنعى الطَّبيبا

(١) سرقات أبي نواس : ٨٦ .

(٢) الموشح : ٣٤٨ .

(٣) هو الشاعر محمود بن حسن الوراق ، عباسي ، اكثر شعره في المواعظ والحكم .

وأنهما أخذاه جميعاً من قول عدي بن زيد :

وصحيحٌ أَضحى يعودُ مَريضاً ... وَهْو أَدْنى للموتِ ممَّنْ يَعودُ

ويروي ابن عبد ربه في العقد[١] البيت التالي :

كنتُ مِنْ كربَتي أفرُّ إِليهمْ ... فَهُمُ كربَتي وأينَ الفِرارُ

ثم يقول : وأول من سبق إلى هذا المعنى عدي بن زيد :

لو بغيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ ... كنتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعْتصاري

ونحو هذا ما يرويه العباسي في المعاهد إذ يقول[٢] :«ولقد تداول الشعراء معنى بيت عدي « لو بغير الماء حلقي شرق » بعد عدي ، فقال أبو نواس :

غصصتُ منكَ بما لا يدفعُ الماءُ ... وصَحَّ حِبُّكَ حتى ما بِهِ داءُ

وقال الآخر :

مَنْ غصَّ داوَى بشُرْبِ الماءِ غُصَّتَهُ
فكيفَ يصنعُ مَنْ قد غصَّ بالماءِ

وقال الخبز أرزى :

بالماءِ أدفعُ شيئاً إنْ غصصتُ بهِ ... فما احتيالي وغَصّي منكَ بالماءِ

(١) العقد الفريد : ٣٨/١ .	(٢) المعاهد ٣٢٠/١ .

ويروي السيوطي بيت عدي :

أَرواحٌ مودِّعٌ أم بُكورُ ... لكَ فاعمِدْ لأيِّ حالٍ تَصيرُ

ثم يقول : « قال جميل أول قصيدة له :

رواحٌ مِنْ بثينةَ أو بُكورُ ... غداً فانظُرْ لِأيّهما تصيرُ

كأنه أخذه من بيت عدي المذكور[1] » .

ومن معانيه الطريفة وصوره المبتكرة قوله في احدى اعتذاراته للنعمان يصف فيه قلقه وعذابه وأرقه :

شَئِزٌ جَنْبي كأنّي مُهْدَأٌ ... جعلَ القينُ على الدَّفِّ إِبَرْ [2]

ولا يبعد أن يكون النابغة الذبياني قد نظر إلى بيت عدي فقال[3] :

أتاني أبيتَ اللعنَ أنكَ لمتَني

وتلكَ التي أهتمُّ منها وأنصَبُ

---

(١) شرح شواهد المغني : ١٦١ .

(٢) شئز : قلق . ومهدأ : من أهدأت المرأة الصبي إذا جعلت تضرب بيدها عليه رويداً لينام . والقين : الحداد . والدف : الجنب .

(٣) انظر الاعتذار ص ١٢١ .

فبِتُّ كأنَّ العائداتِ فرشْنَني
هَراساً بهِ يُعلَى فِراشي ويُقشَبُ

وقال أيضاً :

وعيدُ أبي قابوسَ في غيرِ كُنْهِهِ
أتاني ودوني راكسٌ فالضَّواجِعُ
فبِتُّ كأنّي ساورَتْني ضئيلةٌ
من الرُّقْشِ في أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ

ومن صوره الجديدة الرائعة التي جنَّ بها شعراء الخمر العباسيون ، وقلبوها على كل وجه (١) قوله في وصف الخمر، وقد مزجت فطفت فوقها الفقاقيع الحمر كالياقوت المتلألىء :

مُزَّةٌ قبلَ مَزْجِها فاذا ما مُزِجَتْ لذَّطعمُها مَنْ يَذوقُ
وطفَتْ فوقَها فقاقيعُ كاليا قوتِ حُمْرٌ يُثيرُها التَّصْفيقُ

وقوله في وصف الزجاجة :

بَكَروا عليَّ بسُحْرةٍ فصبَحْتُهمْ
مِنْ ذاتِ كوبٍ مثلِ قَعْبِ الحالِبِ
بزجاجةٍ مِلْءِ اليدَيْنِ كأنَّها
قِنْديلُ فِصْحٍ في كَنيسةِ راهِبِ

(١) انظر تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس : ٧٦ .

ومن صوره الطريفة المبتكرة أيضاً قوله في وصف سرعة الفرس :

يرأبُ الشَّدَّ بسَحٍّ مُرْسَلٍ　　كاحْتفالِ الغَيْثِ بالمُزنِ اليفَنْ

ولعل فيما قدمناه من نصوص دليلاً بيناً على غنى عدي بالمعاني والصور ، وسبقه إلى الطريف البكر منها ، كما سبق إلى عدد من الأغراض الشعرية ، وجدد في بناء القصيدة العربية ، فكان له بذلك فضل السبق والابتكار والتجديد في شكل القصيدة ومضمونها وموضوعاتها .

٢

الأصالة والطبع :

إن القارىء شعر عدي يجد نفسه أمام شاعر مطبوع ، يتدفق الشعر من أعماق نفسه ، فيحكي ما يختلج فيها من مشاعر ، وما يضطرب من أحاسيس وانفعالات .

ولا غرو أن يتميز عدي بالأصالة والطبع ، وهو الشاعر الذي لم يقل الشعر إلا استجابة لنأمات نفسه ، وتعبيراً عما يدور في ذهنه من أفكار وخواطر ، ملكت عليه لبه واستبدت بتفكيره وإحساسه .

وتتجلى أصالة عدي الشعرية وطبعه السجح المعطاء في غزارة معانيه وتدفقها وتلوينها ، وفي تخيّر الأساليب المواءمة لها .

ففي الموضوعات التي تتصل بعزة نفسه وتمس كبرياءه ، أو التي تتناول حقيقة رهيبة من حقائق الكون والحياة والأحياء ، أو التي تصف جو البادية والسباق والطراد والصيد والانطلاق العنيف ، تراه ينتقي اللفظ الكريم الفحل الذي يقرع الأذن ويملأ الفم ، ويرسم الجو المناسب الذي أراده الشاعر .

يقول في هجائه لأعدائه المتربصين به :

ذَريني إنَّ أمرَكِ لن يُطاعا — وما ألفيتِني حِلْمي مُضاعا
ألا تلكَ الثعالبُ قد توالَتْ — عليَّ وحالفَتْ عُرجاً ضِباعا
لتأكلَني فَمرَّ لهنَّ لَحْمي — وأفرَقَ من حِذاري أو أَناعا

ويقول أيضاً :

أراهُمْ بحَمْدِ اللهِ بعدَ جَخيفِهِمْ
غُرابَهمُ إذْ مسَّهُ الفَتْرُ واقِعا

ويقول في إحدى مواعظه :

فاسألِ الناسَ أينَ آلُ قُبَيْسٍ — طَحْطَحَ الدَّهرُ قبلَهمْ سابورا

وأما في الموضوعات التي تصف نفسه المرحة الضاحكة

الطروب ، وأجواء لهوه ونعيمه فتراه يتخيّر اللفظ الرقيق المأنوس الناعـم ، والتراكيب الرشيقة والصيغ اللطيفة .

يقول في إحدى خمرياته :

بكَرَ العاذِلونَ في وضَحِ الصُّبْ
ح يَقـولونَ لي ألا تَستَفيقُ
ويلومونـَ فيكِ يا ابنة عَبْدِ اللّـ
ـهِ والقلبُ عندكمْ مَوْهوقُ
لستُ أدري إذ أكثَروا العـَذْلَ عندي
أعـدوٌّ يلومُني أمْ صـديقُ

ويقول في وصف الحسان اللائي خلبن لبه :

زانَهُنَّ الشُفوفُ ينضَحْنَ بالمسكِ وعيشٌ مُفانِقٌ وحَريرُ

وقد أمده طبعه الشاعري الثرّ بقدرة فائقة على التصـوير الحي ، فكسا شعره بطائفة من الصور الرائعات ، جسمت معانيه، وأبرزتها في أجمل الحلل وأوضـح الأشكال في عفـوية ويسـر وقرب مأخذ .

يقول في وصف نسائه الباكيات النائحات على سجينهن المعذب:

وبَيْتي مُقْفِرٌ إلاَّ نساءً
أرامِلَ قد هلَكْنَ منَ النَّحيبِ

يُبادِرْنَ الدّموع على عديٍّ
كشَنٍّ خانَهُ خَرْزُ الرَّبيبِ
يُلأْلِئْنَ الأكفَّ على عديٍّ
ويُعْطَفُ رجعُهنَّ إلى الجُيوبِ

وخيال عدي يتصل دوماً بنفسيته وبيئته ، ويرسم الصور التي تعكس تلك النفس المرحة حيناً ، المعذبة حيناً آخر ، وهذه البيئة الغنية المترفة . ومن ثم كانت صوره واضحة قريبة من الأفهام، لا أثر فيها للتكلف أو الاغراب .

يقول في وصف نفسه المعذبة المسهدة :

شَئِزٌ جَنْبي كأنّي مُهْدَأٌ جعلَ القينُ على الدَّفِّ إبَرْ

ويقول في وصف الحسان الفاتنات :

بِيضٌ عليهِنَّ الدِّمَقْسُ وفي الْ
أَعْناقِ من تحتِ الأكِفَّةِ دُرّْ
كالبَيْضِ في الرَّوْضِ المُنَوّرِ قدْ
أَفْضى بِها إلى الكَثيبِ نُهُرْ

ولعدي في تأملاته استعارات رائعة تدل على موهبة شاعرية خصبة وخيال مجنّح وثّاب، يقول :

ألم تعلموا للخيرِ والشرِّ موْرَةً
تناقلُها الأيامُ عُوجاً رواجِعا
وأيةُ أرضٍ لا أطَفْنَ بأهلِها
بلغْنَ السَّواءَ وارتقَيْنَ المَصانِعا

ومنها قوله :

يا راقِدَ الليلِ مَسْروراً بأوّلِهِ
إنَّ الحوادثَ قدْ يطرقْنَ أَسْحارا

ويتجلى طبع عدي الخصب وشاعريته الأصيلة في موسيقا شعره أيضاً ، فلقد تخيّر لشعره البحور الخفيفة الرشيقة ، فأكثر من بحور الرمل والخفيف والسريع والوافر ، وقد أشار أبو العلاء في حديثه عن الأوزان القصيرة إلى هذه الظاهرة الموسيقية في شعر عدي ، وردها إلى بيئته الحضرية في الحيرة فقال[1] : وتوجد هذه الأوزان القصار في أشعار المكّيين والمدنيين كعمر بن أبي ربيعة ومن جرى مجراه كوضاح اليمن والعرجي ، ويشاكلهم في ذلك عدي بن زيد لأنه كان من سكان المدر بالحيرة » وهذا ما دعا المستشرق غوستاف فون غرنباوم إلى أن يسلك عدياً

(١) الفصول والغايات ٢١٢/١ .

في زمرة الشعراء الذين ينتمون إلى مدرسة شعرية نشأت في مناطق الجزيرة والمناطق العراقية والحيرة ، العاصمة الثقافية لتلك المناطق ، وتميزت بالتنوع في الوزن ، والنزوع إلى البحور الخفيفة[(١)] .

والموسيقا في شعر عدي متناسبة مع الموضوع الذي تظلله ، فهي في اعتذاراته شجية نائحة ، مؤثرة الايقاع حزينة النغمة ، تصور نفسه الكسيرة الراسفة في الأغلال ، الشاكية ليله المطويل وعذابه الشديد :

ألا يا طالَ ليلي والنهارُ ....
فانْ أمسيتُ مكتئباً حزيناً كثيرَ الهمّ يُسهِدُني الإسارُ
فقدْ بُدّلتُ ذاكَ بنُعْمِ بالٍ وأيامٍ لياليها قِصارُ
ألا مَنْ مُبلِغُ النّعمانِ عنّي علانيةً ، وما يُغْني السّرارُ
بأنَّ المرءَ لم يُخلَقْ حديداً ولا هَضْباً توقّلَهُ الوِبارُ
ولكنْ كالشّهاب سَناهُ يَخْبو وحادي الموتِ عنهُ ما يَحارُ

وهي في حكمته هادئة رتيبة :

فنفسَكَ فاحفَظْها عنِ الغيِّ والرَّدى
متَى تُغْوِها يَغْوَ الّذي بكَ يَقْتَدي

---

(١) انظر دراسات في الأدب العربي لفون غرنباوم : ٢٦٥ وما بعدها

وهي في حنينه لأيام الصبوة والشباب هامسة ناعمة :

لا تنسَيَنْ ذكري على لذّةِ الْ
كأْسِ وطَوْفٍ بالخذوفِ النَّحوصْ (١)
ياليتَ شعري وأنَ ذو عجَّةٍ
متى أرى شَرْباً حواليْ أَصِيصْ (٢)

وفي غزله وخمرياته مرحة عذبة :

ثم نادَوْا إلى الصَّبوح فقامتْ قَيْنَةٌ في يَمينها إبْريقُ

ويقول :

يسارقْنَ مِ الأستارِ طَرْفاً مُفَتَّراً
ويُبرِزْنَ من فَتْقِ الخُدورِ الأَصابِعا

وفي هجائه لأعدائه عنيفة هادرة :

أُطَحْطِحُه حتّى أُضِلَّ جَخيفَه
ويسرعُ فيه النافذاتُ البَواضِعا
فكيفَ ترونَ السَّعْيَ أسأَرقيلُه
على نُقَّبِ الوُجوهِ سوداً بَراقِعا

(١) الخذوف : الأتان الوحشية ، والنحوص من الأتن : مالا ولد لها ولا لبن.
(٢) العجة : الحنين . والأصيص : أسفل دن مكسور .

وهكذا تتسرب الموسيقا من شعر عدي متناغمة مع الجو الشعوري الذي يحياه الشاعر ، متلونة بلون الموضوع الذي يطرقه ويبسط القول فيه .

وجماع القول في مكونات شاعرية عدي : معان غزيرة متدفقة ، وأسلوب رصين محكم النسج ، متخير اللفظ ، ملائم للمعنى في لفظه وصوره وموسيقاه . كل أولئك طبع شعره بطابع الأصالة ، ووسمه بميسم العفوية والطبع .

٣

الصدق

لم يكن عدي بوقاً لقبيلة ، ولا لساناً لكبير أو عظيم، وإنما كان قيثارة افكره وعواطفه وتأملاته ، إن صح التعبير . فلقد شد إلى قيثارة الشعر العربي الجاهلي وتراً جديداً ، حين استجاب لهجسات نفسه وومضات تفكيره ، وعزف على هذه القيثارة ملء قلبه وحناياه .

لم تعوزه نشأته وحياته الحضارية في كنف أسرة كبيرة متحضرة أن يطرق أبواب الملوك والعظماء ، يلهج بمديحهم ليحظى منهم بجزيل العطاء ، ومن ثم لم يضرب أكباد الابل إلى أحد ،

ولم يقطع مفاوز الصحراء يمتاح بحور العطاء والجود ، ولم يعش حياة قبلية لها قيمها وأعرافها ، ومن ثم لم تحكمه قيم القبيلة وأعراف القوم ، وإنما نشأ في خفض من العيش، ونعم بلين الحياة وغضارتها، وعبّ من ثقافات عصره حتى استنار عقله واتسعت آفاق تفكيره، وأمدته تجاربه ومشاهداته وحياته الحافلة بالأحداث الخطيرة ، التي هوت به بعد رفعة ، وأذلته بعد عزة ، بضروب من الأفكار والمعاني ، فكان نتيجة ذلك كله أن انساب شعر عدي من أعماق نفسه ، وكان من أبرز طوابعه الصدق .

فهو صادق في اعتذاره واستعطافه وشكواه من السجن ، لأنها رجع صدى قلبه الجريح الملذع :

لِمَنْ ليلٌ بذي حَبْسٍ طويلُ عظيمٌ ، شَفَّهُ حَزَنٌ دَخيلُ
وما ظلمُ امرِئٍ في الجيدِ غُلٌّ وفي الساقَيْنِ ذو حَلَقٍ طَويلُ

وهو صادق في مواعظه ، لأنها تنبع من أعماق نفسه الشاعرة المحلقة في آفاق الانسانية الرحيبة ، المتأملة مواكب البشر ومصائرهم المحتومة منذ أقدم الأزمان :

أينَ أهلُ الدّيارِ مِنْ قومِ نوحٍ ثم عادٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وثَمودُ
أينَ آباؤنا وأينَ بَنوهمْ أينَ آباؤهمْ وأينَ الجُدودُ

سَلَكوا منهجَ المَنايا فبادوا وأَرانا قَدْ حانَ مِنّا ورُودُ

وهو صادق في شعره اللاهي العابث ، لأنه يعبر عن نفسه المستبشرة الضاحكة المنعمة في فترة هنيئة من فترات حياته :

نادمتُ في الدَّيْرِ بني عَلْقَما عاطيتُهم مَشْمولَةً عَنْدما
كأنَّ ريحَ المسكِ في كأْسِها إذا مَزَجْناها بِماءِ السَّما
مَنْ سرَّهُ العيشُ ولذّاتُه فَلْيجعل الرّاحَ لهُ سُلَّما
فاشرَبْ على الديرِ ولذّاتِهِ إذا اشتهيتَ اليوم أَنْ تَنْعَما

وهكذا تجد الصدق الطابع المميز لشعر عدي ، لأنه نابع من القلب الشاعر ، منسرب من النفس المنفعلة . ومن ثم لا تلمح فيه أثراً للتصنع والمداهنة والمداراة .

٤

الإنسانية :

ومن السمات البارزة الأصيلة في شعر عدي الانسانية ، وهي نتيجة طبيعية للموضوع الكبير الذي شغل تفكيره وملك عليه نفسه ، وهو الوعظ .

فلقد انطلق عدي في مواعظه يجوس خلال تاريخ البشرية،

مستعرضاً أحوال الأمم والملوك والمدن والحضارات ، متأملاً مصائرها جميعاً ، واقفاً عند القانون الأزلي الخالد الذي تعنو له جباه الجبابرة ، وينزل عند حكمه كل انسان ، وهو الانتقال من الحياة المتحركة الغنية الحافلة بصنوف المتع وألوان النعيم ، إلى الموت الصامت والسكون المقيم . يقول :

وأَرى ذا العيشِ لا تُحْرِزُهُ   لُمْعَةٌ يَعْمُرُ أو غيبُ وطَنْ
هلْ لهُ إنْ لم يَمُتْ في قَعَصٍ   من غناهُ غيرُ قبرٍ وكَفَنْ
بينما يَغْبِطُه أَشْياعُه   قلَبَ الدهرُ لهُ ظهرَ المِجَنْ

ولقد شغلت هذه الفكرة الانسانية عدياً وسيطرت على تفكيره حتى إنها صرفته عن القول في الموضوعات المحلية الأخرى . فنحن لا نكاد نجد في شعره أثراً للون المحلي من تصوير لحياة ملوك الحيرة وأساليب عيشهم وتقاليد قصورهم ، كما أننا لا نقع على تصوير واضح للبيئة المحلية الغنية التي عاش فيها ، إلا ما اتصل منها بلهوه واستمتاعه .

والذي يبدو لنا من تتبع سيرة عدي ودراسة شعره ، أن عدياً مر في أول حياته بمرحلة شعورية تتسم بغلبة الذاتية عليها ، وذلك في الفترة الهنيئة التي نعم بها واستمتع بطيبات الحياة ، تلتها

بعد ذلك مرحلة شعورية ثانية ، فيها مزيج من الانسانيةوالذاتية وذلك في أوائل أيام سجنه ، وتتجلى هـذه المرحلة في اعتذاراته الأولى . ثم تلتها مرحلة شعورية ثالثة طغى فيها عليه الشعور الانساني ، وذلك في الحقبة الأخيرة من حياته ، حين طال سجنه ويئس من الفرج ، فانطلق يلتمس عزاءه وسلواه في استعراض أنباء الغابرين ومصائرهم . وفي هذه المرحلة تسمو مواعظه إلى الأفق الانساني الرحيب ، لتعاني مشكلة الانسان الخالدة في كل زمان ومكان ، مشكلة الحياة والموت والفناء . ومن ثم كان شعر عدي الوعظي انسانياً لا تحده حدود ، ولا يقتصر على جنس أو لون ، خالداً على مر الأيام ، لأنه يعالج مشكلة الحياة الانسانية الخالدة .

هذه هي الخصائص والمميزات التي اتسم بها شعر عدي ، ابتكار في شكل القصيدة العربية ومضمونها ، وأصالة في الشاعرية وخصب ، وصدق في الشعور وعفوية في التعبير ، وانسانية في الهدف والاتجاه .

٥

عيوب في شعره :

على أن شاعرنا لم يسلم من بعض العيوب والهنات ، أحصى عليه بعضها القدماء ، واتخذوها مطعناً في شعره .

ومما أخذه النقاد القدماء على عدي السناد ، وهو اختلاف في الحركات قبل حرف الروي ، فقد ساق ابن سلام في حديثه عن عيوب القافية (السّناد) قول عدي :

ففاجَأَها، وقد جمعَتْ فُيوجاً على أبوابِ حِصْنٍ مُصْلِتِينا
فقدَّمتِ الأديمَ لِراهِشَيْهِ وأَلْفى قولَها كذِباً ومَيْنا

ثم قال : « قال المفضل : « كذباً مبيناً » ، فر من السناد . والرواية هي الأولى على قوله : « ومينا[1] » .

ويذكر ابن قتيبة ما أخذه الأصمعي على عدي في وصف الخيل والخمر ، فيقول[2] : « قال الأصمعي : كان عدي لا يحسن أن ينعت الخيل ، وأخذ عليه قوله في صفة الفرس : فارهاً متتايعاً وقال : لا يقال للفرس « فاره » . إنما يقال له « جواد » و « عتيق » . ويقال للكودن والبغل والحمار « فاره » . ووصف الخمر بالخضرة ، ولم يعلم أحد وصفها بذلك . قال :

والمُشْرِفُ الهِنْدِيُّ تُسْقَى بهِ
أخضرَ مَطْموثاً بماءِ الخَرِيصْ

ونحن إذا سلمنا للأصمعي بما أخذه على هدي في وصف الخيل ،

(١) طبقات فحول الشعراء : ٦٢ . (٢) الشعر والشعراء : ١٨١ .

فاننا لا نسلم له بما أخذه عليه في وصف الخمر بالخضرة « لأنه لم يعلم أحد وصفها بذلك » . فللشاعر أن يصف الخمر باللون الذي يراه ، وبالشكل الذي يتذوقه . وليس حتماً عليه أن يقف عند لون بعينه ويجمد عليه ، وهو يشربها ألواناً مختلفة . ولا ريب أن الخمر التي عرفها عدي في الحيرة وشربها غير الخمر التي عرفها الجاهليون ووصفوها في شعرهم ، ولعلها كانت مختلفة الألوان ، فهل من جناح على الشاعر إن وصفها كما رآها بالخضرة أو الزرقة أو الحمرة ؟ بل إن الخمر الخضراء قد تكون من أجود أنواع الخمور في الحيرة ، وهذا ما ذهب إليه ابن قتيبة في تفسيره البيت قال[١] : « ويعني شراباً أخضر وهو أجود الخمر » . على أن عدياً لم يقتصر في وصفه لها على الخضرة ، بل وصفها بالخضرة والحمرة أيضاً ، مما يدل على أنه كان يصف ما تقع عليه عينه دون أن تكبله أغلال التقليد ، وتغل لسانه أقوال الآخرين .

لقد كان أبو العلاء أوسع أفقاً في نظرته النقدية لصادية عدي الخمرية ، إذ لم يستوقفه فيها ما استوقف الأصمعي من وصف عدي الخمر بالخضرة ، بل إنه أشاد بها واعتبرها من بديع أشعار العرب ، وسجل بها لعدي فضيلة السبق .

---

(١) المعاني الكبير ٤٤٩ .

بيد أن أبا العلاء وقف عند قول عدي فيها :

يا ليتَ شِعْري وانَ ذو عَجَّةٍ متى أرى شَرْباً حوالَيْ أَصيصْ

وبيَّن مأخذه على عدي في ترفق وتلطف قائلاً : « وما كنت أختار لك أن تقول : (يا ليت شعري وانَ ذو عَجَّةٍ) » يشير إلى وصله همزة القطع في « أنا » ، وحذفه الألف التي بعد النون ، مخالفاً بذلك قواعد اللغة ثم يقول : « ولو قلت : يا ليت شعري أنا ذو عجة ، فحذفت الواو لكان عندي أحسن وأشبه [1] .. » .

ومما يلاحظه الدارس شعر عدي عليه من عيوب ، وقوعه في بعض الأحيان في ضرورات عروضية غير جائزة كالصلم في قوله :

قد آنَ أنْ تَصْحُوَ أوْ تُقْصِرْ وقَدْ أَتى لما عهدتَ عُصُرْ

فقد حذف من عروض البيت وتدها المفروق فغدت (فعْلن) ، وهي علة لا تلحق عروض السريع .

والثلم في قوله :

لهُ كَتفانِ عَلاويتانِ كَصَفْحٍ أَوْ أَلْيَةٍ من إِرَمْ

في التفعيلة الثانية من عجز البيت ثلم ، وهو زحاف لا يلحق

---

(١) رسالة الغفران : ٧٠ وما بعدها .

المتقارب إلا في (فعولن) الواقعة في أول الصدر ، وهذا أيضاً من مخالفات عدي العروضية .

ومما يلاحظ عليه أيضاً استعمال لغة (أكلوني البراغيث) في قصيدته اللامية التي يذكر فيها قصة بدء الخلق ، يقول :

فأُتْعِبا أبوانا في حياتِهما
وأَوْجَدا الجوعَ والأَوْصابَ والعِللا

على أن هذه الهنات التي أخذت عليه لم يسلم من مثلها شاعر ، وهي مع ذلك قليلة إذا قيست بهنات غيره من الشعراء. ويقلل من خطورتها أنها لم تفش في شعره . ومن ثم لم تكن لتجرح شاعريته ، أو تقدح في مكانته .

★ ★ ★

٢

القدماء وشعره :

لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن فريقاً من العلماء القدماء لم ينصفوا عدياً حينما حكموا عليه أنه شاعر مقصر عن فحول الشعراء، لا يستطيع أن يجاريهم في آفاق الفن الرفيع .

ولقد أصاب هذا الحكم سمعة عدي الأدبية بالأذى ، وألحق بشعره الضيم ، إذ روت المصادر القديمة هذه الفتوى الصادرة من أعلام الرواية وشيوخها في القرنين الثاني والثالث ، ورددتها المصادر من بعدها قرناً تلو قرن ، حتى غدت كالحقيقة الدامغة لعدي ، والقول الفصل في تقويم شعره .

ولم تكن هذه الأحكام التي صدرت عن هؤلاء العلماء الرواة مبنية على تقصّي فن الشاعر ونقد القيم الفنية في شعره ، وإنما هي أحكام سريعة لا تخلو من تعميم ، فيها رائحة التعصب للشعر البدوي ، والتحامل على شعر الحواضر والأطراف .

وفيما يلي عرض سريع لأقوال هذا الفريق من العلماء القدامى الذين غضوا من شاعرية عدي ، وأخرجوه من حلبة الجياد الفحول من الشعراء .

ذكر المرزباني في الموشح[١] أن الأصمعي سأل أبا عمرو بن العلاء: «كيف موضع عدي بن زيد من الشعراء؟ قال: كسهيل في النجوم يعارضها ولا يدخل فيها». ثم أورد رواية أخرى عن المفضل أنه قال: «كانت الوفود تفد على الملوك بالحيرة فكان عدي بن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره[٢]».

وسأل أبو حاتم السجستاني الأصمعي[٣] عن عدي بن زيد: أفحل هو؟ فقال: «ليس بفحل ولا أنثى. قال أبو حاتم: وإنما سألته لأني سمعت ابن مناذر[٤] لا يقدم عليه أحداً».

وكان الأصمعي يقول: «عدي وأبو دؤاد لا تروي العرب أشعارهما، لأن ألفاظهما ليست بنجدية[٥]».

وكان يقول هو وأبو عبيدة في عدي بن زيد: عدي في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها[٦].

ويأتي بعد ذلك ابن قتيبة فيثبت في كتابه الشعر والشعراء[٧] أقوال هؤلاء العلماء الرواة، ويضيف قوله: «وعلماؤنا لا يرون شعره حجة[٨]» ويقول أيضاً[٩]: «والعرب لا تروي شعره

---

(١) الموشح: ٧٢. (٢) المصدر السابق: ٧٢.
(٣) فحولة الشعراء: ١٩. (٤) هو محمد بن مناذر شاعر عباسي مجيد.
(٥) فحولة الشعراء: ١٩. (٦) فحولة الشعراء. ٤٩، ٥٠.
(٧) الشعر والشعراء: ١٨١ (٨) المصدر السابق: ١٧٦
(٩) المصدر السابق: ١٨١.

لأن ألفاظه ليست بنجدية ، وكان نصرانياً من عباد الحيرة قد قرأ الكتب » . ثم يورد [١] قول الأصمعي فيما أخذه على عدي من عيوب : « كان عدي لا يحسن أن ينعت الخيل ، وأخذ عليه قوله في وصف الفرس « فارهاً متتايعاً » . وقال : لا يقال للفرس « فاره » إنما يقال له « جواد » و « عتيق » ويقال : للكودن والبغل والحمار « فاره » . ووصف الخمر بالخضرة ، ولم يعلم أحد وصفها بذلك ، قال :

والمُشْرِفُ الهِنْديُّ نُسْقَى بهِ
أخضرَ مَطْموثاً بماءِ الخَريصْ

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة عدي ما قاله العلماء الرواة في عدي فيقول [٢] : « هو شاعر فصيح من شعراء الجاهلية ، وكان نصرانياً ، وكذلك كان أبوه وأمه وأهله، وليس ممن يعد في الفحول ، وهو قروى . وكانوا قد أخذوا عليه أشياء عيب فيها . وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها . وكذلك عندهم أمية بن أبي الصلت ، ومثلهما كان عندهم من الاسلاميين الكميت والطرماح . قال العجاج : كانا يسألاني عن

(١) الشعر والشعراء : ١٨١ . (٢) الأغاني ٢/٩٧ .

الغريب فأخبرهما به ، ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير مواضعه ، فقيل له : ولم ذاك ؟ قال : لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في مواضعه . وكذلك عندهم عدي وأمية » .

هذه هي أقوال القدماء الذين غضوا من شاعرية عدي ، فلم يروا فيه الشاعر الذي يسمو إلى مرتبة الفحول ، لأن ألفاظه الحيرية قعدت به عن شأوهم ، وباعدت بينه وبين منزلتهم الرفيعة في سلم الشعر العربي .

ولهذا السبب أيضاً ، هم لا يرون شعره حجة . ثم إنهم يأخذون عليه بعض الهنات التي لا يكاد يسلم منها شاعر .

وواضح أنها أقوال لم تستند إلى مقاييس نقدية موضوعية ، تتناول شعر الشاعر بالتحليل والنقد ، فتبين ماله وما عليه ، إذ النقد الأدبي بهذا المفهوم لم يكن قد وجد في تلك الفترة بعد . وإنما هي أحكام سريعة تعميمية ، لا تسلم في كثير من الأحيان من النقص والتحيز والمبالغة عندما تعرض على بساط المناقشة والنقد .

إن أكبر المآخذ التي أخذها العلماء الرواة على عدي ألفاظه الحيرية الرقيقة اللينة ، فهبطت بسببها منزلته عندهم ، وهانت قيمة

شعره اللغوية ، فلم ير العلماء فيه حجة . فهل كان حقاً للألفاظ الحيرية كل هذا الأثر السلبي على شاعرية عدي ولغته الفصيحة ؟ .

مما لا شك فيه أن عدياً تأثر ببيئته الحضارية في الحيرة ، وبما لقِن من لغات عصره ، وما اطلع عليه من ثقافات ، وكان لذلك أثره في لغته وتطويعها للجو الحضاري والموضوعات الفكرية الجديدة التي طرقها .

ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن تخرج به ألفاظه الحيرية عن فصيح كلام العرب ، وتقعد به عن شأو الشاعرية المبدعة الأصيلة ، فمن الثابت أنه كان للشعر قبل الاسلام لغة أدبية موحدة ، يحتذيها الشعراء الجاهليون جميعاً . عندما يطرقون باب الشعر ، ويولون وجوههم شطر النظم ، معرضين عن اللغات التخاطبية في كل صقع وديار ، وهم على تأثرهم ببيئاتهم المحلية وادخالهم بعض ألفاظها في شعرهم ، كانوا يلتزمون تلك اللغة الفصيحة التي تعارف عليها النظم العربي للشعر ، ووقف عند ألفاظها المصفاة وتعابيرها المتخيّرة وأسلوبها المتميز .

ومن ثمّ لم ير العلماء في عصر التدوين حرجاً في أن يدخلوا شعر عدي في كتب الأدب واللغة والاختيار دون أي اشارة إلى الفرق بين الألفاظ الحيرية وألفاظ البادية ، بل إنك لتجد في معاجم

اللغة الشاهد من شعر عدي إلى جانب الشاهد من شعر امرىء القيس وزهير وطرفة لا فرق بينها ، وهـذا دليل وحدة اللغـة الأدبية التي وصلنا الشعر الجاهلي مدوناً بها .

وبالاضافة إلى هذا كله لم ينقطع عدي عن النهل من معين اللغة الصافي في البادية إذ تؤكد أخباره أنه كان يبدو في فصلي السنة ، فيقيم في جفير ، وهي بقعة من بقـاع نجـد ، وينزل في أحياء بني تميم ، ويتخذ أخلاءه من بني جعفر [1] . فصلته بالبادية لم تنقطع ، وأصله التميمي لم ينبت ، وإن كانت الحياة الحضارية قد غلبت على تفكيره ومشاعره ، فصقلت طبعه ورققت من أسلوبه .

وإذا سلمنا جدلاً أن ألفاظه الحيرية تؤثر في الاحتجاج بشعره ، فانها لا ينبغي أن تؤثر في شاعريته وجمال نظمه وشرف معانيه ؛ ذلك أن الشعر الرائق الجميل شيء ، وصلاحيته للاحتجاج به شيء آخر . وليس كل شـعر لا يحتج به سـاقطاً مرذولاً مستهجناً ، ولا كل شعر يحتج به عال آسر محبَّب . ورب شاعر محدث لا يحتج بشعره فاضت قريحته الصافية بالشعر السمح المنقاد المعجب ، وشاعر بدوي قديم يحتج بلغتـه أتى بالشعـر العصي المستكره البغيض . وهل يستطيع أحد أن يحط من منزلة كبار

---

(١) انظر الأغاني ١٠٤/٢ .

شعراء العربية في العصر العباسي كأبي تمام والبحتري والمتنبي مثلاً لمجرد أنهم محدثون لا يحتج بلغتهم ؟

لا ريب أن اللغة الفصيحة القوية من أكبر عوامل الشاعرية، ولكنها ليست الشاعرية كلها ، وصلاحيتها للاحتجاج ليست مقياس قوة الشاعر ، والميزان الدقيق للشعر ينبغي أن يتناول خصائص الشاعر الفنية كلها ، ومدى ما وفره لشعره من قيم فنيـة تضفي عليه هالات الجمال وتشيع فيه الماء والرونق .

هذه واحدة ، والثانية أن القدماء أخذوا على عدي سهولة ألفاظه ورقة اسلوبه . ومرد هذه الرقة والسهولة إلى بيئته الحضرية وطبيعته الفنية وثقافته العقلية من جهة ، وإلى الموضوعات التي طرقها كالاعتذار والوعظ والغزل وصف الخمر من جهة أخرى ، وكلها موضوعات تتطلب الرقة والسلاسة والسهوله . ولو أن عدياً أعرض عن طبعه وبيئته وثقافته ، ورام الاغراب والاقتداء بالجاهليين البداة لما أتى إلا بالشعر المتكلف الغث البارد .

على أن شعر عدي لم يكن خلواً من الجزالة اللفظية حتى يوصف بالرقة والسهولة فحسب بل إن فيه الرقيق والجزل، والسهل والوعر ، واللين والخشن ، وهذا شعره شاهد على ما نقول .

والذي يبدو لنا من موقف هؤلاء العلماء من شعر عدي

أنهم كانوا يقيسونه بالشعر البدوي ، وهو الشعر الأمثل في نظرهم، الذي ارتاحت آذانهم لسماعه ، وألفت طباعهم وأذواقهم مافيه من جزالة ووعورة ، فرأوا في صفاء شعر عدي ورونقه ورشاقته ضعفاً وليونة ومجانفة للطباع . ولقد كانوا أحرص الناس على صيانة العربية أن يتسرب إليها شيء من الدخيل فيفسد نقاءها ، فلم يجدوا سبيلاً إلى ذلك إلا الاقبال على رواية الشعر البدوي النقي الذي احتضنته الصحراء ، والإعراض عن كل شعر حضري نشأ في الأطراف . ومن ثم أهمل الرواة الأُوَل شعر عدي ، ورفضوا الاحتجاج به ، وكان ذلك سبباً في الغض من شاعرية عدي ، وإخراجه من حلبة الفحول من الشعراء ، يدل على هذا قول ابن سلام في حديثه عن الطبقة الرابعة من الشعراء التي منها عدي : « وهم أربعة رهط فحول شعراء ، موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة[1] » .

ولا تحسبن أن القدماء جميعاً كانوا ينزعون عن قوس واحدة في تهجين شعر عدي أو الحط من منزلته . بل كان هناك فريق كبير يعجب بشعره ، ويقدمه على غيره من الشعراء ، ويقضي وقته يستنشد شعره ويترنم به ، ويجعل منه نموذجاً رفيعاً يحتذى ويقاس عليه.

---

(١) طبقات الشعراء : ١١٥ .

وإذ قدمنا الفريق الأول في شعر عدي ، وناقشنا مآخذه عليه ، نرى من تمام البحث أن نعرض أقوال الفريق الثاني ، لعلنا نخلص في النتيجة إلى تكوين حكم نرجو أن يكون أدنى إلى الانصاف وأقرب إلى الصواب .

تروي المصادر أن الذين اهتموا بشعر عدي ، وأعجبوا به وأشادوا بمنزلته ، لم يكونوا من طبقة واحدة ، وإنما هم من طبقات مختلفة ، فيهم الخلفاء والشعراء والعلماء والأدباء والنقاد والمغنون . وهذا دليل سيرورة شعر عدي وأثره البالغ في نفوس وأذواق الناس على اختلاف منازلهم ورتبهم في شتى العصور .

يذكر المرزباني[1] في ترجمته لعدي طائفة من شعره،منهاقوله:

عنِ المَرْءِ لا تسأَلْ وأبصِرْ قرينَه
فإنَّ القرينَ بالمقارَنِ مُقتَدِ

ثم يقول : « روي عن الحسن البصري أنّه قال : قال رسول الله (ﷺ) : كلمة نبي ألقيت على لسان شاعر : « إن القرين بالمقارن مقتد » .

ويذكر الجاحظ أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب كان

(١) معجم الشعراء : ٨٠ .

معجباً بشعر عدي وأنه كان يستشهد به . فيقول في كتابه البيان والتبيين[١] : قيل لعمر بن الخطاب رحمه الله : « قيل للأوسية أي منظر أحسن ؟ فقالت : قصور بيض في حدائق خضر » فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب بيت عدي بن زيد العبادي :

كدُمى العاجِ في المحاريبِ أو كالْ
بَيْضِ في الرَّوْضِ زهرُهُ مُسْتَنيرُ

وفي العقد الفريد[٢] أن معاوية كان يعجب بشعر عدي ، فدعي مرة إلى وليمة غنّى فيها ابن صيّاد المغني أبيات عدي :

يا لُبَيْنَى أَوْقدي النّارا ... إنَّ مَنْ تهوَيْنَ قَدْ حارا
ربَّ نارٍ بتُّ أرمُقُها ... تَقْضَمُ الهِنْدِيَّ والغارا
ولَها ظبيٌ يُؤَجِّجُها ... عاقِدٌ في الخَصْرِ زُنّارا

فأعجب معاوية بالغناء حتى قبض يده عن الطعام ، وجعل يضرب برجله الأرض طرباً .

وإلى هذا الاعجاب من معاوية بشعر عدي يشير الجرجاني في وساطته[٣] معرضاً بتعصب الأصمعي ومن بعده من الرواة

(١) البيان والتبيين ٤٥/١ . (٢) العقد ١٨/٦ .
(٣) الوساطة : ٣٩ .

المتحاملين على الشعر الحضري الرقيق فيقول : « وقد بعدت بهم العصبية في ذلك إلى تناول بعض المتقدمين . زعم الأصمعي أن العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، لأن ألفاظهما ليست بنجدية ، وكيف يكون ذلك ، وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء . . » .

ومن الخلفاء المعجبين بشعر عدي هشام بن عبد الملك . والأخبار الواردة في كتب الأدب تؤكد احتفاله بشعر عدي واهتمامه بسماعه وتأثره به . وقصة استدعائه حماداً من الرصافة إلى دمشق ليسأله عن بيت من قافية عدي مشهورة مستفيضة في غير مصدر من مصادر الأدب[1] ، وهذا البيت هو :

ودَعَوْا بالصَّبوحِ يوماً فقامَتْ قَيْنَةٌ في يَمِينِها إبْرِيقُ

ولما قال له حماد : إن هذا البيت لعدي بن زيد استنشده القصيدة كلها ، فأنشده إياها ، فطرب وأنعم على حماد بجزيل العطاء.

أما تأثر هشام بشعر عدي ، فيحدثنا عنه أبو الفرج إذ يروي عن خالد بن صفوان بن الأهتم حديثه مع هشام الذي روى له فيه قصة النعمان الأكبر صاحب قصري الخورنق والسدير ، وكان

(١) انظر الأغاني ٦/٧٧ ، ونزهة الألباء : ٤٧ ، والنجوم الزاهرة ١/٢٩٧ ، وحديقة الأفراح : ١٦١ .

من الملوك المترفين ، أشرف يوماً على ملكه الواسع ، فامتلأت نفسه زهواً به ، فوعظه بعض علماء زمنه مبيناً مصير من سلف قبله من الملوك ، وخوّفه عاقبة ترفه ، فتاب وأناب ونزع لباس الملك ، ولبس المسوح وخرج سائحاً في الأرض ، وفيه يقول عدي بن زيد :

وتذكَّرْ ربُّ الخَوَرْنَقِ إذْ أشْ
رَفَ يوماً ولِلْهُدى تَفْكيرُ
سرَّهُ ملكُهُ وكثرةُ ما يَمْ
لِكُ والبحرُ مُعْرِضاً والسَّديرُ
فَارْعَوى قلبُه وقالَ فما لذَّ
ةُ حيٍّ إلى المَماتِ يَصيرُ
ثمَّ بعدَ الفَلاحِ والرُّشْدِ والإمَّ
ةِ وارَتْهمُ هُناكَ القبُورُ

فلما انتهى من إنشاد شعر عدي بكى هشام حتى اخضلت لحيته ، وكان قد نصب له سرادق كبير في أرض قاع صحصح منيف أفيح ، أخذ أهله وحاشيته وغلمانه مجالسهم فيه ، فأمر بنزعه وبنقلان قرابته وأهله وحشمه وغاشيته من جلسائه ، ولزم قصره[1] .

(١) الأغاني ٢/١٣٦ وما بعدها .

ولقد مر بنا عند حديثنا عن خمريات عدي أن الوليد بن يزيد كان يستنشد شعر عدي ، ويستحسنه ، ويغنيه المغنون في مجالسه[١] ، وكان يحذو حذوه ويجري على أسلوبه في وصف الخمر.

وندع هذه المجالس التي كان ينشد فيها شعر عدي ، وتصدح به أصوات المغنين ، وننتقل إلى العلماء وما تركه شعر عدي في نفوسهم من أثر حتى تمنى بعضهم أن يأتي بمثل ما أتى به عدي.

يروي ابن سلام أن يونس تمثل بهذين البيتين من رائية عدي :

أيها الشامتُ المعيِّرُ بالدهرِ أأنتَ المبرَّأُ المَوْفورُ
أم لديكَ العهدُ الوثيقُ من الأيامِ بل أنتَ جاهلٌ مَغْرورُ

فقال : « لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلا هذه ، أو مثل هذه[٢] » .

ويذكر الجاحظ[٣] أن لأهل الحيرة بشعر عدي عناية، وأن أبا زيد النحوي قال : « لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد :

كَفَى زاجِراً للمَرْءِ أيامُ دَهْرِهِ تروحُ لهُ بالواعظاتِ وتَغْتَدي

(١) الأغاني ٧/٦٥ ، ٦٦ . (٢) طبقات فحول الشعراء : ١١٥

(٣) الحيوان ٧/١٤٩ .

أما ابن قتيبة ، العالم الناقد المنصف ، فقد ذكر له أربعاً من قصائده الغرر ، ثم أورد آراء العلماء القدماء في شعره ، وما أخذه الأصمعي على عدي من عيوب ، وكشف بعد ذلك عما يستجاد من شعر عدي ، فقال[١] : « ويستجاد له قوله :

قد يُدْرِكُ المُبطِىءُ من حظّهِ والخيرُ قَدْ يسبقُ جهدَ الحَريصْ

ويستجاد له في وصف السقاة :

والرَّبربُ المكفوفُ أردانُه يَمْشي رويداً كَمَشْيِ الرَّهيصْ ».

ثم ذكر بعض ما سبق إليه عدي من معان ، مما بسطنا فيه القول عند حديثنا عن خصائصه الفنية[٢] .

ولقد رأينا منذ قليل أن ابن مناذر الشاعر العباسي كان لا يقدم على عدي أحداً [٣] .

وفي رسالة الغفران يبدي أبو العلاء اعجابه بصاديته ، ويشيد بسبقه فيها ، إذ يجعل ابن القارح يقف في الجنة على عدي بن زيد العبادي فيقول : « كيف كانت سلامتك على الصراط ومخلصك من بعد الافراط ؟ فيقول : إني كنت على دين المسيح ، ومن

(١) الشعر والشعراء : ١٨٢ . (٢) انظر خصائصه الفنية العامة : ٢٦٠ .
(٣) فحولة الشعراء : ١٩ .

كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وإنما التبعة على من سجد للأصنام ، وعد في الجهلة من الأنام، فيقول الشيخ : يا أبا سوادة ألا تنشدني الصادية ، فانها بديعة من أشعار العرب ، فينبعث منشداً :

أبلِغْ خليلي عبدَ هندٍ فلا زلتَ قريباً من سَوادِ الخُصوصْ

فيقول الشيخ : أحسنت ، والله أحسنت ، لو كنت الماء الراكد لما أسنت . وقد عمل أديب من أدباء الاسلام قصيدة على هذا الوزن ، وهو المعروف بأبي بكر بن دريد قال :

يَسْعَدُ ذو الجَدِّ ويَشْقى الحَريصْ

ليسَ لِخَلْقٍ عن قَضاءٍ مَحيصْ

إلا أنك يا أبا سوادة أحرزت فضيلة السبق[1] » .

أرأيت كيف ينصف أبو العلاء عدياً ويشيد بشعره الحي وبسبقه فيه ، ويرى أنه لو كان الماء الراكد لما أسن . ولم يمنعه ما أخذه على عدي في قوله : « يا ليت شعري وانَ ذو عَجَّةٍ » من وصله همزة القطع من أن يصدر حكمه العدل بجودة شعره واحرازه فضيلة السبق على غيره .

(١) رسالة الغفران : ٧٠ وما بعدها .

ومن أنصفوا عدياً من تعصب القدماء وأخذهم عليه رقة أسلوبه الجرجاني في وساطته إذ يقرر : أن رقة الشعر وصلابته وسهولة اللفظ وتوعره يرجع إلى اختلاف الطبائع وتركيب الخلق فيقول[١] : « وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك، ولأجله قال النبي ﷺ : « من بدا جفا » ولذلك تجد شعر عدي وهو جاهلي ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ، وهما آهلان ، لملازمة عدي الحاضرة ، وإيطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب » .

ويقول أيضاً[٢] : زعم الأصمعي أن العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، لأن ألفاظها ليست بنجدية ، وكيف يكون ذلك ، وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء ؟ » .

وإذا ما تجاوزنا أقوال المعجبين بشعر عدي ، ونظرنا في أقوال النقاد الذين حددوا منزلته الشعرية ، ووضعوه في المرتبة التي رأوا أنه جدير بها ، بدا لنا المكان الرفيع الذي تبوأه عدي بين الشعراء .

---

(١) الوساطة : ١٣ ، ١٤ . (٢) المصدر السابق : ٣٩ .

لقد ذكره ابن سلام في الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية، وقال[1] : « وهم أربعة رهط فحول شعراء ، موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة : طرفة وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة ، وعدي بن زيد ... وله أربع قصائد غرر روائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن » .

وروى الجاحظ أن أبا إياس النصري الذي وصفه بأنه أنسب الناس، قال : « كانوا يقولون : أشعر العرب أبو دؤاد الايادي وعدي ابن زيد العبادي[2] » .

ويروي أبو الفرج عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : «كان أوس بن حجر فحل الشعراء ، فلما نشأ النابغة طأطأ منه . وأما الكلبي فانه زعم أن من هذه الطبقة لبيد بن ربيعة والشماخ بن ضرار . قال : وتميم إلى الآن مقيمة على تقديم أوس : قال: ومنهم من يقول بتقديم عدي ، وأنشد لحارثة بن بدر الغداني :

والشعرُ كانَ مَبيتُه ومظَلُّهُ عندَ العِباديِّ الذي لا يُجهَلُ

وقال يعقوب بن سليمان قال حماد : أدركت رجالاً من بني تميم لا يفضلون على عدي في الشعر في أحداً[3] » .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١١٥ (٢) البيان والتبيين : ١/٣٢٣ .
(٣) الأغاني ١١/٧٠ .

ويروي أبو الفرج أيضاً قول أبي الشِّبْل البرجمي: «ماشعر علي بن الجهم في الحبس بدون شعر عدي بن زيد[(١)]» . وهو بذلك يجعل من شعر عدي مثالاً يحتذى ، ويوزن به غيره من الشعر.

وينقل السيوطي[(٢)] عن الزجاجي في أماليه : أن الحجاج أقبل على سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فقال : أيُّ العرب أشعر قال : الذي يقول :

أيُّها الشامِتُ المعيِّرُ بالمَوْ ت أأنتَ المبرَّأُ المَوْفورُ

وليس أدل على إعجاب الناس وتعلقهم بشعر عدي من اقبال المغنين على تلحينه والتغني به ، لما توفر فيه من طاقة غنائية ضخمة مستمدة من اللفظ العذب المتخير ، والمعنى الطريف المؤثر ، والعاطفة الصادقة المتأججة . يقول أبو الفرج[(٣)] : « وفي سائر قصائد عدي بن زيد التي كتب بها إلى النعمان يستعطفه ويعتذر إليه أغان».

ولقد وقف القدماء أيضاً عند سبقه إلى كثير من المعاني والصور التي أخذها الشعراء عنه ، كما ذكروا مآخذهم على ما رأوا في شعره من مخالفات أو هنات ، على نحو ما سبق تفصيله في حديثنا عن خصائصه العامة ومميزات شعره الفنية[(٤)] .

---

(١) الأغاني ١٠/٢٠٨ . (٢) شرح شواهد المغني : ١٦١ .
(٣) الأغاني ٢/١٤٦ . (٤) انظر خصائصه العامة ص ٢٥١

وبعد ، فهذه هي آراء القدماء في عـدي ، فريق تحامل عليه وأزرى بشعره وغضّ من منزلته ، لأنه لم يكن شاعراً بدوياً فطرياً جافياً تقليدياً . وفريق أعجب به وأشاد بشعره ورفع من منزلته ، لأنه كان شاعراً حضرياً مثقفاً رقيقاً متفنناً . وقد استعرضنا مآخذ الفريق الأول عليه ، ورأيناها عند المناقشة لا تخرج عدياً من حلبة الفحول من الشعراء كما أراد له هذا الفريق ، كما لا ترفعه الأحكام المرتجلة السريعة التي أطلقها بعض العلماء من الفريق الثاني إلى الأوج الذي أحبه له .

والحكم العادل على شعر عدي ينبغي أن يكون مستمداً من دراسة عميقة شاملة لشعره ، تستجلي خصائصه ومميزاته الفنية ، وتكشف عن الجديد الذي أحدثه عدي ، والأثر الذي خلفه في التراث الشعري ، والآفاق التي فتحها لقارئيه .

وأحسب أن فيما قدمناه من دراسة لشعر عدي الذي استطعنا جمعه ، وما حصلنا عليه من نتائج دليلا لا يرقى إليه الشك على أن عدياً كان من كبار شعراء العربية في عصره ، وأنه بما فتح من أبواب جديدة للشعر ، وما افترع من أبكار المعاني وبديع الصور ، جدير بأن يأخذ مكانه بين الفحول من الشعراء .

خاتمة

١

خلاصة البحث :

تقع هذه الدراسة في بابين أولهما (عدياً الرجل) وينقسم إلى فصلين ، ويتناول الثاني (عدياً الشاعر) وينقسم إلى ثلاثة فصول .

أما الباب الأول فقد تناولت في الفصل الأول منه بيئة الشاعر المكانية ، فتحدثت عن نشأة الحيرة ، ثم انتقلت إلى الحديث عن سكانها وملوكها ، وعن ازدهارهاالسياسيوالاقتصادي وتأثرها بجو الحضارة الفارسية والبيزنطية . وخلصت بعد ذلك إلى الحديث عن نزول آل عدي الحيرة وتمكنهم فيها وبلوغهم أعلى المراتب .

وفي الفصل الثاني تناولت حياة الشاعر ، فتحدثت عن اسمه ونسبه وكنيته ونسبته إلى العباد ، نصارى الحيرة ، ثم انتقلت إلى ذكر مولده ونشأته في كنف اسرته الكبيرة المتنفذة التي دفعته إلى المجد والشهرة والنفوذ ، والاتصال بالقصرين الكبيرين

الحاكمين في عصره ، قصر المناذرة في الحيرة ، وقصر الأكاسرة في المدائن ، ولم تكن صلته بهما صلة المادح المستجدي ، بل كانت صلة رجل الدولة العامل والمستشار الأمين والمصرّف لكبير الشؤون فيهما ، حتى إنه كان السبب في تولية النعمان ابن المنذر أمر الحيرة دون اخوته جميعاً ، مما أوغر عليه الصدور وأرّث الأحقاد وأثار حسد الخصوم وعلى رأسهم خصمه اللدود عدي بن مَرِينا الذي ما فتىء يكيد له حتى أوقع به عند النعمان بن المنذر فسجن ثم قتل . وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن صفاته وأخلاقه ، فأوضحت أن ما وصلنا من أخبار عدي وشعره يشهد بأن عدياً كان متصفاً بطائفة من الصفات والشمائل الخَلْقية والخُلُقية أهّلته لأن يكون محبوباً لدى النساء ، أثيراً عند الأخلاء ، مقرباً من الحكام ونفوس الجماهير . وانتقلت بعد ذلك إلى قصة حبه لهند بنت النعمان وزواجه منها ، ورجحت أن تكون هند هذه أخت النعمان لا ابنته ، وأبنت عن حقيقة حياة الشاعر العاطفية في الفترة الأولى من حياته ، إذ تبين لي أنه لم يكن ذلك المحب الذي اكتوى بنار العشق ولذّع قلبه الغرام ، وإنما كان طالب لذة وخدين متعة ، لا يصبر على طعام واحد . ثم انتقلت إلى الحديث عن جانب آخر من جوانب شخصية عدي

هو جانب التدين ، ويتجلى هذا الجانب بشعر المواعظ الذي وقف له عدي أجود قصيده ، وحباه عصارة تفكيره ، وأبنت أن روح التدين عند عدي ليست بالروح النصرانية الخالصة ، وإنما تمازجها الوثنية العربية كما هو واضح في شعره . وختمت هذا الفصل بالحديث عن سجنه ، فبينت المؤامرات التي حاكها له أعداؤه وعلى رأسهم عدي بن مَرينا حتى أوغروا صدر النعمان بن المنذر عليه فزج به في السجن . وما زال أعداؤه يتعقبونه بالكيد والتآمر وهو في السجن حتى قتلوه فيه

وأما الباب الثاني فقد تناول الفصل الأول منه الحديث عن رواية شعر عدي وتدوينه ، وقد عرضت فيه لجهود الرواة والمؤلفين على ممر القرون في حفظ شعره وتدوينه في مختلف المصادر ، وبدأت بديوانه فتحدثت عن اشارات المصادر إلى أنه صنع صنعتين ، إحداهما لابن الأعرابي ، والثانية لأبي سعيد السكري ، وأن ديوان عدي ظل موجوداً في خزائن الكتب العامة والخاصة حتى أواخر القرن الحادي عشر ، ولكن الأيام عدت عليه فلم تبق على نسخة منه . ثم عرضت لشعره في سائر المصادر : كتب الاختيار فكتب الأدب واللغة فكتب التراجم والطبقات ، وقصرت حديثي على أصلها وأكثرها احتفالاً بشعره ، واستظهرت من بعض

القرائن أن شعر عدي لم ينته إلينا كاملاً ، بل أصاب الضياع طرفاً منه . ثم تحدثت عن الشك الذي حام حول بعض شعره في القديم والحديث ، وأبنت أنه إن كان قد حمل على شعره شيء من نحل فقد زيّف على الرواة الأوائل ، ولذلك لم يطعن في شعره أحد بعد التدوين ، وخلصت إلى قبول ما وافتنا به المصادر الموثوقة ما لم يقم دليل يدفع هذا القبول ، ويرجح جانب الرفض.

وفي الفصل الثاني تناولت أغراضه الشعرية ، فمهدت للحديث عنها بوصف عام لاتجاهه الفني ، وخلصت إلى أن أغراضه الشعرية على كثرتها تسير في اتجاهين واضحين : اتجاه جاد رزين، واتجاه لاهٍ مرح ، وبدأت بالاتجاه الأول فدرست فن الاعتذار عنده وتبين لي أنه السابق إلى هذا الفن وأن النابغة الذبياني أخذ عنه، وانتقلت بعد ذلك إلى مواعظه فرأيت أنه الغرض الذي أصّل له عدي ، وأرسى دعائمه ، وجعل منه موضوعاً بارزاً متميزاً في الشعر الجاهلي ، وقد انطوى تحت هذا الغرض كل ما له صلة بالمواعظ ، فدخل فيه الشعر الذي يتحدث فيه عن الموت والفناء ، والشعر القصصي ، والحكمة ، والشعر في الشيب والشباب ، إذ ينبض هذا الشعر كله بايقاع الموعظة ويخلع ظلال التدبر والتأمل والاعتبار . ثم انتقلت إلى الاتجاه الثاني فدرست خمرياته فرأيته الرائد الأول

لشعر الخمر الذي فتح باب القول في الخمر على مصراعيه ، ومهد الطريق لمن تلاه من شعراء الخمر في الجاهلية والاسلام ، كالأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبي نواس . وعرضت بعد ذلك إلى دراسة غزله ، فميزت فيه لونين من الغزل : الأول غزل طللي تقليدي يفتتح به قصائده ، والثاني غزل يدور حول المرأة فيصف جمالها ، ونسبها ، وحسن حديثها ، وزينتها ، وصبوته إليها ، واستمتاعه بمجالستها ، وانتهيت إلى أن غزله يتسم بالرقة والسلاسة والنغم العذب ، ويصور الحياة اللاهية المترفة التي كان يتقلب في أعطافها . ثم تناولت بالدراسة فن الوصف عنده ، فرأيته يتجلى في وصف الفرس ، ووصف الأوابد ، ووصف السحاب، واستبان لي من هذه الدراسة قدرة الشاعر على الوصف والتصوير ، وأنه برّز على الخصوص في وصف الفرس وأجاد . وتناولت بعد ذلك أغراضه الثانوية الأخرى وهي: الفخر والهجاء والاستنجاد والتحريض.

وفي الفصل الثالث فرغت لدراسة خصائصه الفنية العامة ، ورأيت أن أهم الخصائص التي تميز بها هي : الابتكار والسبق ، والأصالة والطبع ، والصدق ، والانسانية ، ثم عرضت ما أخذ عليه من عيوب ، وما وقع فيه من هنات ، وهي هنات لا تجرح شاعريته ولا تقدح في مكانته ، وختمت هذا الفصل بعرض آراء

القدماء فيه ، ورأيتهم فريقين : أحدهما غضّ من شاعريته ، وأخرجه من حلبة الفحول من الشعراء ، لأن ألفاظه ليست بنجدية ، ولذلك فهم لا يرون شعره صالحاً للاحتجاج به ، والآخر أعجب بشعره وقدمه على غيره من الشعراء ، وقد عرضت أقوال كل من الفريقين ، ثم تناولتها بالمناقشة والتحليل ، وانتهيت إلى القول : إن ألفاظه الحيرية لا ينبغي أن تؤثر في شاعريته وجمال نظمه وشرف معانيه ، فالشعر الجيد الرائق شيء ، وصلاحيته للاحتجاج به شيء آخر ، وإن عدياً بما فتح من أبواب جديدة للشعر ، وما افترع من أبكار المعاني وبديع الصور جدير بأن يحتل مكانه في مصاف كبار شعراء العربية .

★ ★ ★

٢

نتائج البحث :

لقد حققت هذه الدراسة نتائج هامة ، نوجزها في النقاط التاليـة :

١ ـ جمعت هذه الدراسة ما أبقت عليه الأيام من شعـر عدي بن زيد ، وهو قدر لا يستهان به بالقياس إلى ماوصلنا من أشعار الجاهليين ، وصنفته بين دفتي ديوان محقق تحقيقاً علمياً محرراً ، بعد أن كان شعره منتثراً مشتتاً في بطون الكتب،تختلف في كمه وكيفه الأحكام ، وتظن بهما الظنون ، وقد حوى هـذا الديوان الذي أرجو أن أوفق إلى نشره قريباً طائفـة من شعر عدي لم ترد في الديوان المطبوع .

٢ ـ إن هذه الدراسة بما استقطرته من شعر عدي وأخباره، وما اختطت من منهج في دراسة شخصيته وفنه ، استطاعت أن تـكشف عن شاعر جاهلي كبير ، تميز شعره بالأصالة والطبع ، والصدق والانسانية ، والابتـكار والسبق في الأغراض الشعـرية وشـكل القصيدة ومضمونها جميعاً في وقت مبكر شديدالتبكير .

٣ ـ أبرزت هذه الدراسة عدة نتائج فنية ، أحسب أنها أضافت جديداً إلى بعض ما وقر في الأخلاد من أحكام ، منها:

آ ـ أن عدياً أسمعنا بمواعظه لأول مرة في تاريخ الشعر العربي لحناً جديداً واضحاً ، ما كان يتساقط إلى أسماعنا منه إلا نغمات متفرقات من حكمة الشعراء الجاهليين .

ب ـ مما سبق إليه بدافع الوعظ القصص الشعري ، الديني والتاريخي .

ج ـ أنه أول شاعر فتح باب الاعتذار وحدد معالمه ، فهو رائد الاعتذار الأول في الشعر العربي ، لا النابغة الذبياني كما هو سائد في الأذهان .

د ـ وكما سبق النابغة في الاعتذار سبق الأعشى في الخمر، فهو أول من وسّع دائرة الحديث عنها ، وأغنى وصفه لها ، مستقصياً ما يتصل بها وبمجالسها من قريب أو بعيد ، وخمرياته هي المثال الذي نهج نهجه من تلاه من شعراء الخمر كالأعشى والأخطل والوليد وأبي نواس .

٤ ـ أحسب أن هذه الدراسة وما تمخضت عنه من نتائج، قد أنصفت شاعراً مغبوناً ازورّ عن شعره فريق من القدماء ، لأنه لم يوقع ألحان البداوة الخالصة،ولم يتغنَّ بارقال الناقةوخـدها ، بل شدّ إلى قيثارة الشعر العربي وتراً جديداً ، فأسمعنا ألحانالحياة

الحضرية التي عاشها ، وصور البيئة الغنية المترفة التي تقلب في أعطافها، واستلهم ما وعاه عقله من معارف عصره ، وما شهدته عيناه من وقائع دنياه ، وأحسته نفسه اليقظة البصيرة من أمور آخرته وعقباه.

٥ ـ قدمت هذه الدراسة الدليل على أن في التراث المغمور المهمل ، الكثير من القيم الفنية الخصبة ، والنتائج الأدبية الهامة، أدت الملابسات السيئة المختلفة إلى حجبها عن النور ، وطمرها بين الركام.

وإني لأرجو أن تكون النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة حافزاً للدارسين على دراسة ما خلص إلينا من شعر الشعراء المغمورين المغبونين من أمثال عدي ، ممن لم تسلط عليهم الأضواء بعد ، عسى أن تضيف هذه الدراسات إلى التراث العربي قيماً فنية جميلة ، وحقائق كونية خالدة ، وتمد الحياة الانسانية بتجارب شعورية جديدة ، فكل شاعر كبير يوجد يولد معه عالم جديد وحياة جديدة .

★ ★ ★

المصادر والمراجع

آ ـ الكتب المطبوعة :

١ الأخبار الطوال للدينوري ، (القاهرة ١٩٦٠ م) .

٢ كتاب الاختيارين ، اختيار المفضل الضبي والأصمعي من أشعار فصحاء العرب في الجاهلية والاسلام جمع أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر وتفسيره (الهند ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٨ م) .

٣ أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي ، (المطبعة الأميرية ١٣٣٦ هـ) .

٤ أدب الكتاب للصولي ، (المطبعة السلفية ١٣٤١ هـ) .

٥ ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي ، (مطبعة هندية بمصر ١٩٢٣ هـ) .

٦ الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ، (الهند ١٣٣٢ هـ) .

٧ أساس البلاغة للزمخشري ، الطبعة الأولى ، (القاهرة ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م) .

٨ أسماء المقتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام وأسماء من قتل من الشعراء لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي ، تحقيق عبد السلام هرون (نوادر المخطوطات) .

٩ الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ، (١٣٦٠ هـ) .

١٠ الاشتقاق لابن دريد ، تحقيق عبد السلام هرون ، (السنة المحمدية ١٣٧٨ هـ) .

١١ اصلاح المنطق لابن السكيت ، تحقيق شاكر وهرون ، (دار المعارف ١٣٧٨ هـ) .
١٢ الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، (الكويت ١٩٦٠ م) .
١٣ الاعجاز والايجاز للثعالبي ، (المطبعة العمومية ١٨٩٧ م) .
١٤ الأعلام للزركلي ، الطبعة الثانية ، (مطبعة كوستاتسوماس ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧ م) .
١٥ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، (دار الكتب) .
الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، (ساسي) .
١٦ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة لابن السيّد البطليوسيّ ، (بيروت ١٩٠١ م) .
١٧ الألفاظ الكتابية للهمذاني تحقيق لويس شيخو ، (بيروت ١٩١٣ م) .
١٨ أمثال العرب للمفضل الضبي ، (مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م) .
١٩ أمالي ابن الشجري ، (الهند ١٣٤٩ هـ) .
٢٠ أمالي القالي ، (دار الكتب ١٣٤٤ هـ) .
أمالي القالي ، (مطبعة السعادة ١٩٥٤) .
٢١ أمالي المرتضى ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم (البابي الحلبي ١٩٥٤ م) .
٢٢ الأنساب للسمعاني ، (ليدن ، بريل ١٩١٢ م) .
٢٣ أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام وأخبارها لابن الكلبي ، (بريل ، ليدن ١٩٢٨ م) .
٢٤ الانصاف في مسائل الخلاف للأنباري ، تحقيق محي الدين عبد الحميد (السعادة ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م) .
٢٥ الأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة ، (الهند ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦ م) .
٢٦ البخلاء للجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، (دار المعارف ١٩٥٨ م) .

٢٧ البدء والتاريخ لمطهّر بن طاهر المقدسي ، (باريس ١٩١٩ م) .
٢٨ البداية والنهاية لابن كثير ، (السعادة ١٣٥١ هـ) .
٢٩ البلدان للهمذاني ، (ليدن ١٣٠٢ هـ) .
٣٠ بلوغ الأرب للألوسي ، (المطبعة الرحمانية ١٣٤٢ هـ) .
٣١ البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هرون ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧ - ١٣٧٠ هـ) .
٣٢ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة . تحقيق أحمد صقر (البابي الحلبي ١٩٥٤ م) .
٣٣ تاج العروس للزبيدي . (المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ) .
٣٤ تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي لشوقي ضيف . (دار المعارف الطبعة الأولى) .
٣٥ تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان الجزء الأول (دار المعارف ١٩٥٩ م) .
٣٦ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام للذهبي . (مطبعة السعادة ١٣٦٨ هـ) .
٣٧ تاريخ الأمم والملوك للطبري ، (الحسينية ، الطبعة الأولى) .
٣٨ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة بن الحسن الأصفهاني . (بيروت وأوربا) .
٣٩ تاريخ العرب لفيليب حتي (بيروت ١٩٤٩ م) .
٤٠ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي (المجمع العلمي العراقي ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٤ م) .
٤١ تاريخ اليعقوبي . (ليدن وبيروت) .
٤٢ تجارب الأمم لابن مسكويه . (ليدن ، بريل ١٩٠٩ م) .
٤٣ التشبيهات لابن أبي عون . تحقيق محمد عبد المعيد خان . (كمبردج ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م) .

٤٤ التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه لأبي أحمد الحسن العسكري. (مطبعة الظاهر بمصر ١٣٢٦ ه) .
٤٥ تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس ، تأليف جميل سعيد ، (مطبعة الاعتماد ١٩٤٥ م) .
٤٦ التطور والتجديد في الشعر الأموي لشوقي ضيف (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ م) .
٤٧ تفسير الطبري لابن جرير الطبري . تحقيق محمود واحمد شاكر . (دار المعارف وطبعة بولاق ١٣٢٣ ه) .
٤٨ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة . تحقيق أحمد صقر ، (مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٨ م) .
٤٩ تفسير القرطبي (دار الكتب ١٩٣٩ م) .
٥٠ التمثيل والمحاضرة للثعالبي . تحقيق عبد الفتاح الحلو ، (مطبعة البابي الحلبي ١٣٨١ ه) .
٥١ تهذيب اصلاح المنطق للتبريزي . (مطبعة السعادة ١٣٣٥ ه) .
٥٢ تهذيب الألفاظ لابن السكيت . (بيروت ١٨٩٥ م) .
٥٣ تهذيب الإيضاح القزويني للتنوخي . (مطبعة الجامعة السورية بدمشق) .
٥٤ تهذيب الصحاح للزنجاني . تحقيق عبد السلام هرون واحمدعبدالغفور العطار (دار المعارف ١٩٥٢) .
٥٥ ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي والسجستاني وابن السكيت ، نشر أوغست هفنر (بيروت ١٩١٢ م) .
٥٦ ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ، (المطبعة الخيرية ١٣٣٩ ه) .
٥٧ الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري . الطبعة الأولى (النجف ١٣٣٧ ه).
٥٨ جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (المطبعة الخيرية ١٣٣٠ ه والمطبعة الرحمانية ١٣٤٥ ه) .
٥٩ جمهرة أنساب العرب لابن حزم (دار المعارف ١٩٤٨) .

٦٠ جمهرة اللغة لابن دريد . الطبعة الأولى (حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ هـ).
٦١ حديقة الأفراح لازاحة الأتراح للأنصاري . (بولاق ١٢٨٢ هـ).
٦٢ حماسة البحتري . (المطبعة التجارية ١٩٢٩ م) .
٦٣ حياة الحيوان الكبرى للدميري . (مطبعة الواثق بربه المعين الشيخ محمد شاهين ١٢٧٨ هـ) .

٦٤ الحيوان للجاحظ (البابي الحلبي ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م) .
٦٥ خزانة الأدب للبغدادي ، (بولاق ١٢٩٩ هـ والسلفية ١٣٤٧ هـ).
٦٦ الخصائص لابن جني . تحقيق محمد علي النجار ، (دار الكتب ١٣٧١ هـ) .
٦٧ الخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى رواية أبي حاتم السجستاني ، (الهند ١٣٥٨ هـ) .
٦٨ دائرة المعارف الاسلامية (القسم الانكليزي A D الذي لم يترجم بعد).
٦٩ دراسات في الأدب العربي لفوستاف فون غرنباوم ترجمة : عباس وفريحة ويازجي (بيروت) .
٧٠ درة الغواص في أوهام الخواص للحريري . (الجوائب ١٢٩٩ هـ) .
٧١ الدرر اللوامع على همع الهوامع لأحمد بن الأمين الشنقيطي . (الجمالية ١٣٢٨ هـ).
٧٢ ديوان الأعشى (ط . ليدن) و (ط . النموذجية) .
٧٣ ديوان عامر بن الطفيل بشرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري . (بيروت) .
٧٤ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (مكتبة القدسي ١٣٥٢ هـ) .
٧٥ الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق للاشبيلي ، (المطبعة الوهبية ١٢٩٨ هـ) .
٧٦ الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي تحقيق شوقي ضيف ، (مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٣٦٦ هـ) .

٧٧ رسائل أبي العلاء المعري ، (طبعة أكسفورد ١٨٩٨ م) .
٧٨ رسالة الغفران لأبي العلاء المعري تحقيق بنت الشاطىء . (دار المعارف الطبعة الأولى والثانية) .
٧٩ الروض الأنف ، (الجمالية ١٣٣٢ هـ) .
٨٠ الزهرة للأصفهاني محمد بن داوود . تحقيق لويس نيكل . (بيروت ١٣٥١ هـ) .
٨١ سر الفصاحة للخفاجي ، تحقيق علي فودة . (المطبعة الرحمانية ١٣٥٠ = ١٩٣٢) .
٨٢ سرقات أبي نواس لمهلهل بن يموت تحقيق محمد مصطفى هدارة (دار الفكر العربي) .
٨٣ سمط اللآلي للبكري ، بتحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م) .
٨٤ سيرة ابن هشام ، (البابي الحلبي ١٣٥٥ هـ) .
٨٥ شرح الأبيات المشكلة الاعراب للفارقي . تحقيق سعيد الأفغاني ، (الجامعة السورية ١٣٧٧ هـ) .
٨٦ شرح بانت سعاد لابن هشام ، (مطبعة ليبزيك ١٨٧١ م) .
٨٧ شرح درة الغواص للخفاجي ، (الجوائب ١٢٩٩ هـ) .
٨٨ شرح ديوان الحماسة للتبريزي تحقيق محي الدين عبد الحميد (مطبعة حجازي ١٣٥٨ هـ) .
٨٩ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧١ هـ) .
٩٠ شرح السيرة للخشني (المطبعة الهندية بمصر ١٣٢٩ هـ) .
٩١ شرح شافية ابن الحاجب للاسترابادي مع شرح شواهده للبغدادي (حجازي ١٣٥٨ هـ) .
٩٢ شرح شواهد المغني للسيوطي ، (القاهرة ١٣٢٢ هـ) .
٩٣ شرح القصائد العشر للتبريزي ، (السلفية ١٣٤٣ هـ) .

٩٤ شرح المضنون به على غير أهله للعبيدي تحقيق اسحاق بنيامين يهودا ، (السعادة ١٩١٥ م) .
٩٥ شرح المفصل لابن يعيش (ط . المنيرية) .
٩٦ شرح المفضليات للأنباري ، (ط . اليسوعيين . بيروت ١٩٢٠م).
٩٧ شرح مقامات الحريري للشريشي ، (ط بولاق ١٢٨٤ هـ) .
٩٨ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، (ط . البابي الحلبي ١٩٥٩ م) .
٩٩ شروح سقط الزند للبطليوسي ، (ط . دار الكتب ١٩٤٧ م) .
١٠٠ شعراء النصرانية للويس شيخو ، (بيروت ١٩٢٦ م) .
١٠١ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق احمد شاكر .
١٠٢ صبح الأعشى للقلقشندي ، (الأميرية ١٣٣٧ هـ = ١٩١٨ م) .
١٠٣ الصحاح للجوهري ، (بولاق ودار الكتاب العربي تحقيق احمد عبد الغفور عطار) .
١٠٤ طبقات فحول الشعراء لابن سلام تحقيق محمود محمد شاكر ، (دار المعارف ١٩٥٢ م) .
١٠٥ العبر لابن خلدون ، (المطبعة الأدبية بيروت ١٨٧٩ م) .
١٠٦ العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق أحمد أمين ، احمد الزين ، ابراهيم الابياري ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠م).
١٠٧ العمدة لابن رشيق تحقيق محي الدين عبد الحميد ، (مطبعة حجازي) .
١٠٨ عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق الحاجري وسلام .
١٠٩ عيون الأخبار لابن قتيبة ، (دار الكتب ١٣٤٣ هـ) .
١١٠ غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للثعالبي (باريس) .
١١١ غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة للوطواط ، (المطبعة الكلية مصر ١٣٣٠ هـ) .
١١٢ فحولة الشعراء للأصمعي تحقيق الخفاجي والزيني .

١١٣ فرائد اللآل في مجمع الامثال للشيخ ابراهيم الطرابلسي ، (الكاثوليكية بيروت ١٣١٢ هـ) .
١١٤ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري نشر مكتبة القدسي ، (القاهرة ١٣٥٣ هـ) .
١١٥ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد الله البكري تحقيق عابدين وعباس ، (الطبعة الأولى ١٩٥٨ م) .
١١٦ الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ لأبي العلاء المعري ، (مطبعة حجازي ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٨ م) .
١١٧ فصيح اللغة العربية لثعلب تحقيق بدر الدين النعساني الحلبي ، (السعادة ١٣٢٥ هـ) .
١١٨ فقه اللغة للثعالبي ، (السعادة ١٣٤١ هـ) .
١١٩ فهرست ابن خير الاشبيلي ، (سرقسطة ١٨٩٣ م) .
١٢٠ الفهرست لابن النديم (الرحمانية) .
١٢١ قواعد الشعر لثعلب تحقيق عبد المنعم خفاجي (ط . البابي الحلبي) .
١٢٢ القيان والغناء في العصر الجاهلي لناصر الدين الأسد (ط . دار المعارف) .
١٢٣ الكامل في التاريخ لابن الأثير تحقيق عبد الوهاب النجار ، (المنيرية ١٣٤٨ هـ) .
١٢٤ الكامل للمبرد ، (البابي الحلبي ١٣٥٦ هـ) .
١٢٥ الكتاب لسيبويه مع شرح شواهده للشنتمري (بولاق ١٣١٦ هـ) .
١٢٦ الكتّاب لابن درستويه نشر لويس شيخو ، (ط . اليسوعيين بيروت ١٩٢١ م) .
١٢٧ الكشكول للعاملي ، (الابراهيمية ١٢٨٨ هـ) .
١٢٨ كنى الشعراء لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي تحقيق عبد السلام هرون (نوادر المخطوطات) .

١٢٩ لباب الآداب لأسامة بن منقذ تحقيق أحمد محمد شاكر ، (الرحمانية ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) .
١٣٠ لسان العرب لابن منظور (بولاق ١٣٠٠ هـ) .
١٣١ لطائف المعارف للثعالبي تحقيق الأبياري والصيرفي (البابي الحلبي ١٣٧٩ هـ) .
١٣٢ اللهو والملاهي لابن خرداذبة ، سلسلة نصوص ودروس نشر أغناطيوس عبده . (بيروت) .
١٣٣ ليس في كلام العرب لابن خالويه ، (السعادة ١٣٢٧ هـ) .
١٣٤ ما تلحن فيه العوام للكسائي تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي (المطبعة السلفية ١٣٤٤ هـ) .
١٣٥ مبادىء اللغة للاسكافي تحقيق بدر الدين النعساني الحلبي . (السعادة).
١٣٦ مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى تحقيق محمد فؤاد سزكين (السعادة ١٣٧٤ = ١٣٨١ هـ) .
١٣٧ مجالس ثعلب ، (دار المعارف ١٩٤٨ م) .
١٣٨ مجلة الرسالة - السنة العشرون : ١٩٥٢ م .
١٣٩ مجمع الأمثال للميداني تحقيق محي الدين عبد الحميد ، (السنة المحمدية ١٣٧٤ هـ) .

١٤٠ مجموعة المعاني لمؤلف مجهول (الجوائب ١٣٠١ هـ) .
١٤١ محاسن النثر والنظم والكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (مصر).
١٤٢ المحاسن والأضداد للجاحظ ، (الجمالية ١٣٣٠ هـ وليدن ١٨٩٨م).
١٤٣ المحبّر لأبي جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي، (دائرة المعارف العثمانية الدكن ١٣٦١ هـ) .
١٤٤ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده تحقيق السقا ونصار (البابي الحلبي) .
١٤٥ المختار من شعر بشار للخالديين (الهند ١٣٥٣ هـ) .
١٤٦ المخصص لابن سيده ، (الأميرية ١٣٢١ هـ) .

١٤٧ المذكر والمؤنث للفراء تحقيق مصطفى الزرقاء ، (المطبعة العلمية حلب ١٣٤٥ هـ) .
١٤٨ مروج الذهب للمسعودي تحقيق محي الدين عبد الحميد .
١٤٩ المزهر للسيوطي (البابي الحلبي) .
١٥٠ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ، (دار الكتب ١٩٢٤ م) .
١٥١ المسالك والممالك لابن خردازبة ، (ليدن ١٣٠٦ هـ) .
١٥٢ المسالك والممالك للاصطخري (ليدن ١٨٧٠ إلى ١٨٩٤م) .
١٥٣ المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي تحقيق كردي ، (المجمع العلمي العربي بدمشق)
١٥٤ المشتبه في أسماء الرجال للذهبي ، (ليدن ١٨٦٣ م) .
١٥٥ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين أسد ، (دار المعارف ١٣٧٤ هـ) .
١٥٦ المصباح المنير للمقري الفيومي ، (الأميرية ١٩٠٩ م) .
١٥٧ المصون في الأدب لأبي احمد الحسن بن عبد الله العسكري تحقيق عبد السلام هرون .
١٥٨ مضاهاة أمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب لليمني تحقيق محمد يوسف نجم (بيروت ١٩٦١ م) .
١٥٩ معاني القرآن للفراء تحقيق نجاتي ونجار (دار الكتب) .
١٦٠ المعاني الكبير لابن قتيبة ، (حيدر آباد ١٣٦٨ هـ) .
١٦١ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ، (السعادة ١٩٤٧م).
١٦٢ المعرب للجواليقي تحقيق أحمد محمد شاكر ، (دار الكتب ١٣٦١هـ) .
١٦٣ معجم البلدان لياقوت الحموي ، (السعادة ١٣٢٣ هـ) .
١٦٤ معجم الشعراء للمرزباني (نشر مكتبة القدسي ١٣٥٤ هـ) .
١٦٥ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة (المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٩ م) .

١٦٦ معجم ما استعجم للبكري تحقيق السقا (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ - ١٩٥١ م) .
١٦٧ مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هرون (البابي الحلبي) .
١٦٨ المقدّمة من كتاب المسائل والأجوبة لابن السّيد البطليوسي تحقيق ابراهيم السامرائي (مطبوعات المجمع بدمشق ١٩٦٣ م) .
١٦٩ المقصور والممدود لأبي العباس أحمد بن محمد بن الوليد بن ولاّد ، (السعادة ١٩٠٨ م) .
١٧٠ المنصف لابن جني تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، (البابي الحلبي ١٩٥٤) .
١٧١ الموشح للمرزباني ، (السلفية ١٣٤٣ هـ) .
١٧٢ الموشى للوشاء تحقيق كمال مصطفى (الطبعة الثانية ١٣٠٢ هـ) .
١٧٣ الميسر والقداح لابن قتيبة تحقيق محب الدين الخطيب ، (السلفية ١٣٤٣ هـ) .
١٧٤ نثار الأزهار في الليل والنهار لابن منظور (الجوائب) .
١٧٥ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي الأتابكي، (دار الكتب ١٣٤٨ هـ) .
١٧٦ نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري (مصر ١٢٩٤ هـ) .
١٧٧ النشر في القراءات العشر لابن الجزري (التوفيق بدمشق ١٣٤٥ هـ) .
١٧٨ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو (بيروت ١٩٢٦م) .
١٧٩ نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب لأمجد الطرابلسي (مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٥ م) .
١٨٠ النقائض ، نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، (ليدن ١٩٠٥ م) .
١٨١ نقد الشعر لقدامة ، (الجوائب ١٢٩٨ هـ) .
١٨٢ نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، (دار الكتب ١٣٤٢ هـ) .

١٨٣ النوادر لأبي مسحل الأعرابي ، (المجمع دمشق ١٩٦١ م) .

١٨٤ النوادر في اللغة لأبي زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري .
(الكاثوليكية بيروت ١٨٩٤ م) .

١٨٥ الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني (مطبعة صبيح ١٣٦٨ هـ =
١٩٤٨ م) .

١٨٦ وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق محي الدين عبد الحميد ، (السعادة
١٩٤٩ م) .

★ ★ ★

ب ـ الكتب المخطوطة :

١ الأضداد لأبي الطيب اللغوي . مخطوط في سليم آغا في استامبول ، قيد الطبع في المجمع العلمي بدمشق .

٢ تاريخ ابن عساكر نسخة مصورة في المجمع العلمي العربي بدمشق (نسخة كمبردج) مجلدة ٥٣ ورقة ١٣٨ ونسخة الظاهرية ٣٣٩١

٣ التذكرة السعدية في الأشعار العربية لمحمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي .

٤ جمهرة أشعار العرب مخطوطة إمام الحرم المكي بمكتبة الحرم المكي ٣/٢٨

٥ جمهرة النسب لابن الكلبي ـ مصورة في مكتبة حمد الجاسر بالرياض عن نسخة المتحف البريطاني .

٦ الحماسة البصرية نسخة مصورة في المجمع العلمي بدمشق رقم ١٤٠ منقولة عن نسخة من القرن الثامن ، مكتبة نور عثمانية رقم ٣٨٠٤ .

٧ شرح مقصورة ابن دريد للخطيب التبريزي ، (معهد المخطوطات ٤٠٩٥ أياصوفيا) .

٨ شرح شواهد الاصلاح للسيرافي . الدار رقم ٧٤ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٩ شرح شواهد المغني للبغدادي ـ مخطوط الشنقيطي بدار الكتب المصرية ٢ نحو ش .

١٠ قطب السرور في أوصاف الخمور لأبي اسحاق ابراهيم المعروف بالرفيق النديم ، مصورة في المجمع العلمي بدمشق عن مخطوطة المتحف البريطاني ، ورقمها : ٧٠ .

١١ مجالس أبي مسلم لمحمد بن أحمد بن علي الكاتب مخطوطة دار الكتب ٧٧ أدب ش .

جـ - الكتب الأجنبية :

1) A literary History of the Arabs,by Nicholson.Cambridge.

2) Encyclopaedia of Islam, Vol. - A D

تصويب ما ندّ من فرطات مطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٧	١٠	كأمرىء	كامرىء
٦٢	٦	ذهب	ذهبت
٧٠	١٠	عهدي	عندي
٩٢	١٣	اللغوي بابن الشجري	اللغوي المعروف بابن الشجري
١٠٦	٦	والإعتذار والإستعطاف	والاعتذار والاستعطاف
١٠٨	٨	حتى أنه	حتى إنه
١٠٩	١	قبه	قلبه
١٢٠	١٣	ادهامه	ادلهامه
١٢١	٧	إراً	إبراً
١٧٢	١	سل قرينه	سل عن قرينه
١٨٤	٤	غزر	غزير
١٨٩	٨	حسرن على	حسرن عن
٢١٤	١٤	عاليان	عاليتان
٢٣٢	٩	يرتقن	يرتقين
٢٦٢	٤	الفزار	الفرار
٢٧٢	٢	متلونة	متلونة
٢٨٩	١	وإذ قدمنا الفريق	وإذ قدمنا أقوال الفريق
٢٩٧	١٦	الشعر في أحداً	الشعر أحداً
٣٠٠	٨	بحو	بجو
٣٠١	٤	ابن	بن

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣ – ٨
الباب الأول	٩ – ٧٣
عدي الرجل	
الفصل الأول بيئته	١١ – ٢١
(١) الحيرة	١١
(٢) آل عدي في الحيرة	١٧
الفصل الثاني : حياته	٢٢ – ٧٣
(١) اسمه ونسبه	٢٢
(٢) مولده ، نشأته ، ثقافته . . .	٢٨
(٣) صلاته برجال عصره	٣٢
(٤) صفاته وأخلاقه	٤٥
(٥) حبه لهند بنت النعمان وزواجه منها . .	٥١
(٦) تديّنه	٥٧
(٧) سجنه ومقتله	٦٢

الموضوع — الصفحة

الباب الثاني
عمري الشاعر

الباب الثاني — عمري الشاعر ٧٥ – ٢٨١

الفصل الأول : رواية شعره وتدوينه . . ٧٧ – ١٠٥

(١) تمهيد ٧٧
(٢) ديوانه ٧٩
(٣) شعره في كتب الاختيار . . . ٨٦
(٤) شعره في كتب الأدب واللغة . . . ٩٠
(٥) شعره في كتب التراجم والطبقات . . ٩٣
(٦) الشك في رواية بعض أشعاره . . ٩٨

الفصل الثاني : أغراضه الشعرية . . . ١٠٦–٢٥٠

تمهيد ١٠٦

(١) الاعتذار والاستعطاف ١٠٨
(٢) المواعظ ١٣٣

آ ـ الموت والفناء ١٣٣
ب ـ الشعر القصصي : القرون الخالية والأمم السالفة ١٦٠
جـ ـ الحكمة ١٦٨
د ـ الشيب والشباب ١٧٥

(٣) الخمر ١٧٨
(٤) الغزل ١٩٨

الموضوع الصفحة

(٥) الوصف ٢١٢
آ ـ وصف الفرس ٢١٣
ب ـ وصف الأوابد . . . ٢٢٥
ج ـ وصف السحاب . . . ٢٣١

(٦) أغراض أخرى ٢٣٦
آ ـ الفخر ٢٣٦
ب ـ الهجاء ٢٣٩
ج ـ الاستنجاد والتحريض . . . ٢٤٤

الفصل الثالث : شاعريته وفنه . . . ٢٥١-٢٩٩

(١) الخصائص الفنية العامة لشعره . . . ٢٥١
١ ـ الابتكار والسبق . . . ٢٥٢
٢ ـ الأصالة والطبع . . . ٢٦٥
٣ ـ الصدق ٢٧٢
٤ ـ الانسانية ٢٧٤
٥ ـ عيوب في شعره . . . ٢٧٦

(٢) القدماء وشعره ٢٨١

الخاتمة ٣٠٠-٣٠٨

(١) خلاصة البحث ٣٠٠
(٢) نتائج البحث ٣٠٦

المصادر والمراجع ٣٠٩